عذراء قريش

تأليف
جرجي زيدان

دار الجيل
بيروت

روايات تاريخ الإسلام

عذراء قريش

General Organization of the Alexandria Library (GOAL)
Bibliotheca Alexandrina

تتضمن تفصيل مقتل الخليفة عثمان بن عفان وخلافة الامام علي ، وما نجم عن ذلك من الفتنة وواقعتي الجمل وصفين الى تحكيم الحكمين وخروج مصر من خلافة الامام علي

تأليف
جرجي زيدان

دار الجيل
بيروت - لبنان

جميع الحقوق محفوظة
لدار الجيل

الطبعة الثانية

مكتبة لسان العرب
رفع أ. علاء الدين شوقي أسكنه الله الفردوس

شخصيات الرواية

✶ عثمان بن عفان	: ثالث الخلفاء الراشدين
✶ علي بن ابي طالب	: رابع الخلفاء الراشدين
✶ عائشة أم المؤمنين	: زوجة النبي صلى الله عليه وسلم
✶ نائلة بنت الفرافصة	: زوجة الخليفة عثمان
✶ محمد بن ابي بكر الصديق	: أخو عائشة
✶ عذراء قرينس	: اسماء بنت مريم
✶ مريم ام اسماء	: من سبايا فتح مصر
✶ مروان بن الحكم	: ابن عم عثمان بن عفان
✶ معاوية بن ابي سفيان	: اول ملوك الدولة الاموية
✶ عمرو بن العاص	) الحكمان في الخلاف
✶ ابو موسى الاشعري	) بين علي ومعاوية

مراجع رواية عذراء قريش

هذه المراجع هي التي اعتمد عليها المؤلف في تأليف الرواية ووقائعها التاريخية :

★ معجم ياقوت
★ السيرة الحلبية
★ قاموس الاسلام
★ صفوة الاعتبار
★ أسد الغابة
★ الاغاني للاصفهاني
★ العقد الفريد
★ تاريخ الخميس
★ صحيح البخاري
★ مراصد الاطلاع
★ نهج البلاغة
★ كتب تاريخ : ابن الاثير ــ المسعودي ــ الدميري ــ أبو الفداء ــ ابن خلدون ــ ابن هشام

- ١ -

سر ذاهب الى القبر

«قباء» : قرية على بعد ميلين من المدينة المنورة «يثرب» . اشتهرت بعد الهجرة بنزول صاحب الشريعة الاسلامية بها في اثناء هجرته الى المدينة وبنائه فيها مسجدا هو اول مسجد في الاسلام .

وكانت قباء قد اشتهر امرها وعرفت بسكانة مسجدها في خلافة عثمان بن عفان ثالث الخلفاء الراشدين وبعد اتخاذ المدينة عاصمة ؛ وقد عني الخلفاء بتحسين ذلك المسجد وبخاصة الخليفة عثمان اذ وسعه وزاد فيه وخصص نفرا لخدمته . على ان ذلك لم يزد كثيرا في سكان قباء نفسها .

وكان لذلك المسجد في أواخر خلافة عثمان خادم طاعن في السن اسمه «عامر» شهد بناء المسجد ، ورأى صاحب الشريعة يوم نزل هنالك وأمر ببنائه ؛ فأقام عامر بقباء هو وعياله ، يقضي نهاره في خدمة المسجد وتنظيفه ، فاذا فرغ من ذلك خرج بأولاده يرعى ابل احد اغنياء المدينة في بعض الاودية الكثيرة في تلك المنطقة .

ففي مساء يوم من ايام سنة ٣٥ من الهجرة ، خرج الشيخ لرعاية الابل فأوغل في بعض الاودية حتى اقترب الغروب فأسرع بالرجوع راكبا ناقته وقد ارخى لها الخطام وأخرج مسلة مغروسة في شعر رأسه المتلبد ووخز بها الناقة بين جنبيها استحثاثا لها على المسير فطارت به ، وكان اولاده يتبعونه على بقية النوق وقد ركب أصغرهم ناقة عارية ، ووضع آخر أمامه على ناقته أخشابا جمعها من غصون الشجر المتساقطة ليوقدوا نارهم بها . وكانت النوق كلها مطلقة الزمام . والشيخ أعجل الجميع خشية ان تغيب الشمس ويحين وقت صلاة المغرب قبل وصوله. ورأى الشمس كأنها تسرع في الغروب فخيل اليه انها تسابقه فجعل يستحث ناقته ، غير عابيء بجمال الصحراء في تلك الساعة ، اذ امتدت الظلال حتى اختلط بعضها ببعض ، فلم يفرق بين ظلال النخيل وظلال غيرها من الشجر ، وبين ظلال الآدميين . وكذلك غفل الشيخ لعجلته ولهفته عن الشذا المنبعث من نبات الصحراء . ولم يستوقف سمعه شدو الطيور ولا نقيق الضفادع . على انه لم يكد يشرف على قباء حتى سمع رغاء الجمال وصهيل الخيل ، ولما قارب المسجد رأى هناك ركبا معهم الجمال والاحمال فلم يستغرب ذلك اذ تعود ان يرى كثيرا من أمثاله كل عام، لان القوافل كانت تمر بقباء في طريقها الى المدينة فتقف للراحة والاستقاء . فازداد رغبة في العجلة ليقوم بخدمة القادمين ، والتفت خلفه ونادى احد اولاده وقال له : «أسرع الى البيت وعد الى بجرة الماء لعل في الركب من يحتاجون اليه» .

★ ★ ★

وظل الشيخ مسرعا ، وكلما اقترب من المسجد وتوقع ان يتبين الوجوه حجبها عنه تكاثف الشفق حتى وصل فاذا الركب بضعة رجال

وفتاة ، ومعهم خيل وجمال • وقد تجمعوا بحنو ولهفة حول هودج عليه الأستار وفيه مريض يحاولون اخراجه الى مقعد في خيمة نصبوها بالقرب منه ، وما ان استخبرهم حتى علم انهم قادمون من الشام الى المدينة • فعجب لمرورهم بقباء وهي ليست في طريقهم اليها • ونظر الى كبيرهم فاذا هو كهل عليه لباس عرب الشام من القباء والرداء والعمامة ، وبجانبه شاب حسن البزة عليه عباءة من الصوف وسيفه مرصع • ووراءه خادم يحمل له الرمح والنبال ، وعلى مقربة منهما فتاة غضة الشباب مشرقة ممتلئة صحة ونشاطا ، على رأسها عقال • وزاد في اشراق وجهها ما اكتسبه من التورد على أثر التعب وركوب الجواد اياما في الصحراء • فلما رآها الشيخ استرعى انتباهه ما آنسه فيها من شدة الاهتمام بأمر المريض ، ورآها ترشدهم كيف يحملونه وينقلونه ويعتنون به • فترجل الشيخ عن ناقته وصاح : «اهلا بوجوه العرب» • ثم تقدم لمساعدتهم وتفرس في المريض فاذا هو امرأة في حدود الاربعين قد بلغت منتهى الضعف حتى يحسبها الناظر اليها ميتة • وأشارت اليه الفتاة ألا يدنو من المريضة لانهم يريدون حملها بأنفسهم • فتنحى وأمر اولاده ان يساعدوا الخدم في نصب الخيام وانزال الأحمال ، وسقي الجمال والخيل وغير ذلك ، وسار هو الى المسجد للأذان والصلاة •

واستمر الرجال في نقل المريضة ، وكانت الفتاة واسمها «أسماء» لا تني في عداد كل وسائل الراحة لها ، ولا عجب فالمريضة أمها وقد شبت على حبها • اما الكهل فزوج المريضة ، واسمه «يزيد» وكان قليل العنايه بأمرها الا بما توحيه اليه الفتاة • وأما الشاب فاسمه «مروان» وكان الزهو ظاهرا في وجهه لقرابته من الخليفة عثمان بن عفان •

ولما حملوا المريضة الى فراشها ، جلست أسماء بجانبها ، وأخذت تمسح العرق المتصبب من وجهها وهي غائبة عن الصواب ، وكانت

الدموع تملأ عيني الفتاة ولكنها كانت تتجلد لئلا يغلبها البكاء فتسمعه أمها فيزداد تألمها ٠ وكانت تمسح دموعها خلسة ونظرها لا يتحول عن وجه المريضة لحظة ٠

ولما أرخى الليل سدوله ، جاءهم عامر بمصباح أدخلوه الخيمة ، والفتاة لا تفتأ تنظر الى أمها لعلها تفتح عينيها او تحرك شفتيها او تلتمس امرا فتقدمه لها ، غير عابئة بالكهل زوج أمها ، ولا بذلك الشاب الذي قطع البراري والقفار في خدمتها عساه ان ينال حظوة في عينيها ٠ وكان الشاب قد طلب الاقتران بها منذ كانوا في الشام فلم ترض به هي ولا أمها ، وان رضي به يزيد رغبة في الدنيا وطمعا في منصب يناله ٠ ولم يكن يعطف على الفتاة ، لانها ليست ابنته ولا يعرف لها أبا ، اذ كانت أمها حين تزوجها سبية من سبايا مصر يوم فتحها عمرو بن العاص سنة ١٨ للهجرة ، وكانت هي في الثانية من عمرها حينذاك ٠ وبعد فتح الاسكندرية عاد بهما الى الشام فأقام فيها مع ذوي قرباه من بني أميه ٠

وكان يزيد كهلا أشيب الشعر ، قصير القامة ، خفيف العضل ، متجعد الوجه ، غائر العينين ، يحب المال حبا جما ، وكان الى ذلك سيء الخلق ٠ واعتقد أهل الشام ان أسماء ابنته ، وان عجبوا لاختلافهما خَلقا وخُلقا ٠ فقد كانت على جانب عظيم من المهابة والجمال ، جمعت بين لطف النساء وحزم الرجال وشجاعتهم ، وكان الناظر اليها لا يسعه الا ان يحترمها ، فاذا خاطبها آنس منها رقة وانفة ودعة وأريحية ٠ وكانت ربعة ممتلئة ، حنطية اللون ، سوداء العينين حادتهما ، طويلة الأهداب ، مقرونة الحاجبين ، دقيقة الفم ، سهلة الجبين تغضي العيون مهابة التفرس في وجهها ٠ اشتهرت بين اهل الشام بكل خلق حسن ، وأحبها مروان وجعل يتقرب منها وهو يحسب تقربه منة وكرما ٠ وأنها لا تلبث ان تطير فرحا لانها من عامة الناس وهو ابن عم الخليفة عثمان ٠ وكان

الخليفة يؤثر ذوي قرباه من بني أمية ويقدمهم في مناصب الدولة ويفتح لهم ابواب الرزق ، الامر الذي أدى الى قيام المسلمين عليه حتى تحدثوا في عزله وكانت الفتنة المشهورة . وظل مروان يتردد على منزل يزيد وكلاهما من بني أمية ، فيحتفل يزيد به ويود لو يتزوج أسماء فيحظى من الخليفة بمنصب ، فلما خاطبه مروان في ذلك أكد له انه نائل الفتاة لا محالة ، اعتمادا على ان القول قوله في أمر زواجها .

ولكنه ما ان خاطب امرأته في الامر حتى رأى منها اعراضا واباء ، وكلما ألح بشدة عليها راحت تماطله . وأدركت الفتاة ما بينهما من اجلها فاشتد نفورها من مروان ، لانها لم تكن تعتد بزخارف الدنيا ولكنها كانت تهوى الشهامة وكرم الاخلاق ، فلم يقع مروان من نفسها موقع القبول . ولما ازداد الحاح يزيد خشيت الأم ان يستعمل العنف في تنفيذ مأربه واستولى عليها القلق ، حتى نزل بها الداء ووهنت قواها ، فخافت الموت ، وطلبت ان تحمل الى المدينة على ان تجيب طلب مروان هناك .

وسر بذلك مروان ، اذ حدثته نفسه بأنه اذا جاء المدينة كان بالقرب من ابن عمه الخليفة عثمان ، فلا تعود الأم الى التردد خشية غضبه . وكان السفر سببا في اشتداد مرض الأم وأسماء لا تعلم سر ذلك الانتقال حتى خلت ذات يوم الى أمها وعاتبتها على ما حملت نفسها من المشقة ، فأسرت هذه اليها انها تنوي الاستجارة بعلي بن ابي طالب لعله ينقذها لما اشتهر به من اغاثة المظلومين ، ولما له من المكانة عند الخليفة والمسلمين .

وما زال المرض يشتد بالأم يوما بعد يوم ، وزوجها ومروان يودان لو قضت نحبها قبل الوصول الى المدينة ، لانهما عرفا شيئا عن حقيقة غرضها ، فكانا يطيلان مدة السير ويقودان القافلة في طرق طويلة حتى مروا بقباء وهي في الجنوب الشرقي من المدينة .

★ ★ ★

كانت الأم المريضة ـ واسمها «مريم» ـ بيضاء ، تحبو الى الاربعين من عمرها ، رومانية الملامح ، كبيرة العينين ، وقد زادهما الضعف جحوظا • وكانت منذ نقلوها الى الفراش في سبات عميق وأسماء بجانبها تمرضها ولا تأذن لأحد ان يأتي بحركة لئلا يزعجها • ولكنها لخوفها على أمها لم تكن تستطيع النظر الى ذلك الوجه الممتقع وتينك العينين الغائرتين والعنق المستدق ، وقد غطاه من الجانبين شعر اسود يخالطه بعض الشيب بلله عرق الحمى فتجمع خصلا متلاصقة ، وأشد ما كان يخيفها ان صدر أمها كان غائرا لفرط الضعف ، وان فمها اتسع واستطال حتى برز فكاه ، فلم تكن أسماء تتأمل في ذلك المنظر حتى يختلج قلبها وتخاف الموت على والدتها في تلك البرية • وكلما امسكت يدها لتعرف مدى حرارتها أحست العرق البارد يبلل أناملها ، ومما زادها بلاء وشقاء ان يزيد ما برح منذ نزولهم معتكفا في خيمة مروان ، ولا يدخل خيمة امرأته الا قليلا ، متظاهرا بالاهتمام بها ، بينما المكر والرياء ظاهران في وجهه ، وأما مروان فكان اذا دخل الخيمة دخل متبخترا لا يدنو من الفراش ولكنه ينظر الى أسماء ويبتسم كأنه يداعبها وهي لا تستطيع الابتسام ولا تطيق النظر اليه •

فلما كان العشاء حركت النائمة رأسها وفتحت عينيها وحولت حدقتيها الى أسماء وقد بهتتا من شدة الضعف ، فهبت الفتاة واقفة وسألتها عما تريد ، فأشارت تطلب الماء فأسرعت الى القدح وأدنته من شفتيها فشربت منه قليلا ، وانبسطت لذلك أسارير أسماء وعاودها الامل • ووقفت تنتظر ما تطلبه منها ، فلما لم تقل شيئا انحنت على جبينها وقبلته وأمسكت يدها بلطف وقالت لها : «هل تريدين شيئا يا أماه ؟»

فأجابتها بصوت ضعيف وعيناها شاخصتان اليها : «لا • لا أريد شيئا الا سلامتك ، ولكنني قد لا أستطيع الوصول الى المدينة ، ولا

أظنني أعيش الى الغد فقد شعرت بدنو الأجل» • قالت ذلك والدموع تتساقط من عينيها فتختلط بعرقها • فاقشعر بدن أسماء وخفق قلبها ، ولكنها تجلدت وتظاهرت بالابتسام وقالت : «لا سمح الله بسوء يصيبك يا أماه ، فانك ستصبحين في خير فنركب معا الى المدينة باذن الله» •

فتبسمت الأم تبسما يمازجه البكاء ، وقالت : «اسمعي يا بنيتي ، ما انا آسفة على هذه الدنيا ، ولكن في نفسي أمر أود قضاءه قبل الوفاة» •

قالت أسماء : «وما هو ذلك الامر يا أماه ؟»

قالت : «هو أن التقي بعلي بن ابي طالب فأكلمه دقيقتين قبل الموت» •

قالت : «غدا نلتقي به في المدينة» •

قالت : «قلت لك انني لا آمل ان ارى صباح الغد يا بنيتي» •

فهمت أسماء بتقبيلها وهي تحاول حبس الدمع ، فضمتها مريم الى صدرها بقوة لم تكن أسماء تعهدها فيها وعانقتها ، فتساقطت دموع أسماء برغم ارادتها ثم أحست بدموع أمها تتساقط على عنقها سخينة تمازج ذلك العرق البارد ، وأشفقت بعد ذلك عليها ، فنهضت وتجلدت وقالت : «لا بأس عليك يا آماه فهل تطلبين عليا لتكلميه في شأني ؟»

قالت : «نعم وفي شأن آخر هو سر حرصت على كتمانه أعواما ، وقد آن لي ان ابوح به» •

فقالت : «ما العمل اذن ؟» • قالت : «استقدموه الي ، قولوا له ان امرأة على فراش الموت تلتمس لقياك لتنبئك سرا وتشكو اليك امرا» •

فخرجت أسماء الى صحن الخيمة فرأت يزيد ومروان واقفين بازاء نخلة كأنهما يتساران ، فلما رأياها أسرعا معا وقالا : «كيف حال أمك؟ لعلها في خير» • قالت : «انها افاقت وطلبت ان ترى عليا بن ابي طالب» •

قال يزيد : «وكيف تراه الان وهو في المدينة» •

قالت : «لقد طلبت استقدامه اليها بالحاح» •

قال مروان : «استقدامه ؟! ومن يستطيع ذلك ؟»

قالت : «لا اراه يأبى المجيء اذا قيل له ان امرأة تحتضر تلتمس مقابلته فانه على خلق عظيم» •

قال : «لا شك في عظم خلقه ، ولكنه الان في شغل شاغل بأمـــر المسلمين واختلافهم في شأن الخليفة !»

ولما لاحظ استغرابها ما ذكره ، اخذ في توضيح الامر فقال : «سمعت قبل خروجنا من الشام ان اهل الامصار ناقمون على عثمان ايثاره ذوي قرابته فيولي العمال منهم ويعزل الذين ولاهم آسلافه ، كما علمت ان اهل مصر خرجوا يلتمسون المدينة ليشكوا امرهم الى علي لعله يحكم فيما بينهم وبين عثمان • وكذلك اهل البصرة وأهل الكوفة ، وأظنهم وصلوا الى المدينة الان ، فلا يستطيع علي تركهم والمجيء الى هنا» •

قالت وقد ملت الجدل : «ان آمي تطلب عليا بالحاح فما علينا الا ان نبعث في طلبه» •

قال : «سأرسل في ذلك احد رجالي ، ثم اذهب انا في اثـــره أستعجله» • قال ذلك وأمر احد الأتباع بالذهاب الى المدينة ، ثم ذهب هو على اثره •

عادت أسماه الى والدتها فاذا هي في غيبوبة ، فمكثت ساعة فـــي انتظار الرسول ، ولما استبطأته خرجت من الخيمة وتوجهت بنظرها الى المدينة والظلام حالك فلم تر احدا ، فصعدت الى مرتفع اشرفت منه على أبنية المدينة فلم تر منها الا المسجد النبوي والانوار تشعشع في بعـض جوانبه • ولو انها لم تصعد الى ذلك المرتفع ما استطاعت رؤية المدينة، لانها قائمة في منبسط من الارض تحدق بها جبال تنحدر منها السيول على أثر الامطار فيصبح السهل المجاور لها مستنقعات وآبارا تجتمع فيها المياه على مـدار السنة ، وتنمو حولها اشجار الصفصاف والبيلســـان

والنخيل وكثير من الأعشاب • فلما أطلت أسماء على المدينة راعها منظر ما بينها وبين قباء من المياه المتجمعة التي انعكست على سطحها أشعة الكواكب ، غير ان ذلك لم يكن ليشغلها عن مرض والدتها ، فعادت مسرعة الى الخيمة ، فرأت ان يزيد قد توسد الارض خارج الخيمة ونام، فأسفت لما رأت من فقده المروءة والشعور ، ولكنها لم تستغرب ذلك ، لان أمها كانت قد قالت لها غير مرة ان هذا الرجل ليس آباها • ولكنها كتمت عنها اسم ابيها وظلت تعدها بأن تنبئها به • فلما رأت ما بلغته والدتها من الضعف في تلك الليلة خافت ان اصابها سوء آن يبقى أبوها مجهولا عندها ، فدنت من فراشها وهي ما برحت غائبة ، فأمسكت يدها الباردة ولمست جبينها المبلل بالعرق فاضطربت جوارحها وخافت على والدتها في ذلك القفر ، واستنكفت ان تخاطب يزيد في الامر احتقارا له ، فهمت بالخروج لاستقدام خادم المسجد لعلها تجد عنده امرأة تستأنس بها ، فرأت أمها تحرك رأسها وترفع يدها كأنها تشير اليها ان تدنو منها فدنت وهمت بها فقبلتها وقالت : «ماذا تريدين يا أماه ؟»

قالت : «ألم يأت علي ؟» • قالت : «لم يعد رسولنا بعد» •

قالت : «اخاف آلا يعود وقد نفد صبري وخارت قواي ، استقدموا عليا قبل فوات الفرصة» •

فقالت : «لا يلبث علي ان يأتي • ألا تبوحين لي بما تريدين ان تقوليه له ، ألم يأن لي ان أعرف من هو ابي» •

قالت : «ستعرفينه متى جاء علي» • ثم تنهدت وقالت : «آه ••» !

* * *

فلما سمعت أسماء ذلك اشتد حزنها وقلقها ، ولاسيما انها خشيت ان يكون ذهاب مروان في اثر الخادم سببا في تأخير قدوم علي ، فعزمت

على المسير بنفسها وهي لم تكن قد دخلت المدينة قبل الان ولكنهـــــا استسهلت كل صعب في سبيل مرضاة أمها ورغبتها في استطلاع ذلـك السر ، فشدت عقالها حول رأسها وتلثمت حتى لم يبق ظاهرا من وجهها الا عيناها وتزملت بالعباءة فوق ثيابها فأخفت رداءها النسائـــي وركبت جوادها وكان لا يزال مسرجا، وأيقظت يزيد وأوصته بوالدتها خيرا وهمت بالخروج فلم يطاوعها قلبها خوفا على أمها • فوقفت متحيرة ، ثم تذكرت خادم الجامع فسارت اليه وكان قد فرغ من الصلاة فسألته عن امرأتـه فقال : «هي في خدمتكم» • وناداها فجاءت فاذا هي عجوز ولكنهـا نشطة سمحة الوجه ، فأوصتها بأن تساعد يزيد في السهر على أمها في اثناء غيابها ، وخرجت ولم تخبر امها لئلا تمنعها من الذهاب واتخذت أنوار المسجد النبوي قبلتها ، وهمزت الجواد ، وكان من أصائل الخيل، فجرى وهو تارة يغوص في منخفض ، وطورا يصعد على أكمة ، وهي لا ترى شيئا لفرط قلقها واضطرابها الا أشباح النخيل والبيلسان ، حتى دنت من سور المدينة واهتدت الى بابها فدخلت منه الى اسواق ضيقـة متعرجة لا يكاد يمر بها الجواد ، ولكنها على ضيقهـــا مزدحمة بالناس وأكثرهم من الغرباء ، فعلمت ان ما قاله مروان صحيح ، فسألت رجلا يبيع التمر عن منزل «علي» فدلها عليه وهو يحسبها رجلا فهمزت الجواد وأسرعت فلم تبلغ باب المنزل حتى كبا جوادها فسقطت ، وكادت تلقـى حتفها ولكنها لم تبال بل نهضت وتلمست باب المنزل ، ولم تكد تدركه حتى سمعت صريره فوقفت تنتظر فتحه فخرج اليها شاب طويل القامة لم تتبين وجهه لشدة الظلام ، وكان قد سمع كبوة الجواد فأسرع نحوه فرأى فارسه قد وقف وهو لا يزال ملثما فاستقبله وسأل عن خبره وهو يظنه رجلا •

فقالت أسماء : «لعل مولانا عليا في المنزل ؟» • قال : «كلا ليس هو

هنا الان ، ماذا تبغي منه فاني ارى لهفتك وعجلتك» •

قالت : «نعم جئت في أمر مهم ؛ ولكنني لا اقوله الا لعلي نفسه»•

قال : «انه خرج في الغروب الى المسجد . وقد مضت صلاة الغروب وصلاة العشاء ولم يعد ، فهل تذهب معي للبحث عنه هناك ؟»

قالت : «نعم هلم بنا» •

ثم انطلقا وكل منهما يريد الوصول الى باب المسجد ليرى وجه صاحبه على الضوء لعله يعرفه ، وكان الشاب اكثر رغبة في ذلك لانه استغرب صوت أسماء ولم يتبين شيئا من وجهها او ثيابها • أما هي فمشت تقود جوادها وراءها حتى بلغا الجامع ؛ فاذا هو مزدحم بالناس بين جاث وواقف ولم يبق به موقف لطفل ، وكلهم صامتون وقد تكاثفت أنفاسهم وانبعثت من باب الجامع حرارة ممتزجة بروائح أجسامهم وأثوابهم حتى لقد يشعر المار بالازدحام وان لم ير الناس • فلما وصل الرفيقان الى الباب واستنارا بمصابيح الجامع نظر كل منهما الى زميله فرأت أسماء رفيقها رجلا حسن اللباس يظهر من حاله انه من الصحابة او بعض اولادهم • أما هو فلم ير غير اللثام فاستغرب تشمهعا ومنعه الحياء من التحري •

- ٢ -

عثمان بن عفان

وهمت أسماء بالدخول الى الجامع فامتنع عليها لكثرة الناس وهيبة الاجتماع ، فوقفت بالباب وهي على مثل الجمر ، ووقف صاحبها الى جانبها ، فارتاحت لما آنسته من رقة شعوره وعلمت ان الدخول الى علي

يستحيل اذ ذاك ، فلما دعاها الى الاستراحة على البطحاء ، وهي مقاعد من الحجر او الخشب انشأها عمر بن الخطاب خارج الجامع يجلس عليها الناس للاستراحة والمحادثة او المناشدة ، لم تستطع أسماء جلوسا لعظم قلقها ولكنها التمست مكانا تربط فرسها فيه اذا اضطرت لدخول الجامع، فأمر رفيقها غلاما ممن يلتقطون النوى في أسواق المدينة وهم كثيرون ان يمسك الفرس فأمسكه وسار به الى مرابط الخيل بين الاشجار هناك .

أما أسماء فنظرت الى صدر المسجد فرأت على منبره رجلا ربعة ليس بالطويل ولا القصير ، حسن الوجه لولا ما عليه من أثر الجوري ، كبير اللحية عظيمها ، وقد خضبها بالحناء ، أسمر اللون ، أصلع الرأس ، عظيم الكراديس ، عظيم ما بين المنكبين ، وكان واقفا على المنبر وقد توكأ على سيف وأجال نظره في الحضور وهمّ بالكلام . فنظرت أسماء الى رفيقها مستفهمة ، فقال : «هذا عثمان بن عفان يخطب في الناس» .

فقالت : «لعل هذا الجمع من اهل المدينة ؟» . قال : «كلا هم وفود اهل مصر والبصرة والكوفة ، وقد جاءوا يشكون عثمان ويتذمرون من اعماله ، وقد شكوه من قبل هذا الى علي بن ابي طالب ، فأنبه علي ، فدعاهم الى المسجد ليخطب فيهم ، وأظنه سيلتمس لنفسه عذرا فلنسمع ما يقوله» .

فنظرت أسماء الى الخليفة وعيناها لا تقفان عليه لتضعضع حواسها، فرأت بجانبه رجلا عرفت انه مروان فقالت في نفسها : «بئس الشاب هو، لقد جاء الى ابن عمه ونسي المهمة التي جاء فيها» . وجالت بنظرها في الجمع متفرسة لعلها ترى عليا ، غير انها لم تكن تعرفه فقالت لرفيقها : «ألا ترى عليا بين الناس؟» . قال «أظنني رأيته . نعم اراه جالسا بقرب المنبر وقد أطرق يفكر ، فنظرت اليه فاذا هو فوق الربعة ضخم العضل ، جميل الخلقة وقد خطه الشيب فلم يخضب شعره ، وآنست منه على شدة

هواجسه ابتساما ظاهرا في وجهه ، فشعرت عند رؤيته بارتياح واستأنست بطلعته وحدثتها نفسها ان تخترق الجماهير اليه فأوقفها الحياء ولبثت تنتظر انتهاء الخطيب من خطابه وهي في قلق شديد .

وانتصب عثمان ويمناه على السيف وهي ترتعش لعظم تأثره ، ثم مسح لحيته بيساره ومشط شعرها بأصابعه والاضطراب ظاهر عليه ، فحمد الله وأثنى عليه وصلى على الرسول ثم قال : «يا اهل الامصار قد جئتم من البلاد البعيدة تطالبونني بأمور لم اكن انا الذي ارتكبتها وحدي ، فان صاحبي اللذين توليا قبلي (يزيد أبا بكر وعمر) قد ظلما انفسهما ، وان رسول الله (ص) كان يعطي قرابته . وأنا في رهط اهل عيلة وقلة معاش، فبسطت يدي في شيء من ذلك ، لما اقوم به فيه فان رأيتم ذلك خطأ فردوه ، فأمري لأمركم تبع . وأما ما تريدونه من الفتنة او الخلع فانكم قد اسرعتم فيما عزمتم ، ووالله لئن فارقتكم لتتمنون ان لو كان عمري عليكم مكان كل يوم سنة ، لما سترون من الدماء المسفوكة والاحن ، والاثرة الظاهرة والاحكام المغيرة» .

وكان علي في اثناء الخطاب مطرقا مصغيا لا يبدي حراكا حتى اتى عثمان على الفقرة الاخيرة فحرك على حاجبيه وحنى رأسه تصويبا لقوله: «لما سترون من الدماء المسفوكة الخ ...»

وأما أسماء فلا تسل عن قلقها ومللها وكان رفيقها واقفا الى جانبها وقد شغل عنها بما ثار من عواطفه عند سماعه كلام عثمان ، ومال الى افهام رفيقه الملثم جلية الخبر تشفيا من عثمان . ولكنه اراد قبل ذلك ان يعرف من هو ، ثم تنسم من لهجتها صوتا نسائيا ولكنه استبعد ان يظهر في النساء مثل هذه الهمة . فصبر حتى انتهى عثمان من خطبته وقال لها : «اراك يا سيدي خالي الذهن من مغزى كلام الخليفة ولكي

تنفهمه أوضحه لك باختصار ، ان خليفتنا هذا هو ثالث الخلفاء الراشدين تولى الخلافة منذ بضع عشرة سنة وحالما تولاها عزل الولاة الذين كانوا قبله ممن ولاهم الخليفة عمر ، وولى مكانهم رجالا من بني أمية اي من أقاربه ، ووسع أبواب الرزق لأهله وضيقها على سواهم فثار المسلمون في الاعمال (الولايات) . وهم اهل مصر والكوفة والبصرة . اما اهل الشام فانهم على دعوة عثمان لأن عاملهم هو معاوية بن ابي سفيان من اقرباء الخليفة . وأما اهل الامصار الثلاثة الباقية فنقموا على هذا الرجل وجاءوا في رجالهم يطلبون خلعه وتولية غيره مكانه ، ولا يليق بالخلافة بعده الا علي بن ابي طالب فانه ابن عم النبي (ص) ووصيه . ولكن بين الذين يطمعون في الخلافة الان اثنين من الصحابة هما طلحة والزبير ، فالخلافة اذا خلع عثمان بين الثلاثة علي وطلحة والزبير ، ووفد مصر يريدونها لعلي ، ووفد الكوفة يريدونها للزبير ، ووفد اهل البصرة يريدونها لطلحة . ولكنهم متفقون جميعا على خلع عثمان . واما علي فلا رغبة له في الخلافة ولكنه يخاف الفتنة بين المسلمين بسبب ذلك الخصام » .

وكانت أسماء تسمع كلام رفيقها وهي لا تفهم منه تبينا لعظم اضطرابها ، ولكنها لم تر بدا من الصبر لانها رأت عثمان عاد يتكلم . وما اتم عثمان كلامه حتى ضج الناس فعلمت انهم خارجون فحمدت الله على فراغه فتنحت ريثما يخرج الجمع وقد زاغت عيناها وهي تتفرس في الجماهير لعلها ترى عليا خارجا معهم فخرج الكل ولم تره بينهم فتحولت نحو الجامع وكان رفيقها قد سبقها اليه فوقفت تنتظره فعاد وحده فلما استقبلها سألها : «هل رأيت عليا ؟» . فذكرت انها لم تره ، فجعل يبحث بين الناس ولكنه لم يجده .

***

عاد الى الجامع وقد خلا من المصلين وأخذ الخدم في اطفاء المصابيح فخافت أسماء ان يمنعوها من الدخول ، ولكنهم لما رأوا رفيقها وسعوا لهما فعلمت انه من كبار القوم . فدخلا الى المسجد فرأت المكان خاليا ووقف الرجل ووقفت وجعلا يفكران . وبعد برهة قال الرجل : «أظنه دخل حجرة امرأته فاطمة بنت النبي (ص) فانها مدفونة في حجرة بازاء هذا المسجد وكثيرا ما كنا نراه يدخلها لزيارة ذلك الاثر الشريف فلا بد من الانتظار ريثما يخرج» .

فقالت : «لا صبر لي يا مولاي على الانتظار دعني أدخل اليه وأخاطبه فان الامر الذي جئت من اجله يقتضي العجلة وهب انني اسأت الادب في استعجاله فانه سيعذرني متى عرف السبب . دعني أدخل الحجرة» .

فأجابها بصوت خافت : «نسهل يا صاح لنتق من دخوله اليها» . ومشيا الهوينى وهما حافيان لا يسمع لمشيهما وقع ، حتى انتهيا الى الحجرة من باب صغير ، وهي بناء مربع واطىء في وسطه ضريح السيدة فاطمة . فدخلا الحجرة والرجل ممسك بيد أسماء وقد ساد السكوت والظلام ذلك المكان المهيب . فوقفا لحظة لعلهما يسمعان حركة او نطقا او يريان شبحا فلم يسمعا شيئا ولم يريا شيئا . فهالهما الموقف ولم يتجرأ احد منهما على الكلام ولكنهما تفاهما بالاشارة على الرجوع ، وفيما هما يسيران سمعا صوتا عميقا كأنه خارج من القبر فاقشعر بدنهما ووقف شعر رأسيهما والرجل لا يزال قابضا على أنامل أسماء . فلما سمعا الصوت شعر بارتعاش تلك الانامل شعورا امتد الى كل جوارحه فأومأ اليها ان تنصت فأنصتا فاذا الصوت خارج من حجرة الرسول بالقرب من حجرة فاطمة وبينهما حائط . وأصغيا فاذا هو صوت علي بن ابي طالب يناجي الرسول بصوت يتخلله تحرق وزفير . فوقفا وقلباهما يخفقان وهما

يمسكان أنفاسهما كأنما يخافان ان يختلط زفيرهما بما يسمعان • واليك ما سمعاه :

«قم يا رسول الله تعهد أمتك وانظر الى ما آلت اليه حالها من بعدك ، لقد بعثك الله نذيرا للعالمين ، وأمينا على التنزيل ، وليس أحد من العرب يقرأ كتابا ولا يدعي نبوة ، وقد كانوا على شر دين في شر دار ، يشربون الكدر ويأكلون العشب ، ويعبدون الاصنام ويسفكون الدماء ويقطعون الارحام • فسقت الناس حتى بوأتهم محلتهم ، وبلغتهم منجاتهم ، فاستقامت قناتهم ، واطمأنت صفاتهم ، وجعل الله الاسلام أمنا لمن علقه ، وسلما لمن دخله ، وبرهانا لمن تكلم به ، وشاهدا لمن خاصم به، ونورا لمن استضاء به ، وفهما لمن عقل ، ولبا لمن تدبر ، وعبرة لمن اتعظ، ونجاة لمن صدق ، وثقة لمن توكل • فقام بنصرته قوم دعوا الى الاسلام فلبوه ، وقرأوا القرآن فأحكموه ، قوم لا يبشرون بالأحياء ولا يعزون بالموتى • مره العيون من البكاء ، خمص البطون من الصيام ، ذبل الشفاه من الدعاء ، صفر الالوان من السهر ، على وجوههم غبرة الخاشعين • قد كنت يا رسول الله تأكل على الارض ، وتجلس جلسة العبيد ، وتخصف نعلك بيدك ، وترفع ثوبك بيدك ، وتركب الحمار العاري • ولقد يكون الستر على بابك عليه التصاوير فتقول لاحدى أزواجك (غيبيه عني ، فاني اذا نظرت اليه ذكرت الدنيا وزخارفها) • وكنت يا رسول الله اذا احمر البأس ، وأحجم الناس ، تقدم اهلك فتقي بهم اصحابك ، حتى قتل عبيدة بن الحارث يوم بدر ، وقتل حمزة يوم أحد ، وقتل جعفر يوم مؤتة ، هذه هي سنتك وتلك هي قدوتك • فلما فارقتنا خلفك شيخ (ابو بكر) حارب المرتدين ، وأيد الدين القويم ، وخلفه رجل فتح الامصار ودون الدواوين وشاد للعدل منارا ، فاعتز به الاسلام ، وامتدت رايته على العراق وفارس ومصر والشام ، وفر من

وجهه كسرى وقيصر ، والناس يومئذ مجتمعون حول الدعوة آخذون بناصرها بقلب واحد ، حتى تولاهم عثمان وهو شيخ صادق الاسلام ، ولكنه استأثر بالسلطة وآثر اهله على سائر المسلمين ، فقاموا عليه قومة رجل واحد ، وتجمعوا على نبذ طاعته وأقروا على خلعه لا ترهبهم خلافته، ولا يخشون سطوته . كأن الناس انما أذعنوا لأهل السابقة من الصحابة لما كانوا فيه من الذهول والدهشة لأمر النبوة وتردد الوحـــي وتنزل الملائكة ، فلما انحسر ذلك العباب وتنوسي الحال ، واستفحل الملـــك انفت نفوس المسلمين من غير قريش وهان عليهم نبذ طاعة الصحابة ، حتى بلغ من جرأتهم التمرد على الخليفة ، فعظمت الفتنة وخفت ما خوفتنيه يوم سألتك عن الفتنة فقلت لي : (يا علي ان القوم سيفتنون بعدي بأموالهم ويمنون بدينهم على ربهم، ويتمنون رحمته ويأمنون لسطوته، ويستحلون حرامه بالشبهات الكاذبة والاهواء الساهية) . آه يا رسول الله ، لقد طالما نصحت لهذا الخليفة ألا يكون امام هذه الامة المقتول ، فانه كـــان يقال : (يقتل في هذه الامة امام يفتح عليها القتل والقتال الى يوم القيامة، ويلبس امرها عليها ويثبت الفتن فيها) . ولكنه انصاع الى شاب من اهل قريته (مروان بن الحكم) يسوقه حيث شاء بعد جلال السنين وتقضـــي العمر » .

ولما بلغ علي الى هذا القول زفر زفرة سمعتها أسماء وصاحبها ، كما سمعاه يبكي بكاء تقطع له قلباهما ، وهما لا يكادان يصدقان انهمـــا يسمعان عليا يبكي ، فبهتا وهما يحسبانه يهم بالنهوض ثم سمعاه يقول :

«هذه هي حال أمتك يا رسول الله . فاني أشكو اليك قوما افترقوا بعد ألفتهم ، وتشتتوا عن أصلهم ، فكل منهم آخذ بغصن أينما مال مال معه ، حتى اصبحت الاحوال مضطربة والايدي مختلفة والكثرة متفرقة، أما أنبأتك صفيتك (فاطمة) النازلة بجوارك بتضافر أمتك على هضمها .

واني اخاف ان ألحق بكما والحال على ما وصفت فأستحيي ان أحمل اليك خبر هذه الفتنة التي اخافها ان تفرق كلمة الاسلام . فادع لنا ربك ان يجمع كلمتنا ويلم شعثنا ويأخذ بناصرنا فنعلم مكان الخلافة منا والسلام عليك حتى نلتقي» .

***

وسمعت أسماء وصاحبها عليا وهو يقرأ الفاتحة . فعلما انه يتأهب لنهوض فأسرعا في التقهقر حتى خرجا من الحجرة الى المسجد وخرجا منه الى البطحاء وقد خف الازدحام لتفرق الناس الى منازلهم ، فوقفا ينتظران عليا فقال الرجل : «أظنه لا يخرج من هذا الباب فلنقف له بالباب الآخر» . فناديا الغلام قائد الفرس فتبعهما ومشيا وقد نفد صبر أسماء وأنهكها الملل . ولم يمشيا قليلا حتى لقيا عليا خارجا من باب الجامع ومنديله لا يزال في يده يمسح به عينيه ثم جعل يصلح عمامته ويسرح لحينه بأنامله ويمشي الهوينى كأنه عائد من سفر طويل .

فتقدم الرجل اليه وحياه فقال علي : «مرحبا بابن أبي بكر أهلا بك يا محمد ما الذي جاء بك ؟» . فعلمت أسماء انه محمد بن ابي بكر وكانت تسمع به . قال : «لقد جئتك بقادم غريب قد أنهكه البحث». قال : «لماذا لم تنزله في دار الاضياف . اين هو ؟»

فتقدمت أسماء وألقت التحية وهي لا تزال ملثمة وقد التفت بالعباءة فنظر علي اليها فعلم انها متنكرة لأمر ذي بال فقال لها : «ما غرضك يا أخا العرب ؟»

قالت «لقد جئت ادعوك لغوث امرأة مريضة في خطر شديد تلتمس ان تراك لتبث لك سرا ضنت به علينا جميعا» .

فقال : «ومن تكون هذه المرأة ؟» . قالت : «هي أمي وأما زوجها

فهو من بني أمية وقد جئنا بها من دمشق فتحملت مشاق السفر والمرض على أمل ان تبلغ المدينة فتطلعك على ذلك السر فاشتد عليها المرض حتى لم تعد تستطيع الوصول» •

قال : «اين هي الان ؟»

قالت : «هي في قباء على مقربة من هذا المكان» •

قال : «هيا بنا اليها • هل ترافقنا يا محمد ؟»

قال : «اني في خدمتك حيثما سرت ، واذا رأيت ان اقوم بهذا الامر دونك لما انت فيه من المشاغل الكثيرة فعلت فتبقى انت هنا» •

قال : «لا بأس من ذلك ولكنني اخشى ان يكون مجيئي اليها واجبا وهي امرأة في مرض شديد تجب علينا اغاثتها» • قال ذلك ومشى نحو البيت يلتمس فرسه ومشى الاثنان في اثره ومحمد ينظر الى أسماء خلسة لعله يستطيع شيئا من أمرها • وهي تطلب الى الله ان يعجل علي في الخطى • ولكنه لم يمش قليلا حتى لقيه رجل مهرول وعليه امارات البغتة • فقال له «ما وراءك يا غلام ؟»

قال : «لقد عاد المصريون الينا بعد خروجهم» •

فقال : «وكيف عادوا وقد عهدناهم راضين بما وعدهم به الخليفة من الاصلاح ؟ »

قال : «لا أدري الا انهم عادوا الينا غضابا ، وهم ينتظرونك في فناء دارك » •

فقال علي : «لا حول ولا قوة الا بالله»• وسار وهو يهز رأسه وينظر الى محمد ، وكان هذا في مثل حاله من العجب لما سمعه • فقال علي : «ما بال هؤلاء القوم لا يريحون لنا بالا ؟ اني ارى مشكلتهم هذه لا تنحل الا بفتنة تؤول الى الفشل . فوالله انهم ليرومون امرا عظيما أخشى منه اختلال الحال» •

فقال محمد : «لا يخلو رجوعهم من أمر ذي بال» • وأسرعا حتى اتيا بيت علي فرأيا الناس عند بابه زرافات ووحدانا بين فارس وراجل ، وقد علت ضوضاؤهم ، فلما أشرف علي عليهم ترجل الراكبون وهرول الواقفون نحوه وفي مقدمتهم رجل لا يزال بثياب السفر ، فحيى عليا فرد التحية وقال له : «ما الذي عاد بكم الينا وكنا قد فضضنا بينكم وبين عثمان ووعدكم خيرا ؟»

قال : «انه لم يعدنا الا خداعا» • قال ذلك ومد يده فأخرج أنبوبة من الرصاص فتناولها علي ومشى الى مصباح مضيء عند باب الدار ونظر فرأى فيها صحيفة من جلد أخرجها وقرأ فاذا كتاب من عثمان الى عامله بمصر يأمره فيها بجلد زعماء المصريين الذين قدموا المدينة لمطالبته، وحبسهم ، وحلق لحاهم ، وصلب بعضهم • فبغت علي لذلك وتأمل الصحيفة فاذا في ذيلها خاتم عثمان ، وكان يختم كتبه بهذه العبارة : «لتصبرن او لتندمن» • فتحقق انه خاتمه فقال : «وما الذي أظفركم بهذا الكتاب ؟»

قال : «برحنا المدينة امس على ما وعدنا هذا الرجل من الاصلاح وصدعنا بأمرك ، فلم نكد نخرج حتى لقينا غلام عثمان على بعير من ابل الصدقة ففتشنا متاعه فوجدنا فيه هذه الانبوبة وفيها هذه الصحيفة» •

فقال علي : «انا لله وانا اليه راجعون • ما بالنا لا نكاد نرتق فتقا حتى نرى غيره ؟ ما الذي غيَّر عثمان وحمله على هذا العمل ؟»

فقال محمد بن ابي بكر : «انها فعال مروان بن الحكم ابن عمه ، فقد كان غائبا في الشام ولم يأت المدينة الا في غروب هذا اليوم ، ونظنه هو الذي أغرى عثمان بذلك» •

فتأفف علي وقال : «تبا لهذا الشاب انه لا يدل الا على الشر» •

فلما سمعت أسماء ذكر مروان عرفت انه هو طالبها ورفيق سفرتها

فازدادت كرها له وقالت في نفسها : «قبحه الله انه لا يزال عثرة في طريقنا» وأيقنت ان ذلك سيكون سببا في عدول علي عن المسير معها فخاطبت محمدا في الامر ، فقال : «لا تخف يا صاح اننا منجدوك ..» وخاطب عليا في ذلك فقال له : «اني اخاف اذا برحت المدينة في هذا الليل أن يقع ما نندم عليه . سر يا محمد مع هذا النزيل وافعل ما تراه وقم عني في كل خير يرجونه ثم عد الي بالخبر» .

فلم تعد تتجرأ أسماء على الالحاح فقنعت بما وقع مخافة ان يقع ما هو شر منه فالتفتت الى فرسها فاذا بالغلام يقوده وراءها فتهيأت للركوب. وبعث محمد فاستقدم فرسه ، وركب الاثنان ومحمد ينظر اليها وهي تركب لعله يرى بعض ثيابها تحت العباءة في اثناء الركوب فلمح من ثوبها شيئا أحمر اللون يشبه ثياب النساء ولكنه ما زال مستبعدا مثل هذه الجرأة من امرأة .

وسار الاثنان يلتمسان قباء لا يكلم احدهما الآخر ، ولكن محمدا كان شديد الميل الى معرفة حقيقة رفيقه بعدما اشتبه فيه من أمره . فخرجا من المدينة والظلام حالك وبعد هنيهة أشرفا على قباء . فلما أطلت أسماء على خيمة أمها عرفتها من النار المضيئة خارجها فخفق قلبها مخافة ان يكون قد وقع في اثناء غيابها ما يوجب حزنا ، فهمزت الجواد فطار بها حتى سبق جواد محمد بثباتها على متنه . ولم يدركا الخيمة حتى خرجت امرأة خادم الجامع لاستقبالهما ، فترجلت أسماء عند باب الخيمة وترجل محمد، ثم دخلت وهي تحل عقالها وتنزع العباءة عن كتفيها ودنت من سرير أمها فاذا هي قد افاقت وفتحت عينيها ونظرت الى أسماء بلهفة وعيناها تنظران الى باب الخيمة كأنها كانت تتوقع دخول احد وقالت : «اين علي؟»

فخافت أسماء اذا أخبرتها الحقيقة أن تحدث لها حدثا فيزيد مرضها فقالت لها : «انه آت يا أماه» . واغرورقت عيناها بالدموع .

وذهب محمد في اثر أسماء يتفرس فيها على نور المصباح فلما نزعت عقالها رأى شعرها من الوراء طويلا مسترسلا ، ثم نزعت العباءة فبـــان رداؤها الارجواني اللامع وهو عبارة عن قفطان من الديباج عليه منطقة من جلد عريضة تعودت لبسها في السفر فتحقق انها فتاة فشعر باعجاب غريب ولم يبق بعد ذلك الا ان ينظر الى وجهها فأسرع في أثرها حتى دنا من السرير فاعترضه منظر والدتها • وحالما وقع نظره عليها هاله نحولها وفرط سقمها وامتقاع لونها وشخوص عينيها ، ولكنه التفت الى أسماء فاذا فيها فضلا عن الجمال هيبة وجلال ، كأنما هي ملكة وجبار معا ، فلم يتمالك عن الاعجاب بها والانعطاف اليها وأحس باحساس غريب نحوها•

★ ★ ★

أما هي فقد كانت في شاغل عن حاله بما هي فيه من القلق على أمها، وكانت قد اطمأنت قليلا لما رأتها منتبهة وقد ندمت على عودتها بغير علي، ولكنها أيقنت ان مجيئه لم يكن ممكنا والناس في انتظاره عند منزله على تلك الصورة • ثم حولت وجهها نحو محمد وعيناها شاخصتان اليه لا تتحركان الا تكلفا فلم تتفرس فيه الا قليلا حتى تساقطت دموعها على خديها • فلما رآها محمد تبكي انفطر قلبه فخاطب المريضة قائلا : «كيف انت يا خالة ؟»

فقالت : «اين ابي بكر ؟»

فلما سمع قولها اقشعر جسمه ، وابتدرها قائلا : «أجل اني هو ، ماذا تأمرين ؟»

قالت : «اين هو علي ؟» • قال : «قد بعثني لأنوب عنه لانه في شاغل مهم فأمري بما تريدين» •

قالت : «لا أريد احدا غير علي، أدركوني به • لا أريد احدا سواه» •

قالت ذلك وظهر الكدر في وجهها •

فعجبت أسماء لما سمعت أمها تقول : «اين ابي بكر» • وشعرت عندما سمعت اسمه من فمها بارتياح اليه ولكنها تململت لاصرارها على استقدام علي فقالت لها : «ألا تزالين تطلبين عليا ؟»

قالت : «نعم لا أزال اطلبه أدركوني به فان في نفسي سرا لا أبوح به الا له ، أدركوني به قبل انقضاء أجلي» •

فنظرت أسماء الى محمد نظرة استحثاث أثرت فيه تأثيرا غريبا ، وشعر كأن نظرها اخترق صدره حتى وقعت سهامه في قلبه فنهض للحال وقال لأسماء : «اذا لم يكن بد من استقدام علي فاني ذاهب لاستقدامه» • وخرج فامتطى جواده وهمزه نحو المدينة وعزم على ألا يعود الا بعلي •

وخرجت أسماء تنظره فسمعت وقع أقدام جواده يخترق السهل ، وتذكرت يزيد فبحثت عنه فاذا هو نائم في خيمة اخرى لا يبالي شيئا فلم تكترث له •

وعادت الى سرير والدتها وقلبها يخفق خوفا عليها فاذا هي قد غيرت وضعها فتحولت الى جنبها الآخر وأطبقت أجفانها بعض الاطباق او هي أرختها وعيناها مفتوحتان على كيفية لم تعهدها فيها من قبل ورأت حدقتيها قد جمدتا وشخصتا فخافت من منظرها ونادت العجوز وكانت قد خرجت لحاجة فقالت لها : «ما بال أمي قد غيرت وضعها ومالي ارى عينيها شاخصتين جامدتين !»

فبغتت العجوز وقد أيقنت ان المريضة في حالة النزع وبخاصة حين رأت كتفها يختلج وتنفسها يسرع ، فامتقع لون العجوز وظهر الخوف عليها ، فأدركت أسماء خوفها فصاحت بها : «ما بالك خائفة ، اعل أمي في خطر ؟»

فقالت : «عسى ألا يكون خطر يا ابنتي والاتكال على الله» •

وخرجت مسرعة •

فاضطربت الفتاة وأمسكت بيد والدتها فجستها فاذا هي باردة جافة، ونظرت الى عينيها وقد غارتا في تجويفهما وذهب لمعانهما ، فارتعدت فرائصها وخافت خوفا شديدا وأسرعت الى باب الخيمة لتستقدم العجوز•

وفيما هي تتحول شهقت أمها شهقة عنيفة فأجفلت وعادت الى السرير وهي تحسبها تتكلم فانحنت عليها وقبلتها في جبينها فاذا هو بارد جاف فاقشعر جسمها وازداد خفقان قلبها واصطكت ركبتاها ، ولم تكن رأت ميتا قبل ذلك الحين ، فنادت العجوز فأتت ، فجعلت أسماء تنظر اليها وتتبين عواطفها فرأتها في وجل فازداد خوفها ، فأعادت النظر الى وجه والدتها فاذا هي فاتحة فاها وقد برز فكاها واتسع شدقها وسكن اختلاج صدرها وبرز أنفها واستطال ، واصفر لونها • فنظرت أسماء الى العجوز فرأتها قد خرجت من الخيمة فتبعتها فاذا هي تنادي يزيد وصوتها مختنق فتحققت وقوع القدر •

فعادت الى السرير وصاحت : «أماه • أماه» • ولا من مجيب، فدقت يدا بيد ولطمت فاذا بالعجوز عائدة وهي تلطم وتقول : «حلي شعرك يا ابنتي ، ان أمك ماتت واحسرتاه» •

فحلت أسماء شعرها وأخذت تصيح وتلطم وجاءتها العجوز برماد لطخت به رأسها ، وكان يزيد قد أفاق فجاء ، وأخذوا في العويل والنوح فتجمع اهل القرية على صياحهم وعلا البكاء ، ولم يفعل احد منهم فعل أسماء فانها كادت تقتل نفسها لفرط البكاء والندب واللطم ، وعبثا كانوا يخففون عنها فكم ألقت نفسها فوق والدتها وتوسدت جثتها وأخذت في تقبيلها وهي تقول : «لمن تركتني يا أماه ؟ ولمن أشكو همي بعدك ؟ ومن يخبر عليا عن السر ؟ ومن يحمينا من غدر الخائنين • آه من الزمان ، لعل أجلك قد ساقنا الى هذه الصحراء لتدفني فيها • ما النفع

من بقائي بعدك وقد اصبحت وحيدة يتيمة لا سند لي ولا معين ؟»

وأما يزيد فكان يتظاهر بالبكاء ولا تذرف له دمعة .

وفيما هم في ذلك سمعتهم أسماء يقولون : «جاء علي» . فصاحت صيحة ارتج لها المكان وقالت : «لقد أبطأت يا أبا الحسن ، ان أمي ماتت ومات سرها معها» . ثم نظرت الى أمها وكانوا قد غطوها بالملاءة وقالت لها : «قومي يا أماه احسري نقابك فقد جاء علي . قومي اليه وأطلعيه على سرك . وقومي وأشفقي على ابنتك» .

اما علي فترجل وقد شغله أمر الفتاة عن الالتفات الى الميتة . وكانت أسماء قد توردت وجنتاها وذبلت عيناها وتكسرت أهدابهما لما انسكب منهما من الدموع . ومما زادها هيبة ووقارا استرسال شعرها الاسود على ظهرها وصدرها وحول كتفيها وقد غطى معظم وجهها ، ناهيك بانكسارها وذلها من الحزن واليأس فانهما يزيدان الجمال جاذبية . وكان اكثر الناس تأثرا من منظرها محمد بن ابي بكر فانه لم يتمالك نفسه عن البكاء لما لقيه من الفشل في مهمته ، وقد أنهك جواده سوقا واستحث عليا على القدوم رغم ما كان فيه من المشاغل ووعده بالاطلاع على سر عظيم وظن نفسه قد عاد ظافرا فرأى الفشل ينتظره .

وحالما وقع نظر علي على أسماء شعر بانعطاف نحوها وتوسم في طلعتها ملامح ارتاح الى التفرس فيها فحمل ذلك الانعطاف على محمل الشفقة لما رآه من تعاسة تلك الفتاة ، وندم ندما شديدا لتقاعده عن المجيء معها وأحس بأن عليه مواساتها جهد طاقته ، فوقف وقفة معتبر لمصير الانسان ثم أجال بصره في الناس وهم سكوت يسمعون وقال : «ما أصف من دار أولها عناء وآخرها فناء ، في حلالها حساب وفي حرامها عقاب ، من استغنى فيها فتن ، ومن افتقر فيها حزن ، ومن ساعاها فاتته ، ومن قعد عنها واتته ، ومن بصر بها بصرته ، ومن أبصر

اليها أعمته . انظروا الى هذا الميت فقد قبض بصره كما قبض سمعه وخرجت الروح من جسده فصار جيفة بين اهله لا يسعد باكيا ولا يجيب داعيا . اعلموا ـ عباد الله ـ انكم وما انتم فيه من هذه الدنيا ، على سبيل من قضى قبلكم ممن كانوا أطول أعمارا وأبعد آثارا ، فأصبحت اصواتهم هامدة ورياحهم راكدة وديارهم خالية وآثارهم فانية ؛ وأقاموا بمنازل شيدت بالتراب ، اهلها لا يستأنسون بالاوطان ، ولا يتواصلون تواصل الجيران ، على ما بينهم من قرب الجوار ، وكيف يكون بينهم تزاور وقد طحنهم بكلكله البلى ؟ وأكلتهم الجنادل والثرى ؟»

وكان علي يتكلم والدموع تتساقط من عينيه هادئة تنحدر على لحيته فأعجب محمد لما آنسه من ذلك البطل من الحنان ، وأشد الحزن ما يبكي الرجال .

اخذ علي يخفف عن أسماء ، وكانت جالسة الاربعاء فاقترب منها وأمسك بيدها وقال لها : «اصبري يا بنيتي ان الحزن والبكاء لا يجديان؛ ان أمك قد سبقتنا الى دار اللقاء الاخير ، وأما ما تذكرينه من اليتم فلا تخافيه لأن الله كفيل باليتامى ، واتخذيني لك أبا وألقي همك بعد الله عليّ ، واصبري ان الله مع الصابرين» .

فنهضت أسماء وقد سقط منديلها من يدها ، فمسحت دموعها بكمها المسترسل من معصمها فعلقت أزراره بشعرها فانحسر بعضه عن وجهها فأطرقت خجلا وأجابت عليا وصوتها مختنق وقالت : «شكرا لك يا رجل المسلمين ووصي خاتم النبيين ، على مواساتك ، وسمعا وطاعة في مرضاتك ، وان أمي هذه (قالت ذلك وأشارت اليها وقد خنقتها العبرات) فاضت روحها وهي تذكر عليا وتناديه وفي صدرها سر أبت ان تبوح به الا له ؛ فها قد ذهب سرها معها ويا ليتها باحت به او ليتني ألححت عليك بالقدوم ، ولكن ما الحيلة وقد قضي الامر» . قالت ذلك وعادت الى

البكاء متهيبة مجلس علي •

أما محمد بن أبي بكر فلا تسل عما خالج قلبه ، وما أحس به من الميل الشديد الى أسماء ، حتى شعر بأن المصيبة واقعة عليه ، ولم يدر كيف يعزيها او يخفف عنها ، وتمنى لو بقي معها لمواساتها الى ساعة الدفن • واذا بعلي يناديه ، فلباه • وقال له علي بعد ان انتحى به ناحية: «لا ارى ثم ما يدعو الى بقائي هنا ، وقد ماتت حاملة السر» • فقال : «أجل يا عماه ، انك مشغول بأمر الخليفة ، وقد أسفت على مجيئك بلا فائدة» • فقال علي : «اني اذن ذاهب ، وأوصيك بأهل هذه الميتة خيرا، وانظر فيما يحتاجون اليه فاذا تم الغسل والدفن ، فأوصل الفتاة وأباها ومن معها الى مقرهم ، واذا رأيتهم في حاجة الى الانفاق فادفع اليهم ما يحتاجون اليه ، على اني لا ارى أبا الفتاة حزينا الا بالانقياد» •

فقال محمد : «سر في حراسة الله ، اني فاعل كل ما تأمرني بـه ولكنني آسف لضياع السر فانه لا يخلو من أمر» • فقال علي : «اني أفكر في ذلك ولا ارى بابا لحله» •

ثم التفت الى يزيد وناداه ، فجاء ووقف بين يديه وهو لا يستطيع النظر اليه الا خلسة ، فلما رأى علي مسارقته النظر ورفرفة أجفانه وتردد بصره كأنه يرى ما يبهره تحقق ان الرجل مراء يضمر غير ما يظهر ، لان من سلمت سريرته وأخلص نيته كان بصره ثابتا صافيا مثل قلبه ، وأما المرائي المخاتل فلا يستطيع تثبيت نظره في مخاطبه كأنه يفكر في حيلة يخترعها • ونظر علي الى يزيد فعرف انه أموي فقال له : «اصبر يا أخا أمية ، انك بليت بما يبلى به كل ابن أنثى ولا حيلة الا الصبر» •

فتظاهر يزيد بالبكاء ، فقال علي : «لقد أوصيت بكم محمدا ليتولى قضاء حوائجكم ويواسيكم ، واذا نزلتم المدينة نزلتم في حمانا» •

فشكر يزيد وأثنى وهم بتقبيل يده ، ثم تقدم علي الى أسماء وهي

تبكي فعزاها وقال لها : «ان محمدا باق لمؤاساتكم» • فأجهشت ولسان حالها يشكره • فخرج علي وهو يقول لمحمد : «اني لأعجب مما بين هذه الفتاة وأبيها من البون الشاسع فكأنها ليست ابنته» •

ثم امتطى جواده وودع وسار قاصدا المدينة •

أما محمد فأمر خادم الجامع باحضار من تقوم بالغسل والدفن ، ثم افتقد يزيد فلم يجده بين الناس فعجب لغيابه ، وظنه باديء ذي بدء قد ذهب لحاجة له ، فلما طال غيابه ارتاب في أمره حتى اذا انفلق الصبح رآه بين الناس فلم يسأله عن سبب غيابه لئلا يكون في السؤال تطفل ، ثم غسلوا الميتة وصلوا عليها ودفنوها ، وأسماء لا تنفك عن البكـــاء والنحيب •

***

فلما عادوا من الدفن اقترب محمد بن ابي بكر من يزيد ، وسأله عما يحتاج اليه ، فبالغ هذا في الثناء والشكر ، فسأله محمد : «أتريدون الذهاب الى المدينة فتنزلوا علينا ، فان عليا أوصانا بكم خيرا ؟»

قال : «لقد تفضلتم علينا بما لا طاقة لنا على شكره ، ولا نشك في كرم مولانا ابي الحسن وحسن وفادته ، ولكن لنا اهلا في المدينة لا بد من النزول عليهم ، نخشى اذا نزلنا على غيرهم ان يعدوا ذلك منـــا امتهانا لهم ولكننا في حمى ابي الحسن أنى ذهبنا» •

فعجب محمد لما آنسه من تلطفه ، وكاد يحسن ظنه به فسأله : «وأين يقيم اهلكم يا عم ؟»

قال : «يقيمون بقرب الزوراء سوق المدينة» •

وكانت أسماء اثناء الحديث جالسة تسمع ما يقولان وهي مطرقـــة حزنا وانكسارا وقد غطت رأسها بخمار أسود زادها هيبة وجمالا • فلما

ذكر ابوها محل اقامته قال محمد وهو ينظر الى أسماء : «اذن عسى ألا تنسونا ، ومهما يعن لكم من الامور فاني رهن اشارتكم لأن عليا حفظه الله أوصاني بكم خيرا» • وتطلع الى أسماء فرأى الدمع يقطر من بين أهدابها وينحدر وهي مطرقة فازداد عطفا عليها وحنوا •

قال يزيد : «اننا أبدا عبيد احسانكم فاذا أصابنا شر لجأنا اليكم ذاكرين حسن صنيعكم العمر كله» •

فقال محمد : «ألا تحتاجون الى دواب تحمل أمتعتكم ؟»

قال : «ان دوابنا ما زالت عندنا ، وقد بعث الينا أقرباؤنا خدما يساعدوننا في الحمل والنقل» •

ثم نهض محمد فنهض يزيد وأسماء لتوديعه ، وتذكرت أسماء ان أمها عرفته وذكرت اسمه على فراش الموت ، فنظرت اليه والدمع يتلألأ في عينيها وقد ذبلتا وتكسرت أهدابهما وتنهدت ولم تجب • فحياها وتحول الى جواده فركب وعاد الى المدينة وقد علق ذهنه بأسماء واشتغل قلبه بها •

أما ما ظهر في حديث يزيد من الرقة فقد اصطنعه تنفيذا لتعاليم مروان • وكان قد ذهب الى المدينة خلسة ليستشير مروان فيما يصنعه اذا طلب اليه النزول في جوار علي ، وأبدى خشيته من ان يكون هذا عقبة في سبيل زواجه من أسماء ، بعد ان توفيت أمها التي كانت عونا لها على رفض هذا الزواج • وقد لقي مروان في منزل الخليفة عثمان فأنبأه بوفاة مريم ، واستشاره فأوصاه أن يحتال في التخلص من محمد ، وعلمه كيف يشكر ويعتذر بالنزول عند أقاربه •

وكانت أسماء خالية الذهن من كل ذلك لسلامة نيتها واشتغالها عن الدنيا بأحزانها ، ولكنها شعرت بارتياح الى علي ومحمد ، وبأنهما سند عظيم لها اذا آنست من مروان او يزيد ما لا يرضيها •

ولم يكد محمد يتوارى عن قباء حتى أمر يزيد عبيدا كان مروان قد أرسلهم لخدمته فقوضوا الخيام وحملوا الامتعة ، وسار الركب الى المدينة بعد ان ودعت أسماء قبر أمها وأكرمت خادم الجامع وامرأته فوق ما أكرمهما به محمد ، فودعاها وهما يبكيان •

فلما أشرفوا على المسجد تذكرت أسماء لقاءها عليا هناك ، وما كان من اضطرابها وقلقها في الليل الغابر ، وتاهت في بحار التأمل ، ولم يهمها شيء من ضوضاء اهل المدينة وتجمهرهم في أسواقها • وقبل وصولهم الى المسجد مروا بأحجار الزيت ، وهي موضع صلاة الاستسقاء بقرب الزوراء ، فرأوا الناس هناك جماعات متكاتفين وهم اخلاط من اهل مصر والكوفة والبصرة ، وفيهم الامراء والفرسان والعبيد والخدم على اختلاف أزيائهم ، وكل حزب في شاغل وحديث وجدال • وبلغوا دارا وراء الجامع فناؤها واسع يحيط به سور منيع ، ولها باب ضخم في وسطه باب صغير ، وكان الباب مغلقا والحراس واقفون به ، فعلمت انها دار عثمان ، ولم يتجاوزوها حتى وصلوا الى باب وقفوا عنده • فترجل يزيد هناك فعلمت انه المنزل المقصود فترجلت وقد أنهكها التعب والنعاس لما قاسته من المجاهدة والبكاء والحزن ، ولكنها لم تكد تدخل المنزل حتى لقيها مروان • فلما رآته استعاذت بالله وندمت على مجيئها ، على انها لم تر بدا من النزول مع يزيد • فلما رآها مروان وقد تسربلت بالثوب الاسود وبدا تحته وجهها وقد زاده انكسار الحزن جمالا واشراقا ازداد تعلقه بها فتقدم نحوها مسلما ومعزيا ، فردت عليه ردا فاترا • أما هو فبالغ في اكرامها وسار في خدمتها الى داخل الدار وكان بعض نساء المنزل قد جئن لاستقبالها فدخلن بها حجرة ويزيد معها، وهي لا تنطق بكلمة واذا كلمها احد لم يكن جوابها الا البكاء • ولما خلت

الى يزيد سألته عن اهل ذلك المنزل فقال : «هؤلاء آل حزم» •

ورأى مروان من الحكمة ان يتركها لتستريح فخرج يتدبر وسيلة لاسترضائها بالحسنى فخطر له ان يوسط بينه وبينهـا نائلة بنت القرافصة زوجة الخليفة ، وكانت نائلة ذات مقام رفيع لزواجها بالخليفة، على انها لم تكن من قريش بل قحطانية من بني كلب ، وكان والدها من القرافصة نصرانيا يقيم بالكوفة ، وكانت عاقلة حسنة الخلق • ولم تكن ترتاح الى مروان لنزقه وطيشه ، وكثيرا ما كانت تخالفه فيما يشير به على عثمان زوجها حتى انتهرته مرارا ونصحت لزوجها بألا يصغي اليه ، ولكنها لم تكن تبالغ في جفائه احتراما لقرابته منه •

فسار مروان اليها وكانت في اضطراب عظيم لما احاط بزوجها من الاخطار ، فلما رأته قالت : «ما وراءك يا مروان ؟» • قال : «ما ورائي الا الخير يا خالة ، اني اراك في وجل من أمر هؤلاء الناس الذين يحاولون نزع الخلافة من أيدينا ، ورأس ذي النورين عثمان انهم لن ينالوا ذلك ، فقد كتبنا الى معاوية في الشام ، والى عامر ورؤساء الاجناد من بني أمية نستقدمهم الى نجدتنا ، فاذا جاءوا لم يستطع المصريون او الكوفيون او البصريون مناوأتهم فيتنفرقوا أيدي سبا» •

فتنهدت نائلة وقالت : «لا أظنهم يصلون الينا يا مروان الا بعد ان تنفد الحيلة ، والتبعة كلها عليك فانك وسعت الخرق بطيشك» •

فضحك مروان وقال : «سوف ترين بعينك يا خالة مساعي مروان ، وسوف تعلمين مدى فشل هؤلاء الاعداء المغرورين • فلا تجزعي ولا تخافي • اننا نحن الفائزون باذن الله» •

قالت : «دعنا من الهزل يا مروان ان الامر جلل» •

قال : «بل هو أهون مما تظنين ، وما أنا حاسب له حسابا ، ومما

يدال على ذلك اني بسبيل البناء بعروس جميلة جئت بها الى هذا المكان» •

قالت : «وأية عروس ؟» • قال «أسماء بنت يزيد الاموية ، انها على جانب عظيم من الجمال وقد كانت في دمشق ، وكانت أمها راغبة عن تزويجها وقد ماتت في قباء ، وجئت بالعروس وأبيها اليوم وأنزلتهما في دار بني حزم ، وهي الان نائمة تستريح من وعثاء السفر فأرجو منك اذا جاءتك غدا ان تقنعيها بأني كفء لها» •

فقالت : «اين نحن من الزواج يا غلام ؟»

قال : «لا تقولي يا غلام وأنا شاب بطل كما تعلمين ، وأستحلفك برأس امير المؤمنين ان تسترضيها ، وهي لا شك ستقتنع بكلامك • فاذا فعلت ذلك فديتك وفديت عمي الخليفة بروحي» •

فسكتت نائلة وهي تعجب لنزق مروان ، ولكن استخفافه بمناهضي الخليفة طمأنها وبرّد قلبها ، وما زال مروان بها حتى وعدته باسترضاء أسماء •

فتركها وخرج الى يزيد فأخبره بما عزم عليه ، ففرح وقال : «حسنا فعلت وأرى ان آتي بها انا الى نائلة فيكون ذلك اقرب الى نجاحنا» •

فقال مروان : «وهب انها لم تقنع باسترضاء نائلة لها فاني أحمل الخليفة على تزويجي بها قسرا ، وما انا براجع عن عزمي فانها فتاة تعرف ما ينفعها وما ينفع أباها» • وقد اراد مروان بذلك ان يؤكد آمال يزيد بمنصب يناله بواسطة تلك المصاهرة •

فأبرقت أسرة يزيد وقال : «طب نفسا يا بني فاني لن أجعلها الا ما أريد» •

فودعه مروان وخرج ، وباتت أسماء تلك الليلة لا تدري بما يبتاه لها•

- ٣ -

نائلة بنت لفرافصة

وفي الصباح التالي افاقت أسماء وقد رأت أمها في الحلم فبكت بكاء مرا ، ولم تكد تجلس بفراشها حتى دخل يزيد وهم بتقبيلها والرياء ظاهر في وجهه ، فلم تطاوعها نفسها على تقبيل يده فلبثت في الفراش صامتة كئيبة لا تبدي حراكا •

فقال لها يزيد : «انهضي يا ابنتي واغسلي وجهك وهيا بنا لتحية مولاتنا نائلة زوجة امير المؤمنين ، ولا ريب انها ستعزيك في أحزانك» •

فقالت : «دعني وحدي واغلق الباب فليس في الدنيا ما يعزيني» •

قال : «انهضي يا حبيبتي فان الحزن يضنيك ولا خير فيه • وهبي انها لا تستطيع تعزيتك فالذهاب اليها فرض لاننا في حماها» • وما زال بها حتى أنهضها • وفيما هي تتحفز للقيام دخل رجل فاستقبله يزيد قائلا: «اهلا بأبي الجراح» • فبغتت أسماء لرؤيته فابتدرها يزيد قائلا : «انه مولي مولاتنا أم حبيبة وأظنه جاء في طلبك» • فقال ابو الجراح : «ان مولاتنا تدعوك اليها وقد علمت بما اصابك وبنزولك عند آل حزم فبعثتني وجارية حبشية لنأتي بك اليها» •

فعجبت أسماء لهذه الحفاوة وشكرت تلك العناية ونهضت فلبست ثوبها وسرحت شعرها وعقصته وأرسلته الى الوراء وأرخت الخمار على رأسها ، وتزملت بالرداء الاسود ، وخرجت والجارية معها ودخلت من باب موصل بين الدارين حتى بلغت دار عثمان فرأت فيهما ما يليق ببيوت الخلفاء من الطنافس والأستار ونحوها ، ولقيت في باحثها كثيرا من الجواري والغلمان فمشت حتى اتت حجرة نائلة •

فلما سمعت نائلة وقع أقدامها تحفزت للقائها • فلما دنت أسماء تنسمت رائحة الطيب ، وسمعت وسوسة أساور نائلة ودمالجها وعقودها وهي تتهيأ للوقوف ، فدخلت واستقبلتها نائلة وقد أعجبت بجمالها وهيئتها ، فهمت بها وضمتها الى صدرها وهي تقول : «اهلا بضيفتنا اهلا بابنتنا العزيزة» •

فلما سمعت أسماء ذلك غلب عليها البكاء ولكنها تجلدت وقبلت يدها وجلست الى جانبها ، وخرجت الجارية ، وبقيتا في الغرفة وحدهما وأسماء لا تتكلم •

فهمت نائلة بمداعبتها فقالت : «اهلا بابنتنا الجديدة ومرحبا بها» •

فشرقت أسماء بدموعها وقالت : «دعيني يا مولاتي أبكي أما حنونا فقدتها وارفقي بحالي» •

فأثر هذا الكلام في نائلة تأثيرا عظيما وترقرقت الدموع في عينيها وقالت : «اني شريكتك في أحزانك يا حبيبتي ، أما ترضينني بدلا من أمك ؟»

فأجابت : «ان في هذا اكبر تعزية لي على مصابي» • وتأوهت نائلة لتأوهها وقالت : «اصبري يا بنيتي على مصابك ، فالحزن لا يجديك» • ثم أمرت بالمائدة ، فمد السماط فاعتذرت أسماء عن الطعام فألحت نائلة عليها فتناولت منه شيئا ، ثم اخذت نائلة تحادثها في شؤون شتى حتى هدأ روعها ، وجعلت تتأملها وتعجب لجمالها فاذا هي لا تشبه أباها في شيء وكانت قد رأته عندما جاء معها •

وكانت أسماء في اثناء ذلك مطرقة غارقة في بحار الهواجس فقالت نائلة : «ما بالك صامتة ، تكلمي يا أسماء واشغلي نفسك عن الحزن لعلك تتعزين» •

قالت : «لا ارى شيئا يعزيني في هذه الدنيا يا مولاتي ، ولا يحلو

لي الكلام ، وأحمد الله لما لقيته من مواساتك فقد استأنست بك كثيرا وشعرت بحنوك حنو الأم على ولدها» . قالت ذلك وهي تمسح دموعها وتشهق بالبكاء .

فتأثرت نائلة وأبقت الحديث في شأن مروان الى فرصة اخرى . وأحبت ان تسليها عن الحزن فدعتها لمشاهدة ما في بيتها من الاثاث ، وأكثره من الطنافس والسجاد والاواني مما غنمه القواد في فتح الشام والعراق من قصور الملوك والبطارقة وأغنياء الروم والفرس ، وفيها اسلحة مرصعة وأعلام ودروع وآنية من الفضة والذهب من غنائم المدائن عاصمة الفرس على عهد عمر بن الخطاب ، وبينها تاج كسرى مرصع بالجواهر ، وثيابه ووشاحه وكلها من الديباج المنسوج بالذهب ، المنظوم بالجواهر ، ودرع هرقل ، ودرع خاقان ملك الترك ، ودرع داهر ملك الهند ، ودرع النعمان بن المنذر ، وكثير من الأسياف المرصعة . وأدركت أسماء من تكومها بعضها على بعض بلا تنظيم انها لم توضع لاجل الزينة . ثم خرجت نائلة بها الى غرفة صغيرة رأت فيها أريكة وعليها جواد من ذهب فوقه سرج من فضة ، وعلى ثغره ولباته الياقوت والزمرد وعلى الجواد فارس من فضة مكلل بالجواهر . وبالقرب من الجواد ناقة من فضة عليها شليل من ذهب وبطان من ذهب ، ولها زمام من ذهب ، وكل ذلك منظوم بالياقوت وعليها رجل من ذهب . فانبهرت أسماء لتلك التحف التي لم تر مثلها ولكنها علمت لاول وهلة انها ليست من صنع بلاد العرب .

فقالت : «ومن اين هذه التحف يا سيدتي ؟»

قالت : «انها من غنائم المسلمين مما فتحوه من بلاد الفرس ، وهي من متاع بيت المال ، وانما نقلناها الى هنا لأمر اقتضى ذلك ، وسنعيدها اليه ، فأحببت أن أريكها لانها من أبدع ما صنع ولا نظن الزمان يأتي

بمثلها » .

فقالت أسماء : «لقد عرفت فائدة التيجان والسيوف والدروع ، ولكنني لم أفهم فائدة هذا الجواد والناقة ؟»

قالت نائلة : «أخبرني بعض من شهد فتح المدائن من أمرائنا انهم لما فتحوها ودخلوا ايوان كسرى رأوا في صدر الايوان الأريكة التي كان ناج هذا الملك قائما فوقها ، وعلموا انه كان مركزا على أسطوانتين من المرمر المذهب وعلى قمة احدى الاسطوانتين هذا الجواد وراكبه وعلى قمة لاسطوانة الاخرى هذه الناقة وراكبها . وكان الفرس قد نزعوا هذه وحاولوا الفرار بها فظفر بهم المسلمون وأخذوها منهم» .

فأعجبت أسماء بما رأت اعجابا عظيما . وبينما هي تنظر الى صحن الدار لمحت مروان مارا فأجفلت وانقبضت نفسها وأرادت ان تعود الى حجرتها متظاهرة بالحاجة الى الراحة ، فودعت نائلة ورجعت فدخلت الغرفة وأغلقت الباب وتوسدت الفراش وغرقت في بحار الهواجس .

أما مروان فكان قد علم بمجيء أسماء الى نائلة ، فأراد ان يعلم ما جرى بينهما فجاء متظاهرا بالرغبة في لقاء الخليفة ثم تحول الى غرفة نائلة فرآها وحدها ، فسألها عما جرى فأخبرته انها لم تفاتحها في شيء وانها ستذهب اليها في الغد وترى ما يكون . فألح عليها ان تستطلع ضميرها وتقنعها . فوعدته بأنها ستدعوها في الغد الى الاقامة عندها .

***

وفي صباح اليوم التالي بكرت نائلة الى غرفة أسماء ، فوجدت الباب مغلقا ففتحته بلا استئذان ، فرأت أسماء نائمة وقد اغمضت جفنيها وتوسدت احدى ذراعيها ، وجعلت الاخرى فوق رأسها فانحسر كمها عنها فبان زندها وبانت عروقه مخضرة كأنها خطوط متعرجة رسمها الجمال

تحت تلك البشرة الناعمة الغضة ، ونمت على كل زند عضلاته واستدارت حتى يخيل الى ناظره ان الصحة تتدفق منه • وكانت الشمس قد اشرقت فأرسلت أشعتها من نافذة فوق رأس أسماء ، فمرت الاشعة حتى اجتازتها ولم تقع عليها ، ولكنها جعلت لزندها ظلا خفيفا وقع على محياها فأخفى ظل أهدابها الطويلة • فوقفت نائلة تتأمل ذلك الجمال المحلى بالصحة وهي تحاذر ان توقظها ، فلمحت على معصمها وشما على شكل الصليب فاستغربت ذلك لعلمها انها مسلمة ولا يتخذ ذلك الوشم غير المسيحيين • فتأملت فيه فاذا هو رسم صليب لا ريب فيه ، ثم دنت من رأسها فرأت العرق قد كلل جبينها وزادها بهاء وجمالا •

وكأن أسماء أحست بوقوف نائلة الى جانبها ، فغيرت وضعها ورفعت يدها عن جبينها واستلقت على ظهرها فانشق صدر ثوبها فبان من تحته قلادة من فضة تدلت منها تميمة صغيرة عليها رسوم مسيحية ايضا ، فازداد تعجب نائلة واشتد ميلها الى استطلاع السر • وبينما هي في ذلك اذ رفعت أسماء يدها الى عينيها فمسحتهما فرأت نائلة واقفة عند رأسها، فخجلت لنومها بين يديها ونهضت بعد ان ارسلت كمها فوق معصمها ، وأطبقت صدرها • فحيتها نائلة فردت التحية وهي تمسح عرقها وتهم بالوقوف ، فأقعدتها وقالت : «استريحي يا ابنتي اني لا أريد ازعاجك ولم آت الا التماسا لراحتك» •

فأثنت أسماء على معروفها ودعتها الى الجلوس فجلست نائلة على جانب السرير وهي ممسكة يد أسماء تنظر الى رسم الصليب فيها ثم قالت : «لقد استغربت هذا الرسم على معصمك ، وعهدي بك مسلمة ، فهل رسمته على سبيل الزينة ؟»

قالت : «لا أعلم ، ولا أذكر يوم وشمه ، لاني كنت طفلة • وقد سألت أمي عنه فلم تجبني» •

قالت : «وما هذه التميمة التي في عنقك ؟»

فمدت أسماء يدها الى التميمة فأخرجتها من بين ثوبهـا وقالت : «لا أدري من ألبسني هذه ايضا» • قالت نائلة : «ولكنها تميمـــة مسيحية » •

قالت : «لعلها كذلك ، وقد لبستها طوعا لأمر أمي فقد اوصتني ان أحتفظ بها منذ طفولتي» •

فلم تعرف نائلة شيئا ، وازدادت رغبتها في البحث ، فقالت : «ألا أخبرتني يا أسماء كيف وصلت اليك هذه التميمة ، وكيف رسم على يدك هذا الصليب ؟ اخبريني ولا تخافي فان النصارى أهل ذمة عندنا • ثـم اني ولدت في بيت مسيحي انا ايضا وكان والدي نصرانيا • فأخبريني امرك وأنا أعلم ان أباك يزيد مسلم أموي» •

فتذكرت أسماء أمها وكتمانها اسم ابيها الحقيقي فتنهدت وصمتت، فعجبت نائلة لسكوتها وتسترها وقالت لها : «ما بالك صامتة ؟ بوحي لي بسرك ولا تخافي فانك بمنزلة ابنتي عندي» •

قالت أسماء : «بماذا ابوح وأنا لا أعلم مـــــن هذا السر شيئا ، وأعترف اني كنت منذ حداثتي ارى هذا الصليب وهذه التميمة ولا أعلم من امرهما شيئا» •

قالت : «كيف يكون ذلك ؟»

قالت أسماء : «هذا هو الواقع يا مولاتي ولا أعلم من أمرهما و••» وصمتت •

فقالت نائلة : «قولي يا أسماء ولا تخفي سرك عليّ» •

قالت : «ماذا اقول وأنا لا اعرف شيئا غير ما ذكرت ؟»

قالت : «يظهر لي من ترددك انك تخفين شيئا آخر» •

فتنهدت أسماء تنهدا عميقا ونظرت الى نائلة والدموع ملء عينيهـا

وحاولت الكلام فخنقتها العبرات فسكتت •

فضمتها نائلة الى صدرها وقبلتها وهي تزداد اعجابا باشراق طلعتها وقالت : «قولي يا بنيتي ، قولي ما في نفسك وثقي اني حافظة سرك عن كل انسان» •

فمسحت أسماء دموعها ، وتنفست الصعداء وقالت : «ماذا اقول لك يا خالة ؟ ان سؤالك جدد أحزاني وأذكرني أمي المسكينة» • قالت ذلك وعادت الى البكاء •

فمسحت نائلة دموعها وقالت : «رحم الله تلك الأم الحنون ، فانها قد خلفت لنا ملاكا كريما • قولي ما هو سرك» •

قالت : «ان سري يا سيدتي قد ذهب الى القبر مع أمي» • قالت ذلك وأوغلت في البكاء •

فقالت نائلة : «هل كانت أمك تخفي السر عليك وماتت قبل ان تبوح به ؟»

قالت : «نعم ، ماتت وخلفت لنا حرقة فراقها ، وزادت تلك الحرقة لوعة بكتمانها سرا ذهب معها الى القبر ، ولكنها ••»

قالت : «ولكنها ماذا ؟» • قالت : «ولكنها اخبرتني ان يزيد الذي يزعم انه ابي ليس هو كذلك في الحقيقة» •

فبغتت نائلة ، وتذكرت انها حدست ذلك مذ رأته فقالت : «لقد شككت فيه ، فأخبريني عما تعلمينه من تاريخ حياتك لعلي أستنتج شيئا» •

فقالت : «لقد ربيت في دمشق الشام منذ طفولتي ، وقد كفلتني أمي المسكينة وزوجها يزيد هذا معها ، وكنت أظنه ابي ثم علمت انها تزوجته في مصر على اثر قدوم عمرو بن العاص اليها ، وكان يزيد في جنده يوم الفتح ، فكانت أمي نصيبه من الغنيمة ، وكنت انا يومئذ في العام الاول من عمري • هذا كل ما أعلمه • وقد ألححت على والدتي ان

تصدقني الخبر فوعدتني ثم سبقها أجلها» .

فبهتت نائلة وظلت صامتة برهة تفكر وأغلق الامر عليها .

وفيما هما في ذلك اذ سمعتا وقع أقدام مسرعة امام الباب فالتفتتا فاذا يزيد قد دخل مسرعا وعلى وجهه امارات البغتة ، فلما رأى نائلة تأدب في وقوفه وحياها . فقالت : «ما وراءك يا أخا أمية ؟»

قال وعيناه لا تستقران وأجفانهما ترف : «ما ورائي الا الخير يا مولاتي » .

قالت : «قل ما وراءك ؟»

قال : «خرجت في هذا الصباح في شأن لمروان ، وعدت الان فلم استطع الدخول الى المنزل الا خلسة !»

فنهضت نائلة وقد خفق قلبها وحدثتها نفسها بسوء كانت تتوقعه وقالت : «ما الذي منعك ما الدخول ؟»

قال : «عصبة تجمهروا على منزل امير المؤمنين بخيلهم ورجلهم وقد علا ضجيجهم ولا ادري ما يبيتون» .

فبغتت نائلة وقالت : «وماذا يبغون يا يزيد ؟ قل» . قال : «لا أدري يا سيدتي ولعلهم يضمرون الشر» .

فخرجت نائلة مهرولة وبدنها يترجرج لضخامة فخذيها ، وأسماء في اثرها وقد نسيت حزنها واشتدت عزيمتها حتى دخلتا دار عثمان وتحولتا الى اول حجرة تشرف على الطريق فأطلتا فرأتا الناس جماعات وقد تجمهروا بأسلحتهم وخيولهم ، وعلا صياحهم ، فاضطربت نائلة وامتقع لونها وأخذ الخوف منها كل مأخذ .

أما أسماء فبقيت رابطة الجأش ، وجعلت تشجعها وتقول لها : « لا تخافي يا سيدتي فانهم لا يستطيعون الدنو من الدار فهي محاطة بهذا السور العالي ، واذا هم هموا بتسلقه فاننا نرميهم بالنبال والحراب» .

فعجبت نائلة من شجاعة أسماء ورباطة جأشها ، وكأنما سرت اليها عدواها فأمسكتها وتوجهت تقصد غرفتها •

وبينما هما في صحن الدار اذ سمعتا لغطا ورأتا هناك نفرا من المهاجرين يهمون بالدخول الى الدار وحالما وقعت عينا نائلة عليهم همست في أذن أسماء كلاما يتخلله ارتعاش وقالت : «هؤلاء كبار الصحابة قد اتوا ، ولا ادري غرضهم من امير المؤمنين» • ونظرت أسماء اليهم فرأت عليا بينهم فحدثتها نفسها بأن تكلمه ، فجذبتها نائلة وسارت بها الى اقرب حجرة هناك التماسا للحجاب ، وأغلقت الباب فاذا هما في حجرة بينها وبين مجلس عثمان باب مقفل ، ونائلة ممسكة بيد أسماء فأحست هذه بارتعاش اناملها فقالت لها : «ما الذي أخافك يا خالتي ؟»

قالت نائلة بصوت متهدج : «أخافني مجيء هؤلاء، فانهم قلما جاءونا الا لتأنيب او تهديد» • قالت : «ومن هم ؟»

قالت : «علي بن ابي طالب ، والزبير بن العوام ، وطلحة بن عبيد الله• وهم وجوه الصحابة ومن الطامعين في الخلافة وكل يريدها لنفسه ، وما زلنا منذ تولاها امير المؤمنين لا يهدأ لنا بال مما يتهمونه به من الاعمال• أرأيت الى الناس المحيطين بمنزلنا الان؟ هؤلاء اهل الكوفة والبصرة جاءوا يطالبون الخليفة بأمور ما أنزل الله بها من سلطان» •

- ٤ -

الفتنة واسبابها

قالت أسماء «بماذا يتهمونه ؟» • فدنت نائلة من أذن أسماء وهمست: «يزعمون انه استأثر بالامر وآثر آله بمناصب الدولة فولاهم الاعمال

دون سواهم ، وانه غنم الاموال الطائلة واقتنى المماليك ، وانه يختص ذوي قرباه ، بالمال ، هذا ما يزعمونه • وما كانوا صادقين» • فنظرت اليها أسماء كأنها تستوضحها •

قالت : «وما هي الحقيقة اذن ؟» • قالت نائلة : «أما استئثاره بالسلطة فذلك لانه امير المؤمنين له الامامة والسلطان ، وأما ايثاره أقاربه فله اسوة بالرسول فقد كان يعطي قرابته ، وأما احراز الاموال والتوسع في المعيشة فانهما من مقومات هذا المنصب • ثم ان امير المؤمنين يطعم الناس طعام الامراء ، وأما هو فوالله لقد رأيته يأكل الخل والزيت ، أتعدين من يفعل ذلك طامعا في الدنيا ؟»

قالت أسماء : «اذن فلماذا هذه الفتنة ؟»

فتنهدت نائلة وقالت : «انهم فعلوا ذلك حسدا ، واني أعرف من زعماء هذه الثورة قوما عاشوا في نعم امير المؤمنين أعواما ، ثم وسوس لهم الشيطان • وقد اخبرني ثقة ان الذي حرضهم على ذلك رجل يهودي اسمه عبد الله بن سبأ أسلم حديثا وأخذ يتنقل في الحجاز والبصرة ثم الكوفة والشام ، يريد اضلال الناس فلم يصغوا له ، وأخرجوه من الشام فأتى مصر وأقام فيها فلقي هناك آذانا صاغية ، فجعل يقول لاهل مصر : (العجب ممن يصدق ان عيسى يرجع ، ويكذب ان محمدا يرجع، فوضع لهم بدعة يسمونها (الرجعة) فقبلوا ذلك منه • وقال لهم : (كان لكل نبي وصي ، وان عليا وصي محمد ، فمن أظلم ممن لم يجز وصية رسول الله) • وزعم ان امير المؤمنين عثمان وثب على وصي الرسول وأخذ الخلافة بغير الحق فقال لهم : (انهضوا بهذا الامير ، ابدأوا بالطعن على أمرائكم واظهروا الامر بالمعروف والنهي عن المنكر تستميلوا به الناس) • وبث دعاته ، وكاتب أشياعه في الامصار وكاتبوه ، وبثوا دعوتهم في الخفاء وصاروا يكتبون الى الامصار كتبا يضعون فيها من

أقدار ولاتهم ، وتوسعوا في دعايتهم فبدأ الفساد من ذلك الحين ، فثار المسلمون في كل الانحاء الا اهل الشام والمدينة فانهم ثبتوا على الولاء للخليفة . هذا هو سر الامر يا ابنتي» .

فتأثرت أسماء واقتنعت بما قالته نائلة ، ومالت كل الميل الى نصرة عثمان ، ومشت الاثنتان نحو الباب المقفل بينهما وبين مجلس الخليفة . فنظرت أسماء من شق فيه فرأت عثمان جالسا في صدر المجلس على وسادة مزركشة وقد علته البغتة وامتقع لونه وآثار الجدري لا تــزال ظاهرة فيه . وتأملته جيدا فرأته مشرف الانف عظيم الارنبة ، وقد أدار نظره نحو الدار ويده اليسرى على لحيته يمشطها بأصابعه يتشاغل بها عن قلقه ، وخاتم الخلافة في احدى اصابعه ، وفــي يده اليمنى قضيب الخلافة . وكان قد نزع عمامته فبانت صلعته ، وسمعت في بعض جوانب الغرفة رجلا يقرأ القرآن ولم تره . ورأت بين يدي الخليفة جماعة من أمية لم تعرفهم ، ثم سمعت خفق نعال عند باب المجلس واذا بعثمــان يضع العمامة على رأسه ويقف تكريما للقادمين ، وكان اول من دخل منهم علي بن ابي طالب فحيى عثمان بتحية الخلافة قائلا : «السلام عليك يا امير المؤمنين ورحمة الله وبركاته» . ثم دخل بعده رجل ربعة أميل الى القصر ، رحب الصدر ، عريض المنكبين ، اذا التفت التفتــوا جميعا ، ضخم القدمين ، حسن الوجه أبيضه ، مشرب بالحمرة ، كثير الشعر ، ليس بالغزير ولا بالخفيف وقد شاب اكثره فلم يصبغه ، فحيى وجلس الى جانب علي . فالتفتت أسماء الى نائلة وسألتها عنه فقالت : «هذا طلحة بن عبيد الله» . ثم دخل في اثرهما رجل أسمر اللون خفيف اللحية معتدل العضل فقالت أسماء : «ومن هذا ؟» . قالت : «الزبير بن العوام» . ولما استتب بهم المقام قالت نائلة : «اجلسي يا ابنتي لنسمع ما يدور بينهم فعساهم أن يكونوا قد جاءوا لخير» .

فجلستا تنظران وتسمعان ولا يراهما احد .

بدأ علي الكلام في المجلس قائلا لعثمان : «أتدري لأي شيء جئناك يا امير المؤمنين ؟»

قال عثمان : «الله أعلم» . قال : «يعلم الله اننا جئنا نريد بك خيرا، انك يا امير المؤمنين ابن عم الرسول الاعلى ، وقد تزوجت باثنتين من بناته ، وتلك كرامة لم يحزها احد سواك ، وأنت يا أبا عبد الله من السابقين الاولين ، فقد صليت الى القبلتين ، وهاجرت الهجرتين ، وأنت اول من هاجر الى الحبشة ، وتوليت لكتابة للرسول ، وجمعت القرآن. فأنت يا امير المؤمنين من خير الصحابة ، وقد توفي رسول الله وهو عنك راض وبشرك بالجنة ، فلا نرضى ان تكون الامة ناقمة عليك ولا ان يهموا بخلعك او قتلك ، ونحن نعلم انهم اذا فعلوا كانت الفتنة نعوذ بالله منها فتنقسم الامة وتكون العاقبة وبالا عليها» . وكان علي يتكلم وعثمان مطرق يقلب في صفحات مصحف بين يديه ، فلما أتم كلامه رفع عثمان رأسه وقال : «اني عالم بكل ذلك يا أبا الحسن . بم يقتلونني وقد سمعت رسول الله (صلعم) يقول : (لا يحل دم امريء مسلم الا باحدى ثلاث : رجل كفر بعد اسلام ، او زنى بعد احصان ، او قتل نفسا بغير حق) . وما فعلت شيئا من هذا واني أتقدم اليكم ان تشيروا علي» .

فقال علي : «نرى أن تخاطب الناس فانهم هاجوا وأحاطوا بدارك ناقمين فقم اليهم وعدهم خيرا» .

قال عثمان : «لقد طالما وعدتهم وأمهلتهم فلم يقنعوا» .

قال علي : «وعدتهم ثم أخلفت ، ولا نعد ذلك اخلافا منك ولكنك أصغيت لابن عمك مروان ، وهو غلام لا يفقه شيئا ، فاذا نحن خرجنا من بين يديك جاءك وأعظم استرضاءك المسلمين وقد فاته ان في استرضائهم

قطع دابر الفتنة فقم اليهم وكلمهم» •

وكانت أسماء تسمع • فراقها انصياع عثمان ، واستبشرت خيرا • ولكنها لما سمعت ذكر مروان اقشعر بدنها •

أما عثمان فقال : «سأقوم وأخاطبهم ولا بأس من هذا ، ولكن ما الذي حملهم على هذه الثورة ؟ أخبروني ان كنت مخطئا استغفرت لذنبي وأذعنت » •

فابتدره الزبير قائلا : «يقولون انك استأثرت بالامارة وجعلتها لنفع أقاربك ، وجمع الاموال والاستكثار من الخدم والضياع ، فانك تملك نحو مائة وخمسين الف دينار ، وألف ألف درهم نقودا ، ومثلها من الضياع • وقد اقتنيت الخيل والابل وقد كان الفاروق عمر بن الخطاب يرقع ثوبه بالجلد ، وهذا ابن عم الرسول يقول : يا بيضاء ويا صفراء غيري غيري» •

فالتفت عثمان الى الزبير وقد نشط كأنه شعر بأن الحق في جانبه وقال : «أأنت تقول ذلك يا ابن العوام ؟ أتحسبون حشد الاموال ذنبا يستوجب القتل ونحن فيه سواء ، ألم تستكثر انت من الاموال ؟ ألا تملك خمسين الف دينار وألف فرس وألف عبد وألف أمة ما عدا الدور والضياع • وهذا طلحة ايضا فان غلته من العراق الف دينار في اليوم وعنده ألف بعير ، وعشرة آلاف من الغنم • وهذه داره في الكوفة وتسمى الكناس • وهذا زيد بن ثابت ، وعبد الرحمن بن عوف ، وغيرهم من الصحابة ، عندهم الاموال الوافرة • لعلكم ورثتموها عن آبائكم ، أم هي مال حلال لنا جميعا غنمناها في الجهاد بنعمة الاسلام ؟»

ثم توجه بقوله الى الجميع وقال : «اننا نعرف بعضنا بعضا في الجاهلية ، وقد كنا نسكن ارضا غير ذات زرع ولا ضرع ؟ وكان فينا أناس يأكلون العقارب والخنافس ويفاخرون بأكل وبر الابل يموهونه

بالحجارة في الدم ويطبخونه • حتى انارنـــا الله بالاسلام واجتمعت عصبية العرب على الدين وطلبنا ما كتب الله لنا من الارض بوعـــد الصدق ، فابتززنا ملكهم واستبحنا دنياهم • أليس ذلك مالا حلالا لنا، فكيف نستحق القتل او الخلع عليه ؟» وأما اعالتي أقاربي فقد كان رسول الله يعطي قرابته • ولكني اراكم قد غرتكم مقالة ابن سبأ» • قال ذلك وقد اخذ منه الغضب مأخذا عظيما حتى رقصت لحيته •

فلما سمع علي مقالته أغفل الاشارة الى ابن سبأ لانها تتعلق به وقد تسبب نفورا ولكنه قال : «يخيل الي يا أبا عبد الله ان سبب هـــذه الفتنة انما هو ما ذكرت من استكثار المال ، فانه يفرق بين الاب وابنه، وهذا ما حملني على كرهه حتى قلت : (يا صفراء ويا بيضاء غيري غيري)• فها انها قد غرتكم ، ولكن مالنا ولهذا الجدال فقد جئنا نطلب حســم الخلاف وهو لا يكون الا بأن تخطب هؤلاء الناس المحيطين بالدار ، ولا آمن ان يجيء ركب آخر من الكوفة والبصرة فتقول : (يـا علي اركب اليهم) • فان لم أفعل رأيتني قد قطعت رحمك واستخففت بحقك» •

فقال عثمان : «اني اول من اتعظ ولا احب ان يهرق بسببي محجب من الدم» • قال ذلك ونهض وهو يصلح عمامته ويسكن برده على كتفيه والقضيب بيده ، وخرج وتبعه علي ورفاقه •

قالت أسماء : «بورك في علي ، فان به صلاح هذه الامة ، وكم احب ان اسمع الخليفة يتكلم» •

قالت نائلة : «اتبعيني فان في حجرتي نافذة تطل على المكان الـذي يقف فيه امير المؤمنين» •

فنهضنا ولبثتا برهة ريثما خرج الناس ، ثم خرجتا الى غرفة نائلـــة وأطلتا من النافذة بحيث تريان وتسمعان ولا يراهما احد • فرأتا عثمان وقد أشرف على الجموع • فلما رآه الناس علا ضجيجهم ونظروا اليه

فقال وصوته يتلجلج : «ايها الناس اني اول من اتعظ ، أستغفر الله مما فعلت وأتوب اليه فمثلي من نزع وتاب . فاذا نزلت فليأتني أشرافكم فليروا فيّ رأيهم ، فوالله لئن ردني الحق عبدا لأستن بسنة العبيد ، ولأذلن ذل العبد ، وما عن الله مذهب الا اليه . فوالله لاعطينكم الرضا ولأنحين مروان وذويه ولا أحتجب عنكم» .

ولم يتم كلامه حتى اختنق صوته وترقرقت الدموع في عينيه ؛ فبكى كل من سمعه .

وكذلك بكت نائلة وأسماء ، وبينما هما خارجتان سمعتا وقع أقدام آتية الى الغرفة ، ثم رأتا عثمان داخلا وقد امتقع اونه واضطرب . فلما رآته أسماء همت بالخروج حياء فدعتها نائلة للسلام عليه ، فتقدمت اليه وهي مطرقة اجلالا وهمت بتقبيل يديه فحياها وهو يتأمل جمالها وهيبتها ثم نظر الى نائلة مستفهما ، فقالت : «انها ضيفة عندي يا امير المؤمنين، وأحمد الله على ان قدومها كان خيرا فقد قضي الامر» . فتنهد وهو يبحث عن وسادة يجلس عليها فلما جلس دعاهما للجلوس فجلستا وهو لا يزال يتفرس في أسماء وقد استغرب لباسها الاسود وقال : «مالي اراها في السواد ؟»

قالت : «لانها فقدت أمها بالامس وهي قادمة من الشام فنزلت عند جيراننا بني حزم مع ابيها» .

قال : «ومن هو ابوها ؟»

قالت : «يزيد الذي جاءنا منذ ايام» . فنظر اليها وابتسم ابتساما لم يغير شيئا من مظاهر اضطرابه وقال : «لقد جئت أهلا ووطئت سهلا عزاك الله على مصابك» .

فقالت أسماء : «من كان في جوار امير المؤمنين فهذا عزاءه» .

فأعجبه جوابها وقال : «وماذا يصنع ابوك ؟»

قالت : «لا شيء يا مولاي» •

قال : «سننظر فيما ينفعه» • ولم يتم عثمان كلامه حتى دخل مروان فجأة بلا استئذان ومعه جماعة من شباب بني أمية ، فلما رأته أسمـــاء اجفلت وانقبضت وهمت بالخروج ، ولكنها استحيت فانزوت في بعض جوانب الغرفة •

اما مروان فانه دخل متقلدا سيفه وقد ارخى رداءه تيها وعجبا ، حتى اذا اقترب من الخليفة جلس الى جانبه وحياه بتحية الخلافة ثم حياه رفاقه وجلسوا ، وساد السكوت حتى لاحت من مروان التفاتة الى جانب الغرفه فرأى أسماء فسر لتقربها من نائلة ، وأحب ان يظهر لها نفوذه عنـــد الخليفة لعله ينال حظوة في عينيها ، فنظر الى عثمان وقال : «يا امـــير المؤمنين أتكلم ؟ أم أسكت ؟»

فابتدرته نائلة قائلة : «لا بل اصمت ، فانهم والله قاتلوه ومؤتسرون به • انه قد قال مقالة لا ينبغي ان ينزع عنها» •

فحملق مروان فيها وقال : «ما انت وذلك ؟ فوالله قد مات ابوك وهو لا يحسن ان يتوضأ» •

فقالت : «مهلا يا مروان عن ذكر الآباء • نخبر عن ابي وهو غائب فتكذب عليه ، وان أباك لا يستطيع ان يدافع عن نفسه • اما والله لولا انه عمه (عم الخليفة) وانه يناله غمه لأخبرتك عنه ما لن اكذب عليه فيه»•

وكانت أسماء تسمع كلامها وهي تكاد تتميز غيظا ، ولكنها احترمت المقام وخافت ان يستهجنها عثمان ، فصبرت لتسمع ماذا يريد ان يقول•

اما مروان فأعرض عن نائلة مخافة ان تزيده تعنيفا ونظر الى عثمان فقال : «يا امير المؤمنين أتكلم أم أسكت ؟» • قال : «تكلم» •

فقال : «بأبي انت وأمي ، والله لوددت ان مقالتك التي قلتها اليوم على مسمع من المسلمين كانت وأنت ممتنع فكنت اول من رضي بهـــا

وأعان عليها • ولكنك قلت ما قلت وقد بلغ الحزام الطبيين ، وبلغ السيل الربـــى ، وحين اعطي الخطة الذليلة الذليل • ووالله لاقامة عاـــي خطيئة ويستغفر منها اجمل من توبة يخوف عليها • وأنت ان شئت تقربت بالتوبة ولما تقربت بالخطيئة ، وقد اجتمع بالباب أمثال الجبال من الناس يريدون ان ينزعوا ملكنا من أيدينا» •

وكان عثمان يسمع مقالة مروان وهو مطرق يفكـــر وأسماء تراقب حركاته وتخاف ان يصغي عثمان له فيعود الامر الى اعظـم مما كان ، فوقفت بقامة تخجل البان وقد زادها العبوس مهابة وخاطبت الخليفة قائلة: «أيأذن امير المؤمنين لأمته في كلمة ؟»

فأعجب بشجاعتها . وتحولت اليها أنظار الحاضرين ، وقال عثمان : «قولي يا بنية» • فقالت : «ان وقوفي بين يدي امير المؤمنين ودخولي في شؤون امارته لتطفل جريء . وعذري انني اقولها كلمة خالصة لوجه الله والخليفة • اني يا امير المؤمنين ارى ما يقوله ابن عمك ايقادا للفتنة بعد ان نامت . ومدعاة للقتال واثارة للحرب • وشرا مستطيرا» •

فلما سمع مروان مقالها قهقه استخفافا ولم يجبها ، ولكنه حول وجهه الى الخليفة وقال : «كأن هذه الفتاة تريد ان يسمع امير المؤمنين لمشورة النساء ، وقد قيل انهن ناقصات العقول» • قال ذلك وأغرب فـــي الضحك •

فحمي غضب أسماء وثارت الحمية في رأسها ، وقالت : «ان النساء مهما يكن نقص عقولهن لأكمل عقلا ممن يرى العبرة ولا يعتبر • فقد كفاك تغريرا بأمير المؤمنين ، واعلم ان الذين اشاروا عليه بما عمله انما هم نخبة المهاجرين وخير صحاب الرسول وليسوا ناقصي العقول» •

وكانت نائلة تسمع كلام أسماء وقلبها يرقص طربا ، ولكنها خافت طيش مروان وتوقعت ان يغضب • فاذا به عاد الى الضحك وقال : «لا

اقول انهم ناقصو العقل ولكنهم يريدون اذلالنا ، ونزع هذا الامر من يدنا، وليس من شأنك ان تشيري على امير المؤمنين» •

قالت : «لم اقف في حضرته الا باذنه ، وليس لك ان ترد ما أمر به» •

فحمي غضب مروان فوقف ويده على قبضة حسامه وقال : «والله اني ضاربك بحد السيف فقاطعك نصفين» •

فابتسمت مستخفة ، ورفعت يدها وقد انحسر بعض كمها حتى بان معصمها وقالت وهي تشير اليه بسبابتها تهديدا : «لا تظنني اخاف حسامك اذا جردته ، فلولا حرمة امير المؤمنين لقتلتك بسيفك ، فأردد يدك عن قبضته فما انا ممن يخاف السيوف • ولا يغرنك اني فتاة ، واذا اردت ان تعرف من انا فعليك بالنزال في ساحة الوغى» •

فعجب الحاضرون لهذه الحماسة وبهتوا لما سمعوه مما لم يكونوا يتوقعونه من الفتاة • اما مروان فخجل من تأنيبها وكظم غيظه وتظاهر بالاستخفاف وعاد الى مجلسه ضاحكا وهو يقول : «لولا حرمة امير المؤمنين لعلمتك معنى النزال» •

قالت : «كان يجب عليك ان تحترم مجلس الخليفة قبل ان تقبض على الحسام ، وما رجوعك عن قحتك الا جبن وخزي» •

فهمّ مروان بالوقوف ثانية وقد امتقع لونه وارتعشت أنامله ، فأمسكه عثمان وأجلسه وهو معجب بجرأة أسماء ، ثم وضع يده على كتف مروان وقال له : «لم اكن أتوقع منك اطالة الجدال ، وكأني بك تجرد السيف أمامي اذا تركتك وشأنك» •

فخجل مروان وسكت وفي نفسه حزازة ونقمة •

وأشار عثمان الى نائلة فنهضت وأخذت بيد أسماء وخرجتا ، والحاضرون يتبعون أسماء بأبصارهم ويعجبون بما سمعوه وبما ينظرون من لين قوامها واسترسال شعرها وحسن خطاها •

فلما دخلتا غرفة اخرى قبلتها نائلة وقالت والدموع ملء عينيها : «بورك فيك يا أسماء ، والله انك قد شفيت غليلي من هذا الغلام ، ولكنني ارى انه سيقنع الخليفة ويحمله على الرجوع» .

قالت : «فلنقف هنا لعلنا نسمع ما يدور بينهما» . ثم وقفتا فسمعتا مروان يقول له : «مالنا ولأقوال النساء ؟ ان الامر جلل ولا ادري اذا كنت قد قلت ما قلته مكرها» .

قال عثمان : «ومن يكرهني ؟» ..!

- ٥ -

اسماء ومحمد ومروان

اغلقت أسماء الباب وجلست على السرير تفكر فيما مر بها من غرائب الاحداث . فتصورت أمها وحنوها وتذكرت كيف كانت تشكو اليها همها في مثل تلك الحال ، فغلب الحزن عليها وبكت . وفيما هي في ذلك اذ سمعت وقع أقدام امام بابها فأجفلت وافتقدت الخنجر وتحفزت للوقوف وقد نسيت حزنها ، ولبثت هنيهة فلم تسمع صوتا . ثم سمعت نقرا على الباب فوثبت اليه وفتحته وقد تهيأت للقاء مروان فاذا بالباب محمد بن ابي بكر ؛ فأجفلت وغلب عليها الحياء واختلط حياؤها باجفالها فزاد وجهها مهابة وجلالا .

اما محمد فلما رآها في تلك الحال ابتدرها قائلا : «ما بالك يا أسماء ؟ ما الذي اخافك ؟» . فغالطته وحيته ولم تجبه ، فرد التحية ومد يده فسلم عليها وشعر عند لمس يدها ببرد أناملها وارتعاشها فقال :

«ما بالك ترتعشين وأنت وحدك ؟» • قال ذلك وهو ينظر الى جوانب الغرفة لعله يرى احدا هناك فازداد تعجبا •

أما هي فتجلدت وقالت : «لا شيء يخفني يا محمد وأنا في حمى ابي الحسن» •

قال : «لقد صدقت ولكنني اراك في اضطراب وهياج كأنك كنت تخاصمين احدا ام انت ترتعدين لقدومي على غرة وأنا انما فعلت ذلك طوعا لعلي فانه ارسلني لافتقدك وأنظر في حوائجك» •

قالت : «بورك فيه وفيك ، وأشكر لكما عنايتكما بي فاني بحمد الله في خير وعافية ادعو لسيدي ابي الحسن بطول البقاء» • قالت ذلك وجلست على السرير •

أما هو فود لو يمكث عندها ، ولكنه خاف ان تستهجن ذلك منه لخلو المكان من الناس فقال : «وأين ابوك ؟»

فتنهدت وقالت : «لا ادري اين هو الان» •

فقال : «ما بالك تتنهدين يا أسماء ، اني اراك تكتمين امرا» •

قالت : «لا أكتم شيئا ولكنني» • وسكتت •

قال : «ولكنك ماذا • قولي» •

قالت : «لا ادري ماذا اقول وأنا كلما نظرت اليك ذكرت أمي التي ذكرت اسمك وهي على فراش الموت» • وترقرقت الدموع في عينيها •

فلما رأى محمد دموعها انفطر قلبه شفقة وأمسك بيدها وجوارحه تختلج وقال : «رحم الله تلك الأم فاني ما برحت منذ رأيتها وأنا في شغل شاغل لا يهدأ لي بال قلقا عليك ، وقد كان علي ان أفتقدك قبل الان ولكن الاحداث التي نحن فيها حالت بيني وبين ما أريد ، فأمر هذا الخليفة قد أقض مضاجعنا فلا نكاد نرتق فتقا حتى يتفتق غيره» •

وكانا يتكلمان ومحمد واقف والباب مغلق الى نصفه فلم يتم محمد

كلامه حتى رأى مروان داخلا وملامح الغضب تلوح على وجهه ، وقد حمل سيفه ، فلما رآه محمد لمح الغدر في عينيه فنظر اليه شزرا ولم يعبأ به .

أما مروان فقال وقد علاه الاصفرار والبغتة : «ما الذي جاء بك الى هذا المكان يا ابن ابي بكر ؟»

فقال محمد : «ما شأنك وما انا في بيتك ؟»

قال : «انك في دار الخليفة وقد دخلت على نسائنا بلا استئذان» .

فاستغرب محمد قوله ونظر الى أسماء كأنه يستفتيها ، فقالت غير هيابة او وجاة : «ان مروان يتكلم متطفلا فيما لا تناله ذراعه ولو تطاول» .

فابتسم مروان ابتسام المستهزىء وقد اشتد غيظه وقال : «سلي أباك اذا كانت ذراعي تنال ام لا» .

قالت : «دع ذكر الآباء وارجع من حيث اتيت والا أسمعتك ما لا يرضيك» .

فضحك مروان وتوكأ بيده على سيفه وقال ويده الاخرى على شاربيه : «اراك تغررين بنفسك كأنك نسيت ما نالك بين يدي الخليفة ، ألا تعلمين انك اذا بقيت على غرورك ندمت حيث لا ينفع الندم» .

فاستغرب محمد هذا الجدال ، ولكنه ادرك ما في نفس مروان فاتقدت في قلبه نار الغيرة ، وعظم عليه التطاول وهم به يريد ضربه ، فاعترضت أسماء بينهما وقالت : «دعه يا محمد لأرى ما هو فاعل» . قالت ذلك وتقدمت الى مروان ويدها على خنجرها كأنها تهم باستلاله ، وقد قطبت حاجبيها وحمي غضبها حتى كاد الشرر يتطاير من عينيها .

فأخذ محمد بشجاعتها ولم يكن يعهد مثل هذا في النساء ، فأراد ان يحول بينها وبين مروان فلم تمكنه من ذلك .

أما مروان فلما رأى ما كان من أسماء وأدرك ان محمدا منجدها خاف العاقبة ، وكان قد قبض على حسامه فرفع يده وتظاهر بالضحك ومد يده يريد ان يمسك بيد أسماء ليكلمها فجذبت يدها وقالت : «جرد حسامك وأرني شجاعتك ، وهذا ابن ابي بكر شاهد على ما يكون» .

فقال مروان : «أأجرد حسامي على فتاة ؟. أما دواؤك يا أسماء فهو عندي» . قال ذلك وخرج متغاضبا وهو انما خرج خائفا كاظما وعزم على الفتك بأسماء غيلة .

ونظر محمد الى أسماء وقد علت وجهها مهابة الابطال ، وذهب عنها ذل الحزن والضعف ، فأعجب بما خصها به الخالق من الهيبة والانفة فأمسكها بيدها وأرجعها الى غرفتها قائلا : «بورك في شهامتك يا أسماء، ولكنني اراك قد اكترثت بهذا الشاب التافه فاتركيه وشأنه» .

قالت وهي تحاول تخفيف غضبها : «اني لا أبالي بشقشقته ووالله لو انه حمل علي بمائة مثله ما حسبت لهم حسابا» .

قال : «مالك وللاقامة هنا ، تعالي نذهب معا الى منزل علي فتقيمين ضيفة مكرمة» .

فقالت : «أتريد ان أفر من هذا المكان ؟ كلا ، لا أبرح حتى ارى ما يكون من امر هذا الغلام الغر» .

قال : «أتحسبين ذلك فرارا ؟»

قالت : «نعم دعني هنا لأرى ما يكون من أمره» .

قال : «وما يهمك ؟ دعيه وشأنه» .

قالت : «يهمني طيشه الذي وسع الخرق وأغضب المسلمين على الخليفة ، ولولا حماقته لقضي الامر ولأمن الناس الفتنة» .

فتحير محمد ولم يدر كيف يقنعها بالخروج وأهمه بقاؤها هناك غيرة عليها ، فأحب ان يستطلع العلاقة بينها وبين مروان فقال : «وما الذي

جعل له هذه الدالة عليك ، هل تعرفينه من قبل ؟»

فتنهدت وعادت اليها ذكرى مصائبها وقالت : «اننا عرفناه في الشام وقد رافقنا في سفرتنا المشئومة الى قباء ثم دخل المدينة قبلنا ، وتسبب في موت أمي قبل وصول علي» •

فعجب محمد وقال : «كيف كان ذلك ؟»

قالت : «ان حديث ذلك طويل يحتاج الى شرح ، ولكنني اقـــول بالاختصار ان هذا الشاب رافقنا من الشام لأرب في نفسه بقصد عــن ان يناله ، ولولا ضعف ابي وانحيازه اليه لما استطاع المسير معنا خطوة ولكن •• »

فقال : «وأي أرب ؟» • فلم تجب كأن الضعف والحياء قد عادا اليها فأطرقت صامتة •

ففهم محمد مرادها فازداد بغضا لمروان وغيرة على أسماء ، ولم يعد يصبر على بقائها هنالك وحدها ، ونظرا الى ما يعلمه من نفوذ مروان لدى الخليفة خاف ان يوسطه في اقناعها او استرضائها فتقبله على كره منها• ولما تخيل هذا أحس بنيران هبت في بدنه ، وصار الى خلع عثمان او قتله أميل • فصمت برهة يفكر ثم قال وهو يريد ان يزيدها كرهـــا واحتقارا لمروان : «اني أعرف من أمر هذا الغلام ما لا يعرفه سواي ، فقد سمعت من أختي أم المؤمنين (عائشة زوجة النبي) ان النبي لعنــه وهو في صلب ابيه فقال لابيه الحكم بن العاص : (ويل لأمتي من صلب هذا) • فما ترجين منه بعد ذلك ؟• اصغي لقولي وتعالي معي الـــــى منزل علي» •

قالت : «ربما ذهبت اليه في فرصة اخرى» •

فبهت محمد وهو يود ان يبثها ما خالج قلبه من حبها ويستطلـــع ضميرها ولكن الحياء والهيبة منعاه من ذلك ، فظل برهة صامتا وهو لا

يزال واقفا بازاء السرير وأسماء جالسة مطرقة وقد خالج ضميرها مثل ما خالج ضميره وهي اكثر حياء منه ، فظلت صامتة تنتظر ان يفتح هـو الحديث .

★ ★ ★

قال محمد بن ابي بكر لأسماء : «اني لا ارى عارا في خروجك من هنا الى منزل علي ، وهو الذي اقترح هذا ، ولا أخفي عليك ان الهياج قد اشتد على الخليفة فهو لن ينجو من الخلع او القتل ، وبخاصة اذا ظل مصغيا لمشورة مروان ، فهيا بنا» .

فهمت بالجواب ، ولكنها لم تكد تفعل حتى سمعا سعال يزيد ، ثم رأياه يدخل ، فبغت محمد ونفر من رؤيته لانه لم يكن يحسن الظن به . أما يزيد فحالما رأى محمدا تقدم اليه وحياه وتظاهر بالترحيب به ، وسأله عن علي قائلا : «كيف مولانا ابو الحسن ؟» . فقال محمد : «في خير» .

قال : «ألا ينوي الخروج الى الحج فقد آن أوانه وأرى النـاس يتأهبون له ؟»

قال : «لا أظنه يستطيع ذلك هذا العام» .

فقالت أسماء : «ولماذا ؟» . قال محمد : «ان في خروجه من المدينة الان والناس في هرج ومرج مجازفة ، وقد دعتني شقيقتي أم المؤمنين الى ان اذهب معها الى الحج ، ولكن ما أظنني مستطيعا» .

قالت : «ولماذا ؟» . فلم يجب ولكن ملامح وجهه دلت على انه لا يريد الخروج من المدينة وأسماء في ذلك المكان على تلك الحال .

فأحست أسماء انه يحبها ويغار عليها ، فسكتت مخافة ان يلحظ يزيد شيئا من ذلك .

وعاد محمد فخاطب يزيد فقال : «ارسلني اليكم مولاي ابو الحسن

لأدعوكما الى النزول عنده تجنبا للنزول بالقرب من دار الخليفة والناس محيطون بها» •

فقال يزيد : «لا ارى علينا بأسا هنا ، وقد فض الخلاف على ما سمعت » •

فابتدرته أسماء قائلة : «كيف فض الخلاف ومروان بالمرصاد ؟»

قال : «وما الذي فعله ؟» • قالت : «انه بعد ان استرضى الخليفة الثائرين وصرفهم بالحسنى عاد فحرضه عليهم ، فعاد الامر الى ما كان عليه ، وأظن محمدا أعلم منا بما ينوون لانه قادم من بينهم» •

فهز محمد رأسه وقال : «نعم ان مروان في صباح هذا اليوم قد وسع الخرق حتى استفحل الخطب ولم يعد تلافيه ممكنا ، وهذا ما خوفني عليكما لقربكما من الخطر» • قال يزيد : «وماذا ينوون ؟»

قال : «اذا لم ينل هؤلاء الناس ما يرجونه فقد تسوء العاقبة ، كفانا الله شر االفتنة» •

قال يزيد والخبث والرياء باديان على وجهه : «اراهم تعصبوا عليه وتجنوا ، وهم انما جاءوه يلتمسون الدنيا وفيهم من حقد عليه لمغنم فاته ، او لحديث سمعه من واش مبغض ، وما الى ذلك ، ويدعون الغيرة على الاسلام رياء الناس» •

قال محمد وقد ضاق بجوابه : «كل يعرف ما نواه» • وسكت ، ثم سأل : «ألا تأتيان معي الى منزل علي ؟» • قال يزيد : «لا نرى ما يدعو الى هذا الآن» •

فنهض محمد وودعهما وخرج غاضبا ناقما على مروان وحدثته نفسه بأن في بقاء عثمان خليفة عونا لمروان على نيل أسماء •

أما هي فلم يكد محمد يتوارى حتى ندمت على بقائها ، فان انفتها منعتها من الخروج •

- ٦ -

أسماء في دار الخليفة

اصبح يزيد بعد ان رأى اختلاء محمد بن ابي بكر بابنته ، يخشى ان يزداد ميلها اليه اذا جاءها مرة اخرى فيفشل مسعاه لتزويجها مروان . وفكر في حيلة تنجيه من ذلك فاعتزم ان يبغضه اليها وقال لها : «ارى محمدا من الناقمين على الخليفة فهل تعلمين سبب نقمته ؟»

قالت : «وما ذلك ؟» . قال : «علمت انه كان طامعا في ولاية مصر، بدلا من عبد الله بن ابي سرح اخي الخليفة بالرضاع ، فلما لم يؤثره الخليفة على عبد الله نقم عليه . وعلمت ايضا انه كان قد ولاه مصر ووجهه اليها ثم رجع عن عزمه وأرجعه فعاد ناقما . وقد اشرت الى ذلك من طرف خفي فلم يجب».

فساء أسماء ظنه في محمد ، وهي تشعر بعطف وميل شديدين اليه ، ولكنها سكتت . وفكر يزيد بعد ذلك فيما يأمن به خروج أسماء الى علي فلم ير خيرا من ان يدخلها دار الخليفة . فتركها وقصد نائلة زوجة عثمان وترامى على قدميها وبكى ، فلما سألته عما يبكيه قال : «يبكيني يا سيدتي ما عليه ابنتي من الحزن على فقد أمها ، وأخشى اذا بقيت مقيمة وحدها ان تصاب بجنون ، وكثيرا ما اراها تهم بالخروج الى مدفن أمها في قباء ، فأمنعها بالحسنى فلا تمتنع ، وهي كما تعلمين فتاة صغيرة لم تخبر الدنيا» . قال ذلك وشرق بدموعه مكرا وخداعا .

فقالت نائلة : «وماذا ترى ان نصنع ؟» . قال : «ارى ان تكون عندك تحت جناحك» .

فسرت نائلة لانها قد أنست بأسماء وارتاحت لحديثها وأعجبت بشهامتها . فقالت : «لك علي ذلك فأت بها الينا» .

قال : «اخاف اذا انا حملتها على المجيء ألا تطيعني لفرط حزنها ، ولانها اصبحت تسيء الظن بـــــي ، فاذا رأيت ان تدعيها انت كانت أطوع لك» •

قالت : «أفعل ذلك حبا وكرامة» • وهمت بالنهوض والمسير اليها • فابتدرها يزيد قائلا : «وأتقدم اليك يا مولاتي برجاء آلا تأذني لها في الخروج من منزلك ، لانها قد تحتال في الخروج لغرض تدعيه وقصدها الذهاب الى قباء» •

قالت : «لن تر سبيلا الى الخروج» • فودعها يزيد وخرج •

أما أسماء فلما خلت الى نفسها تذكرت مصائبها وتسلط يزيد الغادر عليها فأخذت في البكاء • وبينما هي تبكي اذ دخلت عليها نائلة ، فلما رأتها على تلك الحال تحققت قول ابيها فأخذت تقبلها وتعزيها وقالت لها: «ما بالك تبكين يا أسماء ، فقد بالغت في الحزن وقد عهدتك رابطـــة الجأش ، ولا خير يرجى من الحزن» • وزادت أسماء بكاء حتى هاجت أشجان نائلة وذكرت حال زوجها والخطر المحدق به فبكت معها •

فلما رأتها أسماء تبكي شكرت مشاركتها لها في مصابها ، وشعرت بتعزية وقالت : «ما الذي يبكيك يا سيدتي وأنت زوج امير المؤمنين مالك رقاب المسلمين ؟»

قالت نائلة : «أما شهدت بعينك ما احاط بنا من البلاء بطيش ذلك الشاب الغر ؟»

فانقبضت نفس أسماء عند الاشارة الى مروان ، وتنهدت تنهدا عميقا ولسان حالها يقول : «انه سبب بلائي انا ايضا» • ومنعها الحياء •

فلما سكن روع نائلة قالت : «انت يا أسماء نعم العزاء لي في هذه المحنة ، فاذا كنت تحبينني فتعالي فنقيم معا في دارنا» •

فأثنت أسماء على غيرتها ، وخيل اليها ان حب نائلة قد يكون عونا لها

على النجاة من مروان اذا وسط الخليفة في تنفيذ مأربه فقالت : «انـي طوع ارادتك يا سيدتي فان الاقامة في حماك شرف عظيم لمثلي» •

فوقفت نائلة واستنهضت أسماء فنهضت ، وسارتا معا •

قضت أسماء بقية اليوم تفكر تارة في مروان وطورا في محمد وآونة في امرها مع يزيد ، وقد ندمت لانها لم تذهب مع محمد الى منزل علي• ولكنها استأنست بنائلة وارتاحت لمجالستها • وكذلك كان شأن نائلة اذ اتخذت من أسماء تسلية لها في ضيقها لما آنسته فيها من سداد الـرأي وثبات الجأش وحسن الخلق ، مع نفور من مروان هما مشتركتان معـا فيه ، ولولا قرابته من الخليفة لقرعت له العصا وأوقفته عند حده •

ولما أقبل المساء تناولتا العشاء ، والخدم والجـــواري وقوف بين أيديهما ، والاضطراب باد على وجوههم على غير المعتاد •

فلما فرغتا من الطعام وذهبتا الى حجرة الرقاد ، نادت نائلة قيم الدار فسألته عما لديه من الاخبار ، فقال : «ان مولاي الخليفة لم يذق طعاما في هذا المساء وهو في اضطراب وقلق شديدين والناس حول الدار وعند الابواب ، وقد حاصرونا ومنعوا الماء عنا» •

فبغتت نائلة وقالت : «وكيف يمنعوننا الماء قبحهم الله» •

قال : «لقد منعوه يا سيدتي ونحن انما نستقي الان مما بقي فـي الآنية من الامس ، ولا ندري كيف نستقي اذا ظل الحصار • وهذا ما دعا امير المؤمنين الى القلق» •

فضربت نائلة كفا بكف وقالت: «ويلاه ، كيف يمنعون الماء عن امير المؤمنين ؟»

فقالت أسماء : «لا تحزني يا خالتي ، اني كفيلة بالاستقاء مهما يبالغ القوم في الحصار» •

قالت نائلة : «وكيف تستطيعين ذلك ؟»

نالت : «يحمل الماء الى بيت جيرانكم آل حزم ونحن ننقله سرا الى هذه الدار» .

فاطمأنت نائلة لهذا الرأي ، ولكنها بقيت تخشى عاقبـــة الحصار ، فصرفت القيم وجلست وهي تتنهد وتتأوه وأسماء تهون عليها . ولم تكد تجلس حتى سمعت جلبة ووقع أقدام في الدار ، فنهضت مسرعة ولم تكد تفتح الباب حتى لقيها مروان وقد تزمل بعباءته وتقلد سلاحه كأنه على سفر . فلما رآها سلم وتقدم اليها فاستعاذت بالله من رؤيته وقالت : «ما الذي جاء بك يا مروان ؟»

قال : «اني ذاهب في امر ذي بال ، وقد جئت لوداعك . وهل تلك الفتاة عندك ؟»

قالت : «هي عندي ، وما غرضك منها ، اذهب في مهمتك» .

قال : «أريد ان اراها قبل سفري» . قال ذلك ودخل الغرفة ، فلما رأته أسماء أجفلت ولكنها لبثت صامتة لا تتحرك فقال لها وهو يضحك : «ألا تزالين على رغبتك في منازلتي يا أسماء ؟»

قالت وهي جالسة لا تعبأ بقوله : «لو كنت رجلا حرا لنازلتني لمـــا دعوتك للنزال» .

قال : «لو لم اكن على سفر لأدبتك وربيتك ، وان ابن ابي بكر لا يغني عنك شيئا» .

فلما ذكر محمدا ثارت فيها الحمية وقالت : «اراك تذكر الرجل في غيبته ، فاذا حضر سكت !»

فأغرب في الضحك وقال : «سوف ترين وتسلمين ما تندمين عليـــه حين لا ينفعك الندم ، ولسوف يذوق هو مرارة الحرمان من منصب طالما طمح اليه ، ونقم من اجله على امير المؤمنين وأثار المسلمين وحرض على الفتنة » .

فهمت أسماء بأن تجيبه . فأشارت اليها نائلة ان تكف وقالت لمروان: «اذهب يا ولدي لعل في السفر راحة لنا ولك ، اننا لم نر في اقامتك خيرا » .

فضحك مروان وظنها تمزح ، وأمسك بيدها حتى تواريا عن أسماء ، وهمس في أذنها قائلا : «احتفظي بها فاني عائد قريبا للزواج بها . وانها والله لجميلة ، وأراني احبها وأغار عليها بالرغم مني ؛ ولا ارى في بنات قريش اجمل منها ولا أكمل ، ولكنها لا تزال صغيرة لا تعرف مقام الرجال » .

فتركته نائلة وعادت الى الغرفة وهي تعجب لطيشه ونزقه . فلما خلت بأسماء عادت الى بلبالها وفيما هم فيه من الحصار ، فلم تر وسيلة للافاد الفتنة الا ان يتوسط علي في ذلك . ثم تذكرت ما قاله بالامس وتحذيره زوجها من اغراء مروان فرجح عندها انه لن ينصره ، فصبرت لترى ما يأتي به الغد .

أما أسماء فسرت لذهاب مروان من المدينة لعلها تتمكن في اثناء غيابه من وسيلة تصلح بها ما أفسده .

★ ★ ★

قضت أسماء في دار عثمان ردحا من الزمن كانت فيه نعم السلوى لنائلة ، فالدار محاطة بالرجال ليلا ونهارا ، وقد منعوا الماء عنها . ولولا ما اشارت به من الاستسقاء عن طريق آل حزم لمات اهل الدار عطشا .

أما نائلة فلم تعد تستطيع صبرا على تلك الحال ، فأصبحت ذات يوم بعد ان قضت ليلتها باكية لما تراكم عليها من الهموم وما آنسته من اضطراب زوجها وقلقه وخوفه ، وأخذت تفكر عسى ان ترى مخرجا فلم تر خيرا من استنجاد علي . وأسرت ذلك الى أسماء واستحثت حميتها .

فاستسهلت أسماء كل صعب في سبيل اخماد الفتنة وانقاذ عثمان من عاقبتهما . فقالت لنائلة : «اني ارى رأيا أرجو ان ينال منك قبولا» .

قالت : «وما هو ؟» . قالت : «أذهب انا الى علي ، ومروان غائب ، وأطلعه على جلية الامر لعله يسعى في اخماد الفتنة وهو رجل الخير وبه صلاح هذه الامة» .

قالت : «لقد أصبت ، وانك بذلك تقلدينني جميلا لا أنساه» .

قالت : «سأذهب هذا المساء الى علي والله ولي الامر» .

ولما كان الغروب ، تزملت بلباس الرجال ، وتقلدت الحسام تحت العباءة ، وغطت رأسها بالعقال وخرجت من دار عثمان الى بيت بني حزم، ثم خرجت من هناك تخترق الجموع وسارت تلتمس عليا .

وكان علي في بيته بعد صلاة المغرب ، وعنده طلحة والزبير وأمراء المسلمين القادمون من الانصار نقمة على عثمان ، وكلهم يحرضون عليه الناس . ولكنها لم تجد محمدا بن ابي بكر بينهم . وشاهدت في فناء البيت الجموع من اهل مصر والكوفة والبصرة في ضجة وغوغاء . فوقفت في جملة الواقفين ولم ينتبه لها احد ، فسمعت الامراء يلغطون ويضجون وكلهم يقولون بقتل عثمان او خلعه ، وعلي يخفف عنهم ويؤنبهم على ما يبغون من شر ويقول : «والله يا قوم لا ارى في مقتل الخليفة الا تعاظم الفتنة ، انكم والله ستختلفون على من يلي الخلافة بعده ، فأبقوه ، ذلك خير لكم» .

فانشرح صدر أسماء لشهامة علي وحسن دفاعه ، ولم تتمالك ان دخلت وهي في ذلك اللباس ودنت من علي فنظر اليها وقد عجب لجرأتها وهو يحسبها من بعض المتحمسين . فتفرس فيها مستفهما والتفت الامراء اليها ، فكشفت عن وجهها ، فلما رآها علي عرفها فاستغرب دخولها وأنكر كشف وجهها على تلك الصورة ولكنه لم يسعه الا ان رحب بها قائلا :

«اهلا بفتاتنا ومرحبا ، ما الذي جاء بك ؟»

فاستغرب الحضور ترحيبه بها وهم لا يعرفونها ، ولبثوا ينتظرون ما يبدو منها • أما هي فوقفت بين أيديهم غير هيابة او وجلة وقالت : «هل تأذنون لفتاة بكلمة في خير المسلمين ، تكشف لكم القناع عن كنه ما نحن فيه وقد خبرته بنفسي» • قال علي : «تكلمي يا بنية» • قالت : «اغلقوا هذا الباب حتى لا يسمع من هم خارج الدار» •

فأمر علي باغلاق الباب ، ودعاها الى الجلوس فأبت الا الوقوف بين يديه ؛ ثم قالت : «يا معشر المهاجرين وخيرة اصحاب الرسول . انكم ، والله شاهد ، اذا اردتم بأمير المؤمنين شرا لظالموه. وهو بريء لا يستوجب قتلا او خلعا ، وما أظنكم اذا قتلتموه او خلعتموه الا نادمين . ولا ينفع النـدم » •

فاصغى الجميع وهم معجبون لتلك الجرأة من فتاة صغيرة بين يدي كبار الصحابة ، ولبثوا صامتين فاستأنفت حديثها وقالت : «أما اذا شئتم اخماد الفتنة فاقلعوا اصل الشر • اقتلوا مروان بن الحكم فانه سبب ذلك البلاء العظيم • ان الخليفة ايها الامراء بريء مما يتقوله الناس عليه ، وهو كما تعلمون من خيرة الصحابة شفوق رؤوف • وقد أذعن واعتذر جهارا على مسمع من المسلمين ، ولكن ابن عمه مروان ذلك الغلام الغر هو الذي يفعل ما يفعل من عند نفسه ، فلا تقتلوا البريء بالمذنب • اقتلوا مروان بن الحكم فيستقيم الامر ، اما اذا اصاب الخليفة ضيـم فستسألون أمام الديان العظيم • قد كفاكم انكم منعتم عنه الماء اربعين يوما ولا يعلم ما يقاسيه من جراء ذلك الا الذين يعاشرونه» •

فبهت الجميع لفصاحة أسماء ورباطة جأشها وجرأتها ونظر بعضهم الى بعض متسائلين ، فالتفت علي اليهم وقال : «هذا ما اراه يا اصحـاب رسول الله ، ان عثمان أذعن واستغفر ، ولولا ابن عمه لنامت الفتنة ،

وأرى كلام هذه الفتاة صوتا من اصوات اهل السماء» .

فقال طلحة : «ولكننا لم نأل جهدا في نصحه ليرجع عن مشورة ابن عمه ، وهو يصغي اليه ويعمل بقوله ، أما سمعت ما قاله مروان على مشهد من المسلمين ؟»

فقال علي : «وما أدراكم ان كلامه لم يكن من عند نفسه ؟ يكفينا تأنيبا ان تقف البنات العذارى موقف الواعظين يحرضننا على العمل بسنة المسلمين . ومهما يكن من صبركم ونصحكم فاني اكثركم صبرا عليه ، ولقد نصحت له مرارا وخرجت من مجلسه آخر مرة وقد عاهدت نفسه ألا أتوسط في امره . ولكني لما علمت بمنع الماء عنه ركبت مغلسا الى محاصريه وهم وقوف ببابه وقلت لهم : (يا ايها الناس ان هذا العمل لا يشبه امر المؤمنين ولا الكافرين ، وانما الاسير عند فارس والروم يطعم ويسقى) . فلم ألق منهم مصغيا» . ثم وجه كلامه الى أسماء وقال : «والله ان كلا من هؤلاء الاصحاب قد دافع عن عثمان وسعى في حقن الدماء حتى ان أم حبيبة زوج الرسول (صلعم) ركبت اليه بغلتها وحملت عليها وعاء فيه ماء ، وادعت انها تريد ان تكلمه عن وصايا عنده لبني أمية او تهلك أموال أيتامهم وأراملهم ، فقالوا : (لا والله) . وضربوا بغلتها فنفرت وكادت تسقط عنها فذهب بها الناس الى بيتها . اما انت فبورك فيك يا بنية ، والله انك انما جئت لخير» . ثم نظر الى من حوله ونادى الحسن والحسين ابنيه فقال : «اذهبا الى بيت امير المؤمنين وادفعا عنه وأرجعا الناس عن بابه ، وأنت يا طلحة ارسل ابنك ، وأنت يا زبير ارسل ابنك ايضا» . فنادى كل منهما ابنه . ثم قال علي : «وأين محمد ؟» . فقالوا : «وأي محمد تعني ؟» . قال : «محمد بن ابي بكر اين هو ؟» . فجعلوا يتساءلون عنه فلم يعثر عليه احد ، فتأفف وهز رأسه وقال : «والله اني خائف مما في نفس محمد على الخليفة» . فعلمت أسماء ان محمدا

حاقد على الخليفة انتقاما من مروان ، فلبثت تنتظر ما يقال عنه لعلهـــا تعرف مقره • فلما لم يعثر عليه احد قال علي لابنيه ولسائر ابنـــاء الصحابة : «سيروا في حراسة الله ولا تألوا جهدا في الدفاع عن حياة امير المؤمنين ورد الناس عن بابه ؛ واذا رأيتم ابن ابي بكر فأنفذوه الي، اني والله خائف مما يضمره» •

فقال طلحة : «أتظنه ينقم عليه عزله عن ولاية مصر ؟»

فنظر علي الى طلحة ولم يجب • فسار ابناء الصحابة وقد هاج الناس وماجوا ، وكلهم يلتفت الى أسماء • أما هي فسارت بين الجموع وخرجت ولم يعد يراها احد •

★ ★ ★

وعادت أسماء وهي تفكر في محمد وخافت ان تكون غيرته مـــن مروان قد حملته على مناهضة عثمان ، فأرادت ان تتحقق من نيته وهي في دار عثمان فاذا اراد سوءا بعثمان حولته عن عزمه لانها اصبحت بعد سعيها في نجاة عثمان تضن بحياته كثيرا •

وكانت نائلة قد مكثت في البيت بعد ذهاب أسماء وهي على مثل الجمر ، والليل قد أسدل نقابه ، فجلست تنتظر عودتها وهي تضمر لها كل خير اذا جاءتها بالفرج • وبينما هي في ذلك والغوغاء قد تكاثروا على الدار خطر لها ان تذهب الى زوجها تستطلع حاله فخرجت ودخلت عليه في حجرته ، فرأت مروان خارجا من عنده فاستعاذت بالله من رؤيته • أما هو فاعترضها قائلا : «لا تدخلي على الخليفة انه في شغل شاغل عنده فارجعي الى بيتك» • قال ذلك وهو لا يكاد يخفي اضطرابه • فأذعنت لانه كاتب الخليفة وحامل خاتمه ، فرجعت وهو يتبعها حتى وصلت الى حجرتها فدخل معها ونظر في جوانب الغرفة فلم ير أسماء فقال : «وأين

أسماء ؟» . قالت : «ستأتي عما قليل» .

قال : «هل خرجت من الدار ؟» . قالت : «لا . ولكنها مشغولة ولا تلبث ان تعود ؛ فأصدقني خبر الخليفة ما باله وما الذي شغله الان ؟»

قال : «لم يشغله شيء ولكنه يصلي والقرآن بين يديه» . فصدقته وصمتت ؛ أما هو فأعاد السؤال عن أسماء فقالت : «قلت لك انها لا تلبث ان تجيء» . فتركها .

ولبثت هي تنتظر عودة أسماء بصبر نافد مخافة ان يعلم مروان بخروجها فيصيبها من ذلك سوء . ولم تكد تجلس حتى سمعت ضجيجا في صحن الدار فأطلت فرأت جماعة داخلين وفيهم الحسن والحسين وأبناء الصحابة ، فخافت ان يكون في قدومهم شر ؛ ولكنها ما لبثت ان سمعت الحسن يكلم اهل المنزل ويهدىء من روعهم ويقول : «لا تخافوا، اننا جئنا للذب عن الخليفة» . فأدركت انهم انما جاءوا بمسعى أسماء ؛ وبعد هنيهة رأت أسماء قادمة وهي تخفي نفسها فاستقبلتها باسمة واستطلعتها الخبر فطمأنتها وقالت : «ان الصحابة ارسلوا ابناءهم للدفاع عن الخليفة وارجاع الناس عن بابه» .

فسرت نائلة وهدأ روعها وشعرت بفضل أسماء عليها واعتزمت ان تسعى في انقاذها من مروان ، فاحتالت في الدخول على الخليفة فاذا هو جالس والقرآن بين يديه يقرأ او يصلي صائما ، ولا يلتفت يمينا ولا يسارا ، فدنت منه بخفة فانتبه لها وقال : «ما الذي جاء بك يا نائلة ؟» قالت : «انما جئت أفتقد امير المؤمنين وأبلغه ان في الدار الحسن والحسين وجميع ابناء الصحابة وقد جاءوا بعدتهم يدفعون الناس عن بابنا» .

فقال وهو لا يزال ينظر في صفحات القرآن : «لا حاجة بي الى من يذب عني ولا أريد ان يهرق من اجلي محجب من الدم» . قال ذلك وعاد

الى القراءة فعجبت نائلة لذلك وأرادت ان تذكر أسماء لديه فلم تر سبيلا الى ذلك ، فعادت الى غرفتها وقضت تلك الليلة لم يغمض جفناها ، وأسماء تعزيها وتشجعها ، ولولا ذلك لماتت قلقا ورعبا فقد كانت تسمع الغوغاء حول الدار عند بابها ولا تجرؤ ان تطل •

أما أسماء فلما علمت بعودة مروان من سفره هرولت الى حجرتها لئلا تراه ، وبات ابناء الصحابة ليلتهم وهم يهددون الواقفين عنـــد الباب ، طورا ، وطورا يتوعدونهم ، وكل اهل الدار في اضطراب وقلق الا عثمان فانه قضى ليلته يقرأ القرآن ويصلي •

وفي الصباح التالي استيقظت أسماء على صوت مروان في غرفتها ، ونائلة جالسة بجانبها ، فجلست واستعاذت بالله • فقـــال لها مروان : «ما الذي خرج بك من هذه الدار ؟» فقالت : «وما شأنك وخروجـــي او دخولي ؟»

قال : «كيف لا وأنت امرأتي ؟!» • فأجفلت أسماء وصاحت: «خسئت يا نذل لا أعرفك ولا أريد ان اعرفك ، دع عنك هذا الهذيان» •

فمد مروان يده الى جيبه وأخرج رقا عليه كتابة ، وقال : «هذا كتاب العقد وعليه خاتم الخليفة» • فنظرت أسماء ونائلة فرأتا الخاتم فبهتتا • ولكن أسماء تبسست ولم تعبأ بتهديده وقالت : «قد عرفناك قبل اليوم تزور الكتب على امير المؤمنين • ان الخليفة بريء مما تعمل وقد اخطأ اذ جعلك كاتبه ، أما كفاك ما ايقظت من الفتنة بتزوير الكتب ، حتى جئت تفتعل كتاب العقد ايضا ، ان هذا البلاء الذي نحن فيه انما هو من تزوير ذلك الكتاب على لسان الخليفة الى والي مصر ، وكان الناس قد عادوا الى بلادهم فأرجعتهم وأعدت الفتنة ، فأرجع هذا الكتاب الى جيبك ، واخرج من هذه الغرفة قبل ان أذيقك الهوان» •

قالت ذلك وهمت به وهي تخرج خنجرها من بين أثوابها ، وكان لا

يفارق جنبها ابدا • فهمت بها نائلة لتجلسها فأفلتت منها وهجمت على مروان تريد قتله ، ففر امامها ، ثم عاد وقد جرد حسامه وهجم عليها ، ولكنه سمع ضجة عظيمة في صحن الدار ، وصوتا ينادي : «مروان ، مروان» • فخرج مسرعا والسيف في يده •

- ٧ -

مقتل عثمان

لم يلبث من في دار عثمان ان رأوا الدخان يتصاعد من جهة بابها ، فحسبوا ان قد شب فيها الحريق فهاجوا وماجوا واشتغل كل بنفسه وصاحت نائلة : «ويلاه ! قد احرقونا» • وهرولت مسرعة الى حجرة زوجها •

وأطلت أسماء من نافذة على باب الدار ، فرأت الناس قد تجمهروا وعددهم يزيد على الف وجعلوا يرمون الدار بالنبال حتى أصيب كثيرون• ثم رأت بعضهم قد اقتحموا الدار عنوة ، وأبناء الصحابة وفيهم الحسن والحسين يدفعونهم ، ورأت آخرين قد اوقعوا النار في السقيفة فوق الباب ليحرقوها ويحرقوا الباب معا • وسمعت جموعهم يصيحون : «ادفعوا الينا مروان فنقتله وكفى» • فاضطربت أسماء وفتحت النافذة وخنجرها لا يزال في يدها ، وسارت الى غرفة عثمان لعلها تقنعه بتسليم مروان فينجو هو ، فرأت الدار ملأى بالناس وقد دخل بعضهم من ناحية دار بني حزم ، ورأت مروان وبيده السيف يريد ان يدفعهم فهجم عليه احدهم وضربه بالسيف على عنقه فدار دورة ووقع • فصاحت أسماء : «بورك فيك يا من قتلته فانه أصل الشر كله» • ولكن الضربة لم تكن

قاضية فقطعت احد علياويه فعاش مروان بعد ذلك ، بينما حسبته أسماء قد مات وسارت وسط الجماهير الى حجرة الخليفة فرأته جالسا والقرآن بين يديه وعنده نائلة واقفة والدموع ملء عينيها .

ولم تكد تقف حتى دخل الحسن والحسين وأولاد الصحابة وفي أيديهم السيوف مسلولة ، ورأت ثياب الحسن مصبوغة بالدم ، وكان عثمان لما سمع بدفاعهم عند باب داره خاف عليهم فبعث يستقدمهم اليه ليردعهم عن ذلك قائلا : «اغمدوا السيوف وارجعوا ، فان الله قد عهد الي وأنا صابر عليه ، وقد علمت ان الناس قد احرقوا السقيفة فلم يحرقوها الا وهم يطلبون ما هو اعظم» . ثم وجه خطابه الى الحسن فقال له : «ارجع يا بني ، ان أباك الان في هم عظيم من امرك» . فلم يصغ الحسن وأبناء الصحابة لقوله ، وعادوا يدفعون الناس ، وظل هو على مقعده يقرأ ولا يبالي الغوغاء وعنده زوجته نائلة .

وكانت أسماء منتبذة مكانا بالقرب منها وقلبها يخفق خوفا عليه ، فما لبثت ان رأت رجلا من قريش دخل عليه وقال له : «اخلعها وندعك» — يعني الخلافة — فقال عثمان : «ويحك والله ما كشفت امرأة في جاهلية ولا اسلام ، ولا تغنيت ولا تمنيت ، ولا وضعت يميني على عورتي منذ بايعت رسول الله (صلعم) . ولست خالعا قميصا كسانيه الله تعالى . حتى يكرم اهل السعادة ويهين اهل الشقاء» . فخرج الرجل . ثم رأت رجلا عرفت بعد ذلك انه عبد الله بن سلام قد وقف في الناس وقال : «يا قوم لا تسلوا سيف الله فيكم فوالله ان سللتموه لا تغمدوه، ويلكم ان سلطانكم اليوم يقوم بالدرة (السوط)فان قتلتموه (اي الخليفة) لا يقوم الا بالسيف . ويلكم ان مدينتكم محفوفة بالملائكة فان قتلتموه لتتركنها» . فصاحوا فيه : «ما انت وهذا يا ابن اليهود» . فسكت .

كل ذلك وأسماء واقفة مضطربة القلب لا تدري ماذا تعمل ، وكانت

قد اطمأنت الى ما اصاب مروان لظنها انه قتـــل ، ثم ما لبثت ان رأت محمدا بن ابي بكر قد دخل مسرعا ووراءه جماعة حتى دنا من عثمان . فأوجست خيفة من قدومه لعلمها بما في نفسه ، ثم سمعت عثمان يقول له : «ويلك ، أعلى الله تغضب ، هل لي اليك جرم الا حقا اخذته منك» . فأمسكه محمد بلحيته وقال : «قد أخزاك الله يا نعثل» ــ وكان نعثل لقبا يلقبون به عثمان ــ فقال عثمان : «لست بنعثل ولكنني عثمان وأمـــير المؤمنين» .

قال محمد : «ما أغنى عنك معاوية وفلان وفلان» .

فقال عثمان : «يا ابن اخي فما كان ابوك ليقبض عليها» ــ أي على لحيته ــ فقال محمد : «لو رآى ابي اعمالك لأنكرها عليك، والذي أريد بك أشد من قبضتي عليها» .

فقال : «أستنصر الله عليك وأستعين به» .

فلما رأت أسماء ما دار بينهما خافت ان يفتك محمد بالخليفة فيحيق به العار . فدنت منه ووقفت بحيث يراها وأشارت اليه ان يكف عما هو فيه وأن يتبعها . فلما رآها محمد ترك لحية عثمان وخرج ليعلم منها ما تريد . فانتحت به جانبا وقالت : «من اين دخلت الدار ؟»

قال : «دخلت من دار بني حزم» . قالت : «وأنت ايضا على عثمان ، انه بريء مما يفترون» . ثم سمعت صياح نائلة ، فأسرعت اليها فاذا هي قد حلت شعرها ونشرته ، وعثمان يقول لها : «خذي خمارك ، فلعمري لدخولهم علي اعظم من حرمة شعرك» .

ثم رأت رجلا ممن دخلوا مع محمد بن ابي بكر هم بعثمان وبيده حديدة ضربه بها على رأسه فسال دمه على المصحف ، وتبعه آخر ليضربه بالسيف فأكبت نائلة عليه والتقت السيف بيدها فقطع اصابعها ، فثارت الحمية في رأس أسماء فاستلت خنجرها تريد قتل الرجل ، فأمسكهـــا

محمد ولم تمض لحظات حتى قتل عثمان ، وفر قاتلوه .

فلما رأته نائلة مجندلا حملت يدها والدم يسيل منها وخرجت تبكي، وتنادي الحسن والحسين فدخلا فرأيا عثمان مذبوحا يتخبط في دمائه. فصاحا : «كيف يقتل عثمان ونحن في داره ، وبماذا نجيب أبانا اذا سألنا في ذلك ؟»

أما أسماء فأجهشت بالبكاء ، وجعلت تنظر يمنة ويسرة لعلها ترى القاتل فتنتقم منه فاذا هو قد فر ، وتهافت الناس على بيت عثمان ينهبون ويسلبون ، وعلت الضوضاء واختلط الحابل بالنابل .

***

أما محمد فهم بأسماء وأخذ بيدها وقال لها : «اتبعيني» . فتبعته حتى خرج بها من الدار وهي تود البقاء لترى ما حال نائلة ، ولكنها أطاعته طوعا لقلبها ، على انها ما لبثت ان جذبت يدها من يده ، وقالت: «الى اين نحن ذاهبان يا محمد ؟»

قال : «هل ترين لك مأربا في دار عثمان بعد ، لقد نصحت لك بأن تخرجي منها منذ ايام فلم تذعني حتى رأيته يقتل امامك ، وهذا ما كنت أخشاه عليك» . قالت : «انكم ظلمتموه يا محمد ، ولو استطعت انقاذه من أيديكم لفعلت . تبا لمروان انه أصل هذا البلاء» . قالت ذلك واغرورقت عيناها بالدموع ، فقال محمد : «دعينا من ذلك ، لقد قتل عثمان ولم يعد بقاؤك في داره مستطاعا والناس قد دخلوها ينهبون . فافصحي الآن ان الوقت ضيق والامر جلل ولا استطيع البقاء معك الا قليلا» .

قالت : «وماذا تريد مني ؟» . فابتسم وقال : «ألا تعلمين ما أريده؟»

قالت : «نفسي تحدثني» . وسكتت حياء فقال : «ارجو ان يكون

قلبك هو الذي يحدثك» .

قالت : «ياوح لي ان مقتل عثمان لا يهمك . اني والله لا استطيع استعادة رؤيته والدم يجري من عنقه» .

فتنهد محمد وقال : «أتظنينني غير آسف لقتله ؟»

قالت : «لا أظنك آسفا وأنت البادىء بالقتل . ووالله لو لم يسبق الى قلبي سابق ما استطعت النظر اليك» .

قال : «اراك تؤنبينني وما هذا وقته ، ولو أطلعتك على أصل هذه الفتنة لطال بنا المقام ونحن في حال تدعو الى المبادرة فلنجاوزها الان . فاني مسرع الى علي لاني أتوقع شقاقا عظيما يقع بين الصحابة ولا بد لي من غشيان مجلسهم . وأما انت فلا ارى ان تقيمي هنا والحال فـــي اضطراب » .

قالت : «سأصبر حتى أسمع عذرك في قتل خليفة الرسول ، فان لم أقتنع» . وأطرقت حياء مما كاد لسانها ان ينطق به .

فأعجب بصراحتها وسلامة مبدئها ، وازداد شغفا بها وقال : «اني واثق بتبرئتي نفسي من تبعة القتل ، فاصبري حتى نجتمع على سكينة واذهبي الان الى مأمن» .

قالت : «الى اين أذهب وأمتعتي وجوادي في دار عثمان ؟»

قال : «لك على احضارها ، أما وجهتك فلا أدلك عليها قبل ان أعلم مرادك » .

قالت : «وما مرادك انت ؟» . قال : «اني صريع حبك فهل تأذنين؟»

فاحمر وجهها خجلا وأرخت النقاب على وجهها ولم تجب .

قال : «زيديني بهذا الخجل غراما بك .. قـــد عزمت يا أسماء ان أريحك وأنجيك من ابيك .. او الذي يدعي انه ابوك .. وقد تركك منذ ايام ولا أظنك تعلمين مقره . وأما مروان فلا فضل لي في انقاذك

منه وقد نال نصيبه» •

فلم يكد يذكر اسم مروان حتى تنهدت وقالت : «قبح الله مروان انه سبب هذا البلاء ، وقد كنت أود قتله بيدي لأشفي غليلي منه» •

قال : «لا أظنه قتل وقد تركته في الدار يعصب عنقه على اثر جرح اصابه ، دعينا منه ومن اسمه ، أما ابوك الشيخ الغر فلا أظنه يجرؤ على الظهور بعد مقتل عثمان ، وأرجو منك ألا تدعيه أباك بعد الان فانه بعيد عن هذا بعد الارض عن السماء • وها أنذا ذاهب الى بيت علي ، وأظنه سيلي الخلافة لانه أحق بها وأولى ، وانما دونها شقاق عظيم ، فلا آمن من شر يصيبك اذا كنت في منزله فأرى ان أذهب بك الى مأمن تبقين به حتى تهدأ الاحوال فنعيش معا باذن الله • ألا ترين ذلك ؟»

فأطرقت أسماء وقد هاجت اشجانها وتذكرت أباها غير آسفة لفراقه ولكنها أسفت لفراقها نائلة وهي على حزنها واضطرابها وزوجها ملقـى قتيلا • على ان اتقاد الحب في قلبها انساها كل شيء الا محمدا ، وكانت أحبته من اول نظرة عندما ذكرت أمها اسمه ، وأصبحت بعدما علمت منزلته من علي ، وانه ابن اول الخلفاء ، شديدة الميل اليه • فظلت صامتة تهم بالكلام ويمنعها الحياء وقد تخلت عنها جرأتها ، وانفثأت تلك الحمية التي كانت موضع اعجاب الرجال ، وأحست بخفقان قلبها وهياج عواطفها فأبرقت أسرتها وتلألأت عيناها ، كأن لسان حالها يقول : (ان الله يتمني ولكنه نظر الي فحببني الى خير ابناء الصحابة) •

وشعر محمد انها تكتم حبه فلم يزد • وقال لها : «ما رأيك في أن أذهب بك الان الى احدى ذوات قرباي في بعض أطراف المدينة ، تقيمين عندها حتى تنقضي الازمة التي نحن فيها ويبايع علي بالخلافة فيرجع الامر الينا ، فنقيم في رغد وهناء باذن الله » • قال ذلك ومشى ، ومشت في اثره حتى انتهى الى منزل في طرف المدينة ، واذا بامرأة عجوز لم تكد

ترى محمدا حتى همت به وقبلته مرحبة •

فقال لها : «جئتك بأعز شيء لدي فاحتفظي بها» • ثم التفت الى اسماء وقال : «امكثي هنا يا آسماء ريثما اعود ، ولا تضجري اذا طال غيابي» •

فقالت : «لا تنذرني بطول الغياب فقد لا استطيع صبرا على البقاء» •

قالت العجوز : «لعلك خشيت الاقامة بيننا ، والله لأقومن على خدمتك اكثر من خدمتي ابني هذا» • وأشارت الى محمد • وأخذتها بيدها ودخلت بها فودعهما محمد ومضى •

★ ★ ★

أحست أسماء بالوحشة فدخلت غرفة تخلو بها الى نفسها ، ولم تكد تفعل حتى تمثل لها عثمان مطروحا ارضا ، ونائلة واقفة فوق رأسه وقد حلت شعرها وأخذت تلطم خديها وتندب • وسرى الحزن في جوانبها واقشعر بدنها وندمت على تركها نائلة على تلك الحال •

فقضت يومها وحيدة كئيبة ، ولما امسى المساء قصدت الى الفراش تلتمس النوم فلم يغمض لها جفن ، ولم تغب صورة عثمان وداره عن عينيها • فباتت ليلتها تتقلب على مثل الجمر ، تفكر تارة في محمد ، واخرى في يزيد . وهي لا تعرف مقره ، وآونة في عثمان ونائلة • حتى مضى هزيع من الليل فغلبها النعاس فنامت ، وأصبحت في اليوم التالي وضميرها يبكتها على هجرها صديقتها نائلة في ساعة الضيق ، وحدثتها نفسها ان تذهب اليها . وخافت ان يجيء محمد في اثناء غيابها فيغضب وانقضى النهار ولم يأت محمد فاضطربت ، على انها التمست الفراش مبكرة عسى ان تنام فتنسى ما هي فيه ، فطال ليلها ولم تنم الا في فترات حتى بدأ الفجر فأغمضت فرأت طيف نائلة في حالة يرثى لها وقد احمرت عيناها من البكاء وقطعت شعرها في الندب ، فلما صحت

وتذكرت الرؤيا غلبها الخجل على أمرها ، وشعرت ان خيال نائلة يؤنبها على خروجها على تلك الحال ، فأفاقت مذعورة وقد بلل الدمع وسادتها، ونظرت الى السماء فرأت الشمس قد طلعت ، فهمت بالمسير الى دار عثمان تفتقد نائلة ، ثم تذكرت ان محمدا اوصى العجوز بالاحتفاظ بها، فخافت ان تمنعها فقضت نهارها قلقة مضطربة ، تتردد بين الذهاب والبقاء حتى امسى المساء وذهبت الى فراشها ، فجعلت تتقلب كأنها توسدت شوكا فانقضى نصف الليل وهي في أرقها وقلقها ، حتى اشتد بها الامر ولم تعد تستطيع صبرا ، فنهضت وارتدت ردائها وتقلدت خنجرها وانطلقت تطلب دار عثمان على عجل . وكان الوقت صيفا فجعلت طريقها في أطراف المدينة لئلا يراها احد وأرخت نقابها على وجهها.

وما كادت تسير بضع خطوات حتى رأت أشباحا تفرست فيهم فعرفت من قيافتهم انهم من بني أمية يهرعون بين راكب وراجل فرارا من المدينة كأنهم يطاردون ، فسارت في حذاء الجدران مخافة ان يكون مروان فيهم فيعرفها حتى مروا . وطال بها المسير ولم تصل الى دار عثمان لانها كانت تجهل الطرق فأرادت الرجوع الى منزل العجوز فضلت الطريق اليها . وكان الفجر قد دنا فخيل اليها انها اذا اشرفت على المدينة من مرتفع هناك تمكنت من تعيين محل الجامع فاذا عرفته عرفت منزل عثمان فتحولت الى سور المدينة في مكان خارج البقيع وهناك ارض مهجورة قل من يمر بها. ولم تكد تدرك المكان حتى رأت بضعة عشر رجلا مهرولين من بعيد ، وفيهم أناس يحملون لوحا عليه شيء . فحسبتهم من الهاربين يحملون أمتعتهم وانهم انما طلبوا الطريق البعيد خوفا من العيون . فتنحت الى زقاق ضيق واستترت بنخلة بحيث ترى المارة ولا يرونها . فلما دنوا منها عرفت منهم اناسا منهم مروان وعبد الله بن الزبير وكانت قد رأته فيمن جاء للدفاع عن عثمان من ابناء الصحابة ، فلما رأت مروان بالغت في الانزواء،

وتفرست فيما يحملونه فاذا هو جثة مطروحة على باب وجمجمتها عارية تقرع الباب لاسراعهم في المسير من شدة الخوف ورأت على الجمجمة لحية كبيرة غضة مضفرة عرفتها انها لحية عثمان • ونظرت الى الثياب فاذا هي ثيابه ولا يزال الدم عليها ، فلم تشك ان الجثة جثته • فخفق قلبها وارتعدت فرائصها لما لحق بهذا الخليفة العظيم بعد موته ، وأدركت انهم خرجوا به ليلا ليدفنوه • ولبثت مستترة وراء النخلة تنظر الى تلك الجنازة المحزنة ، فلما وصلوا الى حائط هناك يقال له «حش كوكب» حفروا له حفرة دفنوه فيها وهم يتلفتون يمينا وشمالا جزعا •

فصبرت حتى انتهوا وتفرقوا فصعدت الى مرتفع أطلت منه على المدينة فأشرفت على جامعها ، فاذا هو بعيد عنها كثيرا فجعلته وجهتها ونزلت تخترق الاسواق فلم تجد فيها الا نفرا قليلا ، فخافت ان يلاقيها محمد وهي على تلك الحال ، وما زالت حتى وصلت الى منزل عثمان والشمس تملأ الفضاء ، فرأته موصدا ، فالتمست باب بني حزم فرأته مغلقا ايضا ، فتسمعت فلم تسمع صوتا ، فوقفت برهة ثم همت بالباب فقرعته فلم يجبها احد ، فأعادت القرع فأطل رجل من كوة عرفت انه من خدم عثمان فلما رأته اومأت اليه ان يفتح • فلما عرفها فتح لها فدخلت وسألته عن نائلة ، فأشار اليها ألا تتكلم وسار أمامها ، فتبعته فدخل بها حجرة رأت فيها نسوة أحطن بنائلة وهي ما زالت محلولة الشعر كما رأتها في منامها بالامس •

★ ★ ★

فلما وقع نظر نائلة عليها صاحت قائلة : «ما الذي جاء بك يا أسماء يا حبيبتي ؟ هل اتيت لتري امير المؤمنين ! لقد فاتك ما لاقاه من اكرام المسلمين له بعد موته» • قالت ذلك وأجهشت في البكاء •

أما أسماء فألقت نفسها على نائلة تبكي وتشهق وتقول : « ان

خسارتك خسارة المسلمين كافة ، فقد فسد امرهم بعد عثمان لانهم سفكوا دما بريئا بجوار قبر الرسول» •

فنطست نائلة خديها بكفيها ، فرأت أسماء احدى يديها معصوبـــة فتذكرت انها اليد التي أصيبت بالسيف فقطعت اناملها • وقالت نائلة : «يا ضيعة تعبك يا أسماء ، ويا خيبة مسعاك • لقد خدعونا والله وغدروا بنا فأرسلوا ابناءهم يذبون عنه وبعثوا يقتلونه مع آخرين • ألم تـري ابن ابي بكر يقبض على لحيته ؟»

فلما سمعت اسم محمد حزنت على فعله ، ولم تجد ما تدافع به عنه فسكتت وهي تفكر في عبارة تعزيها بها فلم يفتح عليهـــا • فقالت : «اصبري ان الله مع الصابرين • فقد كنت بالامس تعزينني وتواسينني، وأنت اليوم أولى بالمواساة وبالعزاء» •

فصاحت نائلة : «أواه يا أسماء ، كيف اصبر وقد قتلوا عثمان شر قتلة • لقد طعنوه في صدره ثلاث طعنات ، وضربوه على مقدم الجبين ضربة اسرعت في العظم • والله لكأني أسمع صوته يرن في أذني وهو يقرأ القرآن ولا يبالي ما يفعلون ، وأحسبك رأيتني وقد سقطت عليه أتقي عنه وهم يهمون به يريدون قطع رأسه حتى اتت هذه الفتاة بنت شيبـة (وأشارت الى فتاة بجانبها) فألقت بنفسها عليه دفاعا عن امير المؤمنين»•

ثم تنهدت تنهدا عميقا وقالت : «ولم يكتفوا بقتله في بيته وعلـى فراشه ولكنهم منعوا الناس ان يصلوا عليه وقالوا : (لا يدفن في مدافن المسلمين) • كأنه كفر او كان من المشركين • جزاهم الله بما فعلوا • فظل في بيتنا ثلاثة ايام وجثته ملقاة بين أيدينا ونحن نبكيه ونبكـــي الاسلام من بعده ، ولو لم نلق اخوانا من اهل المروءة يحملونه خلسة في الليل لظل غير مدفون • وكم احزنني ما اصاب الذين قتلوا معه فقـــد جروهم بأرجلهم ولعلهم ألقوهم على التلال لتأكلهم الكلاب • ولا ادري

اذا كان ابوك المسكين قد اصابه مثل مصابهم» •

فلما سمعت أسماء ذكر ابيها ارتجفت وامتقع لونها وصاحت : «وماذا اصاب ابي ؟»

قالت : «ألم تعلمي ما اصابه وقد كنت معنا في الدار ؟»

قالت : «لا •• ماذا اصابه ؟»

قالت : «بلغت انه قتل مع الخليفة في بعض جوانب الدار» •

فلطمت أسماء وجهها وصاحت : «ويلاه يا أبتاه» • وأوغلت في البكاء مذعورة وصاحت : «وأين هو الان • أروني اين هو ؟»

ولم تكن نائلة تتوقع من أسماء حزنا شديدا على ابيها لما تعلمه من حديثها عنه •

أما أسماء فبكت وناحت والنساء يخففن عنها ويقلن : «اصبري فان له اسوة بأمير المؤمنين وسوف يلقيان ربهما معا والله ينتقم من القوم الظالمين • وسوف يثأر له بنو أمية جميعا • انهم لم يدركوه حيا ليدفعوا عنه القتل ، ولكنهم سوف يسرعون الى الثأر اذا رأوا قميصه الملوث بالدم وأصابعي المبتورة • فقد ارسلت القميص والاصابع الى معاوية في الشام ، وأصبح الامر لبني أمية وهم سواد قريش • ولقد ظن بنو هاشم انهم اذا قتلوا عثمان ضعف شأن بني أمية ، ووالله انهم اكثر رجالا وأوفر عدة وأصعب مراسا . وسوف يلقى بنو هاشم عاقبة ما جنته أيديهم» •

فلما سمعت تهديد نائلة وحكاية قميص عثمان وأناملها وما ذكرته من تفضيل بني أمية على بني هاشم علمت انها ارسلت الاصابع والقميص استحثاثا لبني أمية على الثأر لدم عثمان ، وتحققت انها تضمر السوء لعلي، فلم تسكت عن الدفاع عنه وقالت : «لقد كان بنو هاشم اكثر الناس دفاعا عنه فان عليا ارسل الحسن والحسين لرد الناس عن بابه ، ولو أذن لهما امير المؤمنين لجاهدا في الذب عنه الى آخر نسمة من حياتهما •

أمثل هؤلاء يطالبون بدم عثمان أم يقال انهم دافعوا عنه جاهدين ؟»

قالت : «دعك من هذا . فوالله لو ارادوا دفاعا لما مات عثمان ، انما اخذوا الامر بالتريث والمداورة وأظهروا العجز وساء ما يضمرون . ولا يغرنك ارسالهم اولادهم» . قالت ذلك وحرقت اسنانها وسكتت فعذرتها أسماء لما رأت من هياج عواطفها على مقتل زوجها ولم تجبها ، ولكنها عادت الى السؤال عن ابيها فقالت لها احدى النساء : «لا تتعبي يا أسماء ان أباك قتل مع الذين قتلوا مع عثمان وهم اثنان هو ثالثهم . وقد حملوا جثثهم خلسة الى حيث لا ندري . فتعزي وتأسي بمقتل امير المؤمنين خليفة رسول الله» .

وظلت أسماء تبكي مع الباكين حتى هدأ روعها وذكرت ان وفاة ابيها خير لها في مستقبل حياتها فنظرت الى نائلة وقالت : «وما الذي اعتزمته الان ؟»

قالت : «لقد عزمت على الرحيل من هنا الى حيث لا ارى هاشميا ولا أسمع بهاشمي ، ولكنني لا استطيع الخروج الا خلسة وما مقامنا هنا الا خفية . ولو عرف هؤلاء الظالمون مقامي لأدركوني وقتلوني ولكن بني حزم اهل جوار فقد خبأوني جزاهم الله خيرا» .

ثم تذكرت أسماء انها تركت بيت العجوز على غرة ، فخافت ان تقلق عليها اذا افتقدتها ولم ترها ولاسيما اذا عاد محمد ولم يجدها ، وزد على ذلك انها خافت ان يجيء مروان في حين انها لا تريد ان ترى وجهه . فنهضت واستأذنت محتجة بالذهاب الى بعض ذوي قرابتها في أطراف المدينة .

فقالت نائلة : «لو كان لي بيت لدعوتك اليه يا ابنتي ، ولكنني اصبحت غريبة بين اهلي أتوقع الشر في كل لحظة . فاذهبي حرسك الله ووقاك ، واذا منّ الله علينا باللقاء فعسى ان آكافئك على صنيعك» .

قالت ذلك وضمتها الى صدرها وودعتها وهي تبكي ، وبكت أسماء ايضا وقد انفطر قلبها لما سمعته من كلام نائلة ، وشق عليها ان تراها هكذا وقد كانت بالامس زوجة امير المؤمنين وصاحبة الامر والنهي •

***

خرجت أسماء تلتمس بيت العجوز وهي تحسب انها تعرفه ، لكنها تاهت لان البيت صغير لا يرى عن بعد ، ووصلت اليه بعد لأي وقد مالت الشمس الى المغيب فوجدت الباب مغلقا فقرعته مرارا فلم يجبها احد •

فوقفت نفكر فيما تفعله فلم تر خيرا من الذهاب الى بيت علي تفتقد محمدا فاذا لم تجده باتت تلك الليلة هناك فقد طالما دعاها للاقامة عنده ، ولكنها خشيت ان هي سارت بلباس النساء ان تكون هدفا للناس في الطريق او في فناء الدار لان بيت علي كان يعج بالغادين والرائحين • فأخفت نفسها وكانت ممنطقة (بكوفية) فحلتها ولفت بها رأسها كما يفعل الرجال في أسفارهم ، وتزملت بعباءة كانت قد خرجت بها بالامس ، وسارت صوب بيت علي فلم تبلغه الا عند العشاء • فرأت نفرا قليلين في فناء الدار وكانت تتوقع ان ترى ازدحاما ، ثم علمت ان اهل البصرة والكوفة والمصريين الذين كانت تزدحم بهم المدينة قبل مقتل عثمان ذهبوا الى مضاربهم خارج المدينة للمبيت • فسألت عن علي فقيل لها انه في خلوة مع بعض الامراء لا يدخل عليه احد ، فوقفت تنظر في الامر فحدثتها نفسها ان تدخل المنزل فتبيت عند بعض نساء علي ولكنها هابت الدخول عليهن وهي لا تعرفهن من قبل •

وبينما هي في ذلك رأت محمدا بن ابي بكر خارجا من الدار فتبعته فلما رأى عباءتها ومشيتها عرفها فدنا منها وتفرس فيها فقالت : «محمد ؟» • قال : «أسماء ؟» • قالت : «نعم اين انت ؟»

قال : «لقد قلقت لغيابك اين كنت ؟»

قالت : «خرجت لحاجة سأقص عليك امرها الان» وأين هي عجوزك؟»

قال : «اتتني في الصباح وهي قلقة لغيابك ، وقد قضينا نهارنا كله في البحث عنك ، فشغلنا به عما نحن فيه من عظائم الامور . تعالي معي أدخلك الى أمي» .

قالت : «هل تقيم أمك في منزل علي ؟»

قال : «نعم وهي زوجته بعد ابي ، واسمها مثل اسمك ، بورك في هذا الاسم» .

فسرت أسماء لمعرفة أمه ورأت بابا للفرج بالاقامة عندها فقالت : «وهل تزوجها علي من زمان طويل ؟»

قال : «تزوجها بعد موت ابي ، وكنت انا طفلا فربيت في حجره فأنا أعده بمنزلة الاب وهو يحبني كأحد اولاده» .

قالت : «لقد آنست فيه هذا البر فرحم الله والدا ولدك ، وعاش والد رباك» . قالت ذلك وقد ابرقت أسرتها اعجابا ولكنها اظهرت فتورا في كلامها لم يعهده فيها ، فشعر هو بذلك فقال : «اراك قد تغيرت يا أسماء بعد خروجك اليوم من بيت العجوز» .

قالت : «بل انا باقية على ما تعلم ، ولقد كنت سألتني عن سبب خروجي منه» .

قال : «نعم والى اين كان ذهابك ؟»

قالت : «خرجت الى تلك المسكينة التي قتلتم زوجها وتركتموها حزينة وحيدة عسى ان استطيع تعزيتها مثلما عزتني في ايام محنتي» .

قال : «هل ذهبت الى نائلة ؟»

قالت : «نعم سرت اليها ورأيت دفن قتيلكم رحمه الله . فقد حملوه على باب وساروا به خلسة ليدفنوه خارج المدينة ، وسمعت طعنا فيك

ساءني سماعه ، كما ساءني ألا استطيع دفعه ، فاني رأيتك داخلا متعمدا قتل الخليفة» • قالت ذلك وفي رنة صوتها ما لا يصدر الا عن سلطة الدالة وسلطان الدلال •

فأدرك محمد ان اعتقادها هذا سيكون صفحة سوداء في كتاب حبها فساءه ذلك ، ولكنه أعجب بأنفتها وصدق ادبها وأحب ان يبرىء نفسه في عينيها فقال وهو يبتسم تأكيدا لبراءة ساحته : «لقد قلت لك يا أسماء ان الرجل لم يقتل ظلما ، على اني لو كنت انا القاتل فلست بنادم ، وسأبرر الامر لديك عما قليل ، أما الان فهيا بنا أدخلك على أمي وهي تتولى تقديمك الى علي» •

★ ★ ★

ولم يكد يدنو من الباب حتى سمع وقع أقدام في الدار ثم رأى الحسن بن علي يمر به ويسلم • فأجابه محمد : «وعليك السلام يا ابن امير المؤمنين» • فقال الحسن : «اراك تبشرني بخلافة انا خائف منها» •

قال : «لا تخف يا ابن بنت الرسول ، انكم أولى الناس بها» •

وكان الحسن يكلم محمدا وينظر الى أسماء ليعرف المتلثم فابتدره محمد قائلا : «ان صاحبي أموي جاء للمبيت عندكم فهل تقبلونه ؟»

قال : «أهلا به أيا كان فليدخل» • قال ذلك ودخل ، فدخلا في اثره وأسماء لا تزال ملثمة والحسن ينظر اليها ويتوقع حسر اللثام • ولما وقع نظره عليها تذكر انه رآها في منزل عثمان يوم الدار • فوقعت من نفسه موقعا حسنا وأعجب بها • فقال : «اهلا بك يا أخية» •

أما أسماء فتهيبت الموقف ونظرت الى الحسن فاذا هي امام شاب ابيض اللون مشرب بالحمرة ادعج العينين سهل الخدين كث اللحية ربع القامة جعد الشعر ، لم يتجاوز الرابعة والثلاثين من عمره ، وكان اشبه

الناس بالنبي ، وغلب عليها الحياء فأطرقت وقالت : «بورك في بيت شرفه الله» . فقال محمد للحسن : «وأزيدك معرفة بها ، فهذه أسماء بنت يزيد التي جاءت منذ بضعة اسابيع تدعو مولاي أبا الحسن الى أمها على فراش الموت لتطلعه على سر ، فقضت رحمها الله قبل وصوله وذهب السر معها الى القبر».

قال الحسن وهو ينظر الى أسماء : «ان ابي لا يزال يذكر ذلـــك ويأسف لضياع السر ويعجب بما آنسه في هذهالفتاة من الهمة والانفة».
قال ذلك وسار أمامهما فمشيا في اثره وقد اتقدت نار الحب والغيرة في قلب محمد وكأنه ندم على مجيئه بها فسأل الحسن : «اين نحن ذاهبون؟»

قال الحسن : «الى خالتي امامة أعرفها بأسماء فتبيت عندها الليلة».
فلم يرق الامر لمحمد لان الحجاب يمنعه من الدخول معهما الى امامة ، فبقي خارجا على مثل الجمر، ودخل الحسن الى حجرة امامة بلا استئذان. وكانت جالسة وحدها وقد لبست ثوبا بسيطا وفي عنقها قلادة من جزع كانت شديدة الاحتفاظ بها . فلما رأت الحسن داخلا ارادت ان تسأله عن امر الناس والخلافة فاذا هي بأسماء تتبعه فلما رأتها أعجبت بطلعتها، فدنت أسماء تهم بتقبيل يدها فمنعتها وقبلتها فابتدرهـــا الحسن قائلا : «هذه يا خالة أسماء . وأظنك تذكرين حديث ابي عن أمها وعن سرها ، الذي مات معها» .

ثم التفت الى أسماء وقال : «انك بين يدي امامة زوج ابي . بنت زينب بنت الرسول ، وكان جدي يحبها كثيرا وانظري الى هذه القلادة في عنقها فقد اهداها اليها رسول الله وكانت أحب اهله اليه» .

فازدادت أسماء اجلالا لامامة وظلت واقفة حتى دعتها الى الجلوس فجلست على وسادة بالقرب منها . فقال الحسن : «اني أوصيـــــك بضيفتك ، ولاسيما وقد علمت مكانتها عند ابي» . قال ذلك وخـــرج

فرأى محمدا في انتظاره على مثل الجمر ، فقال له : «كيف عرفت هذه الفتاة يا محمد ؟» . قال : «عرفتها يوم جاءت تدعو مولاي أبا الحسن الى أمها ، وقد صحبتها الى قباء وهي في زي الرجال ثم رأيتها مرة في دار عثمان ، ورأيتها اليوم جاءت تبحث عن منزلكم فانها غريبة ، وكان ابوك قد دعاها الى الاقامة عندكم تعزية لها على حزنها ويتمها» .

فقال الحسن : «انها والله ذات جمال ووقار ، وليتها تبقى عندنا» .

- ٨ -

مبايعة علي بالخلافة

أدرك محمد مدى اعجاب الحسن بأسماء ، فاتقدت نار الغيرة في صدره ، ولكنها غيرة لم يشبها بغض لما يكنه للحسن وآل بيته من الحب ، فانتقل بالحديث الى سؤال الحسن عن ابيه ، فقال الحسن : «تركته في مجلسه وقد اجتمع الامراء حوله يريدون مبايعته ، وهو يقول لهم : «لا حاجة لي في امركم فمن اخترتموه رضيت به» . وهم يلحون عليه في القبول ويقولون : «لا نعرف احدا أحق بها منك ، ولا أقدم سابقة ولا أقرب قرابة من رسول الله ..»

فقال محمد : «اني لأعجب من رفضه امرا هو أولى به من سواه . (لا تفعلوا فلأن اكون وزيرا خيرا من ان أكون اميرا) . وهم يقولون : (ما نحن فاعلون حتى نبايعك) ..»

فقال محمد : «وهل قبل ؟» . قال : «لا ، وقد تركته يقول لهم : ويجب والله ألا يليها غيره» .

فقال الحسن : «واني أشد تعجبا منك» . قال محمد : «وماذا فعل

طلحة والزبير ، فاني أخالهما غير راضيين ، لان كلا منهما يريد الخلافة لنفسه ؟»

فابتسم الحسن وقال : «سيبايعان كارهين ان شاء الله ، على انهما يتظاهران بالقبول ، وسنرى ما يكون منهما في الغد فقد ذهب اليهما بعض الناس يدعونهما الى المبايعة» .

وافترقا بعد هنيهة ، فسار محمد الى فراشه وقد أهمه امر أسماء مثل ما أهمه امر الخلافة ، لعلمه ان الحسن اذا وسط أباه في تزويجها به ، فسينالها لا محالة ، فلم يبق لديه الا ان يسعى في ابعادها عنه ، وقضى ليلته يفكر في وسيلة ليخرج بأسماء من بيت علي حتى يخلو بها فيقنعها ببراءته من دم عثمان ، ثم يتزوجها قبل ان يبدو من الحسن ما يشعر برغبته فيها ، فبكر في الصباح التالي وجاء الى حجرة الحسن فلم يجده، وقيل له : «انه ذهب الى حجرة امامة ، فعلم انه سيقابل أسماء هناك ، وسارع الى ارسال من يستقدمه ، فجاء الحسن مشرق الوجه ، بادي الابتهاج ، فانقبضت نفس محمد ، وكادت الغيرة ان تبين في وجهه ولكنه تجلد وحياه وقال : «كيف اصبحت فتاتنا اليوم ؟»

فقال الحسن : «هي في خير ولكنني اراها منقبضة النفس» .

فسرى عن محمد اذ رأى في ذلك دليلا على بقائها على عهده . وقال : «أظنها حزينة على ابيها فانه قتل في دار عثمان ، وأرى ان نخرج بها لتحضر مجلس ابيك وحديث القوم في أمر البيعة لعلها تشغل بما تراه هناك عن أحزانها» .

قال : «وكيف تجالس الرجال ؟» . قال : «ارى أن تذهب متنكرة».

وكان الحسن أشد ميلا من محمد الى اصطحابها ، ولا يدري ما يخالج قلب محمد فقال : «لقد رأيت صوابا» . وذهب لاستقدامها ، وما لبث ان عاد وهي معه وقد تنكرت . فلما رآها محمد حياها وهو ينظر

الى وجهها نظرة لا يفقهها الا من عانى الحب والغيرة ، ولبث ينظر الى ما يبدو منها ، فأبرقت أسرتها حالما وقع نظرها عليه فسري عنه وقال لها : «أظنك تودين حضور مجلس مولاي ابي الحسن ؟»

قالت : «كيف لا ، وأنت تعلم ما يجول في خاطري !» . فأدرك محمد انها تشير الى حبها ، فوثق من انها باقية على عهده ؛ فقال : «اذا فرغنا من هذا المجلس سلمت لك جوادك ومتاعك الذي كان لك في منـــزل عثمان . وقد وعدتك أن أحتفظ به» .

فأثنت عليه ، وأشارت بعينيها اشارة فهم محمدا منها مرادها والحسن لا يشعر .

ثم قال الحسن : «هلم ندخل الى ابي قبل حضور الناس عنده» . فدخل هو اولا ، ثم دخلت هي ومحمد .

★ ★ ★

وعندما دخلت أسماء وهي في لباس الرجال حسرت بعض اللثـــام وهمت بتقبيل يد علي ، وكان جالسا فوق وسادة وعليه ازار وطـــاق وعمامة خز ، وقد ازدادت هيبته ، وأرسل عمامته الى الوراء حتى ظهرت صلعته ، ثم اخذ يمشط لحيته بأصابعه وعيناه الدعجاوان تتلألآن فـــي وجهه والذكاء ينبعث منهما . فلما رأى أسماء مقبلة ابتسم وحياها وسألها عن حالها ؛ فقالت : «اني بفضل مولاي في خير وعافية» .

قال : «ان كلامك يا بنية ما زال يرن في أذني مذ جئتنا قبل مقتـــل عثمان رحمه الله ، فقد قلت : (ان في مقتل الخليفة ايقاظـــا للفتنة) . وأراها استيقظت وانك كنت على صواب» .

قالت : «ان الفتنة لتستحيي من ابن عم رسول الله فتعود الى نومها اذا هو قبض على زمام الخلافة» .

فأعجبه أسلوبها وحدة ذهنها ، ودعاها الى الجلوس وهو يقول :
«اراك خلعت زي النساء ولبست زي الرجال يا أسماء» .

قالت : «لقد ارتديت هذا اللباس لأستطيع ان ألقى رجل هذه الامة».

ولم تكد أسماء تجلس حتى جاء فتى يستأذن عليا في دخول بعض الصحابة فأذن ، ودخل عليه جماعة من المهاجرين والانصار فيهم طلحة والزبير ، وكانت أسماء تعرفهما من قبل . فجلسوا حتى غصت القاعة بهم ، وتصدر طلحة والزبير القوم وعلا وجهيهما انقباض كأنهما يخفيان امرا ، فأدركت أسماء انهما جاءا مكرهين ، وما لبثوا حتى نهض واحد من اهل المدينة وخاطب عليا قائلا : «لقد جئنا الى علي بن ابي طالب نطلب منه امرا ونرجو ألا يردنا فيه خائبين» .

فقال علي : «وماذا تريدون ؟»

قالوا : «جئنا نبايعك على الخلافة لاننا لا نرى احدا أحق بها منك».

قال وهو ينظر اليهم جملة : «ما زلت ارجو اعفائي من هذا الامر ، فاني اراه طريقا وعرا» .

قال قائل منهم : «ومن ترى أقدم منك سابقة وأقرب قرابة من رسول الله وقد صرح بأنه (لا يحبك الا مؤمن ولا يبغضك الا منافق)» .

قال : «كلكم لها أكفاء ، وسأبايع بها من تبايعون» .

قالوا : «لا نرى غيرك أحق بها وقد قال رسول الله : (علي مني وأنا من علي ، وهو ولي كل مؤمن بعدي) ..»

قال : «قلت لكم دعوني واطلبوا غيري فانا مستقبلون امرا له وجوه وله ألوان لا تقوم به القلوب ولا تثبت عليه العقول» .

فوقفوا وقد نفد صبرهم وقالوا : «نناشدك الله ، ألا ترى ما نحن فيه . ألا ترى الاسلام ألا ترى الفتنة . ألا تخاف الله ؟»

فلما سمع علي تأنيبهم سكت وقد ضاق بهم ذرعا وعظم عليه الامـر

فأطرق يتململ • ثم نظر اليهم فاذا هم سكوت ينتظرون جوابه فقال لهم: «قد اجبتكم» •

ولم يكد ينطق بها حتى ضج الناس استحسانا وتهللت وجوههم فرحا الا طلحة والزبير فانهما ظلا صامتين •

فلما رأى علي حسن لقائهم برغم سكوت طلحة والزبير نهض فنهض الناس وهم ينظرون اليه ليروا ما يقول فاذا هو يضطرب كأنه تنبأ بما يتوقعه من جلائل الامور ، ثم اشار اليهم وقال : «اعلموا اني اذا اجبتكم ركبت بكم ما أعلم ، فانما انا كأحدكم الا اني أسمعكم وأطوعكم لمن وليتموه » •

فقالوا : «كلنا أطوع لك من بنانك ، ومن ذا الذي لا يطيع ابن عم رسول الله ، وأخاه ، ووصيه ، ونصيره ، وربيبه وحبيبه وخليفته ، والذي قال فيه : (من كنت مولاه فعلي مولاه ، اللهم وال من والاه ، وعاد من عاداه) • وقال : (علي مني بمنزلة هرون من موسى) • فكيف نبايع سواك ؟ »

فقال : «اذا كنتم لا ترون بدا من المبايعة فلتكن في المسجد» •

قالوا : «هلم بنا الى المسجد». •

★ ★ ★

فنهضوا ونهض علي بن ابي طالب ومشى وهو يتكفأ ، وبيده قوس يتوكأ عليها ، حتى أقبل على المسجد والناس بين يديه • وكان محمد وحسن وأسماء بالقرب منه • فلما دخلوا المسجد قرأ علي الفاتحة وصلى، ثم وقف ووقف الناس ، فنظرت أسماء الى الجمع وقد هاجوا وماجوا فرأت طلحة وقد تقدم اليه قبل الجميع ومد يده فمد علي يده فصافحه طلحة ، وقال : «انا نبايع سيدنا ومولانا الامام ، المفترض الطاعة على

جميع الانام ، عليا بن ابي طالب • على كتاب الله وسنة نبيه واجتهاد امير المؤمنين • ونسلم له النظر في أمورنا وأمور المسلمين لا ننازعه في شيء ونطيعه فيما يكلفنا به من الامر على المنشط والمكره • وعلي ألا خليفة سواه» • وأدركت أسماء من هيئة طلحة وغنة صوته ومجمل حاله انه انما بايع مكرها • ثم سمعت رجلا من الوقوف خلفها يقول لجاره همسا : «انا لله وانا اليه راجعون ، ان اول يد بايعت يد شلاء ، لا يتم هذا الامر» • فالتفتت أسماء الى محمد كأنها تستفهمه مغزى ما يقوله الرجل ، فدنا منها وقال لها : «ان في يد طلحة شللا خفيفا من يوم أحد ، والذي سمعته يتكلم رجل من اهل العيافة تشاءم بتلك المبايعة» •

قالت : «ارجو ألا تصدق عيافته» • وبعد ان بايع طلحة تنحى وتقدم الزبير فبايع ، ثم بايع غيره من الامراء جملة وفرادى •

فلما تم الامر لعلي وأصبح امير المؤمنين ، ارتقى المنبر • فلما رآه الناس صاعدا علموا انه يريد ان يتكلم وهم طالما سمعوا خطبه وسحروا بيلاغته ، فأنصتوا الى ما سيقول • وظلت أسماء في موقفها ومحمد الى جانبها ، فلما وقف الامام علي اصغت كما اصغى الجميع ، فمسح علي لحيته بيمينه وأجال نظره في الناس والعمامة الخز على رأسه وعليه الازار وبطنه يتقدمه لانه كان ذا بطن ، فلبث هنيهة لا يتكلم حتى سكت الجميع وتطاولوا بأعناقهم لسماع كلامه وهو اول كلام له بعد الخلافة• فحمد الله وأثنى عليه ثم قال بصوت سمعه من في المسجد جميعا :

«ان الله تعالى أنزل كتابا هاديا بيّن فيه الخير والشر ، فخذوا نهج الخير ، وأصدفوا عن سمت الشر • أدوا الى الله ، يؤدكم الى الجنة• ان الله حرم حرما غير مجهول ، وأحل حلالا غير مدخول ، وفضل حرمة المسلم على الحرم كلها ، وشد بالاخلاص والتوحيد حقوق المسلمين في معاقدها • فالمسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده الا بالحق • ولا

يحل أذى المسلم الا بما يجب • ان الساعة تحدوكم من خلفكم • تخففوا تلحقوا ، واتقوا الله في عباده وبلاده فانكم مسؤولون حتى عن البقاع والبهائم • وأطيعوا الله ولا تعصوه • واذا رأيتم الشر فأعرضوا عنـــه واذكروا انكم قليلون مستضعفون في الأرض» •

* * *

وكان محمد قد خامر سروره قلق ، لما قام في ذهنه من ميل الحسن الى أسماء ، فلما انفض الجمع ورأى الحسن مع ابيه والناس حولـــه يهنئونه أشار الى أسماء فتبعته وقد ادركت ما في ضميره ، وأحست ما في نفس الحسن وقد استملحته ولكنها بقيت على حب محمد وهو اول من طرق قلبها • فلما دعاها سارت في اثره وهي تتجاهل مراده حتى وصلا الى بيت العجوز •

فلما خلا بأسماء نظر اليها نظرة لم يخف مغزاها عليها • فابتدرته قائلة: «ارى المدينة غاصة بالناس وقد شغلوا بخليفتهم فلم يعد يطيب المقـــام فيها » •

فأعجب محمد بحسن فراستها ورقة احساسها ، ولكنــــه خاف ان تكون مضمرة غير ما تظهر فقال : «وما الذي بغض اليك الاقامـــــة بالمدينة ؟» • قالت : «بغضها الي ما حبب محمد الي» •

قال : «وكيف تتركين عليا وأهله ؟» • قالت : «مالي ولأهله ؟»

قال : «ألا ترين ان امامة تفتقدك ؟» • قالت : «أظنها تفتقدني وقد يفتقدني غيرها ولكنني لا أبالي احدا» •

فأدرك انها عرفت نيته فقال : «لقد تم الامر لعلي فهو اليوم امـــير المؤمنين ، وقد استقام لنا الامر وسأنظر ما يكون من تبديل عماله على الامصار ، وتتدبر ذلك في حينه • أما الان فأرى ان تقيمي عند أختي

عائشة أم المؤمنين» .

وكانت أسماء قد علمت منه انها سارت الى مكة لقضاء مناسك الحج عندما كان عثمان محاصرا ، ولم تسمع انها عادت فقالت : «هل عادت أم المؤمنين من مكة ؟»

قال : «لم تعد بعد وقد قتل عثمان وتولى علي وهي غائبة ، وقد تقيم هناك حقبة اخرى» . قال ذلك وهو يعلم ان مجيئها قريب ولكنه خشي ان هو أعلم أسماء بذلك ألا تعود ثمة حاجة في خروجها من المدينة فتضطر الى ان تقيم ببيت علي وتأبى عليه غيرته ذلك .

قالت أسماء : «هل أذهب اليها ؟»

قال : «ارى ان تذهبي فتقيمي عندها وتشاهدي بيت الله الحرام ومشاهدة مكة ، فاذا عادت أختي عدت معها واذا اقامت طويلا ذهبت انا لاستقدامك ونكون قد عرفنا مصيرنا» .

قالت : «ان في ذهابي اليها شرفا عظيما ، ولكن كيف اسير وحدي؟»

قال : «ارى ان تصحبك هذه الخالة (وأشار الى العجوز) فان لها دالة على أختي ، وذهابها معك يغنيني عن الايصاء بك وسأرسل معكما من يوصلكما اليها . ويحسن بك ان تطلبي انت الشخوص اليها» . قال ذلك ونظر اليها وهو يبتسم .

ففهمت مراده وأدركت انه يخاف ان يعلم علي او الحسن انه هو الذي حملها على الشخوص . فقالت : «نعم فأنا الراغبة في المسير لأكون بجوار أم المؤمنين . اين جوادي وأمتعتي ؟»

قال : «هنا عند الخالة فامكثي عندها الى الغد فآتي اليك بمن يسير بك الى مكة» . قال ذلك وهم بالخروج .

فقالت له أسماء : «ولا يبرح من ذهنك اني ما زلت أتوقع اليقين عن مقتل عثمان وتفصيل ما تبرىء به نفسك» .

قال : «غدا تلاقين أم المؤمنين فاسأليها عن عثمان وهل استحق القتل وهي تجيبك بما يغنيك عن سؤالي • ألا ترضين بها حكما ؟»

قالت : «أرضى» • قال : «انها من اول القائلين بقتله ، ومن قولها : (اقتلوا نعثلا — لقب عثمان — فقد كفر) •»

وتركها محمد ومضى ، فلما كان صباح الغد جاء وقد أعد جمـــالا وهودجا • فلما رأت أسماء الجمال قالت : «وما تلك ؟» • قال : «هي جمال ولا يصلح لركوب الصحراء غيرها ، فان بيننا وبين مكة بضع مراحل والطريق وعر» •

قالت : «ولكنني أوثر الفرس ، وكذلك فعلت في قدومي من الشام، وقد خوفوني ركوب الافراس في الصحراء فأبيت الا ركوبها» •

قال : «لا يجمل بك ان تركبي فرسا ورفيقتك هذه لا تستطيع ركوبه، فاركبي الجمل فانه أصلح لهذا الطريق واتركي جوادك هنا فلا خــــوف عليه • وقد علمت ان رجلا من آخوال أم المؤمنين من بني الليث واسمه عبيد بن ابي سلمة عاد الى مكة ، فعهدت اليه في ان تسيرا معــــــه فيوصلكما الى منزل آختي» •

فعجبت أسماء لوصفه الرجل بأنه من أخوال أخته وحدها ، فسألته عن ذلك • فقال : «ان عائشة من أم غير آمي ولم تسنح لك الفرصة ان تريها بالامس ، فعسى ان تريها في فرصة اخرى» •

قال ذلك وأمر العجوز فأخذت في اعداد مــــا يلزم للسفر وجعلت تجمع صررها ، صرة فيها المشط ، وصرة فيها السواك ، وصرة للنعال ونحو ذلك • ولم يمض ساعتان حتى تهيأ كل شيء • وجاء عبيد بن ابي سلمة فأوصاه بالعجوز والفتاة خيرا وودعهما •

فقالت له أسماء وهي تشد منطقتها حول خصرها وتتهيأ للدخول في الهودج : «متى اراك ؟» • قال «أرجو ان اراك قريبا في مكة او أبعث

في استقدامك متى استقام الامر وهدأت الاحوال» • فودعته وسارت وقد تلثمت بلثام السفر •

- ٩ -

المطالبة بدم عثمان

لم تكد أسماء تخرج من المدينة ، حتـــى اشرفت على قباء فهاجت أشجانها وتذكرت أمها ، فترجلت عند المسجد فلقيها خادمه الشيخ فدعا امرأته فرحبت بأسماء ومن معها ، فطلبت أسماء ان تزور قبر أمهـــا فزارته وبكت بكاء مرا حتى كاد يغشى عليها لو لم ينهضها الرفاق • ولما رآها ابن ابي سلمة على تلك الحال ، أسرع في الترحال فشدوا الاحمال وركبوا قاصدين الى مكة • وكان قد تأثر لما رآه من حزن أسماء فأراد ان يواسيها فلما شارف جبل أحد وهو على اربعة أميال من المدينة غربا أحب ان يشغلها بالحديث فقال لها : «انظري الى هذا الجبل فانه احد الذي وقعت عنده الوقعة بين المسلمين ومشركي قريش على عهد النبي صلى الله عليه وسلم» • وقص عليها حديث الغزوة •

وقضوا في سفرهم ثلاثة ايام حتى شارفوا جبال مكة عند قرية يقال لها «سرف» على ستة أميال من مكة ، فرأوا ركبا قد وصل وفيه ناقة عرف عبيد انها ناقة عائشة لما رأى هودجها وعليه رداء أحمر يجلله كله ، فترجل وترجلت أسماء والعجوز واشتغل العبيد في عقل النوق •

وسرت أسماء برجوع عائشة على عجل لعلها ترجع معها الى المدينة فتلقى محمدا ، فقالت للعجوز : «وأين أم المؤمنين ، ولم أسرعت في الرجوع من مناسكها ؟» • فالتفتت العجوز يمنة ويسرة حتى استقـــر

بصرها على فسطاط كبير مبطن بالحرير الاحمر عند بابه بدويان واقفان. فقالت : «هذا هو فسطاطها وقد وقف الخدم عند بابه» .

فقالت : «وهل نذهب اليها الان ؟»

قالت : «تمهلي لنرى ما يكون من ابن ابي سلمـــــة» . ثم سارت العجوز اليه وكان يعقل ناقته ويصلح حاله قبل الدخول الى الفسطاط ، فازدادت أسماء تهيبا من الدخول على أم المؤمنين وقالت للعجوز : «وهل تنوي الاقامة بهذا المكان ؟»

قالت : «يلوح لي انها على سفر» . ثم دنت من قائد جملها فسألته عن سفر أم المؤمنين فقال : «انها شاخصة الى المدينة» .

فقالت أسماء : «وما العمل الان هل نرجع معها ام نظل في طريقنا الى مكة ؟»

قالت : «سنرى في ذلك متى التقينا بها ، فاذا أمرتنا بالرجوع معها رجعنا واذا ارادت ان ندخل مكة دخلنا» .

قالت : «هل ننتظر رفيقنا لندخل معه أم نسبقه اليها ؟»

قالت : «ارى ان ندخل فسطاطها قبله مخافة ان تكون هي مسرعة في القيام فلا تتمكن من التكلم معها» .

قالت : «وهل تعرفينها من قبل ؟»

قالت : «أعرفها جيدا وقد عشت في بيت ابيها رحمه الله ، وكثيرا ما حملتها على عاتقي وهي طفلة ، ولهذا أحن اليها حنين الوالدة» .

قالت : «فلندخل عليها» . قالت : «هلم بنا» . ومشت امامهـــــا فتبعتها أسماء حتى دنت من الفسطاط ، فاستأذنتا في الدخول ، فأذن لهما ، فدخلتا وكلتاهما هائبة الوقوف بين يدي زوج النبي .

أما أسماء فكانت على شجاعتها وثبات جأشها قد شعرت عند دخولها الفسطاط باضطراب وازداد خفقان قلبها واحمرت وجنتاها ثم امتقع لونها

رهبة من لقاء أم المؤمنين .

وكانت عائشة جالسة الاربعاء على وسادة من الخز في صدر الخيمة. فنظرت أسماء اليها فاذا هي ربعة ممتلئة الجسم تتلألأ الصحة والذكاء من عينيها وفوقهما حاجبان متقاربان يشيران الى ما أودعه الخالق فيها من الانفة والمهابة . وقد تجلببت بجلباب من الحرير يغطي كل أثوابها فوقه نقاب يكسو رأسها فيزيدها جلالا ووقارا .

فاستأنست أسماء برؤيتها لشدة ما اشبهت محمدا ، حتى لا يشك الناظر اليها انها اخته ، وكانت قد علمت انها قاربت الثالثة والاربعين من عمرها ، فلما رأتها خيل اليها انها دون الثلاثين لما في وجهها من اشراق وصحة وشباب .

فلما دخلتا حيتاها، وهمت العجوز بتقبيل يدها فمنعتها عائشة وقالت: «اهلا بك يا خالة اهلا بك» . وأمرتها بالجلوس فجلست وتقدمت أسماء في خفر واحتشام وقبلت يدها ، ووقفت متأدبة حتى أذنت لها في الجلوس فجلست مطرقة لا تتكلم وقد ذهبت عنها جرأتها لتهيبها اللقاء.

فنظرت عائشة الى العجوز وابتسمت كأن في نفسها مرا تخشاه او كأنها مشتغلة بأمرها ، وقالت : «مرحبا بك يا خالة ، ما الذي جاء بك الينا . كيف فارقت محمدا ؟»

قالت : «فارقته في خير وعافية ، وقد بعثني اليك بهذه الفتاة أودعها عندك لتكون في كنفك حتى يجيء» . قالت ذلك وتبسمت .

فنظرت عائشة الى أسماء فأعجبها ما فيها من الجمال والكمال ، وأدركت مما علا وجهها من ظلال الحياء عند ذكر محمد انها تحبه ، فتبسمت ورنت الى العجوز بعينيها مشيرة اشارة اثبتتت ظنها .

فقالت لأسماء : «اهلا بالضيفة العزيزة وديعة اخي فأنت اذا أختي».

فتوردت وجنتا أسماء خجلا ، ولم تجب .

فقالت عائشة : «أظنكما جئتما لتقيما عندي بمكة ؟» • قالت العجوز: «نعم يا مولاتي» •

قالت : «ولكنني شاخصة الان الى المدينة فاذهبا الى بيتي بمكة حتى اعود ، او تعاليا معي الى المدينة» • ثم التفتت الى أسماء وقالت : «ما بالك لا تتكلمين ؟»

فرفعت أسماء رأسها وقالت : «تلعثم لساني بين يـدي أم المؤمنين زوج الرسول» •

فابتدرتها عائشة قائلة : «ولكنك ستكونين من ذوات قربانا باذن الله فلا تتهيبي • اهلا بك ومرحبا» •

فقالت العجوز وهي تريد ان تداعب أسماء : «لتعلم مولاتي ان أسماء بنت يزيد من بني أمية قدمت المدينة من قبل منذ بضعة اشهر فقط وكانت مقيمه بالشام فلا تعرف عادة اهل الحجاز» •

فقالت عائشة : «مهما يكن من أمرها فلن تلبث حتى تصير حجازيه» •

* * *

وسكتت عائشة هنيهة وهي مقطبة الوجه ثم استأنفت الحديث فقالت: «وهل جئتما في رفاق أم مع قافلة ؟»

قالت : «جئنا مع عبيد بن ابي سلمة احد أخوالك» •

فلما سمعت عائشة اسمه أجفلت وقالت : «وأين هو ؟» • قالت : «آت عما قليل» •

فلم تصبر عائشة ونادت بعض من على بابها وأمرته ان يأتي به ، وأرخت النقاب ولبثت صامتة ، وهما صامتتان هائبتان ، حتى دخـل عبيد وهم بتقبيل يد عائشة فمنعته ، وقالت : «اهلا بالخال ، قل مـــا وراءك ، كيف فارقت المدينة ؟»

قال : «فارقتها وقد قتل عثمان وبقي ثمانية» •

فلما سمعت ذلك قطبت حاجبيها وظهر الغضب على وجهها ، فتفرست في عبيد والشر يكاد يتطاير من حدقتيها وأسماء تراقبها من خلال النقاب وقد ذهلت لما بدا منها •

أما عائشة فلم تصبر حتى يتم حديثه • فقالت وكأنها تتحفز للنهوض: «ثم صنعوا ماذا ؟»

فلم يستغرب عبيد ما بدا منها ، ولعله كان يتوقعه فقال : «أجمعوا على بيعة علي» •

فهبت عائشة من مجلسها ، ثم وقفت وأطرقت وقد امسكت طرف نقابها كأنها تصلحه ، ثم رفعت رأسها بغتة وأشارت بيدها الى السماء ثم الى الارض وقالت : «ليت هذه انطبقت على هذه ان تم الامر لصاحبك» • قالت ذلك وخرجت مسرعة وهي تقول : «ردوني ، ردوني الى مكة • قتل والله عثمان مظلوما • والله لأطالبن بدمه» •

فبغتت أسماء لما رأت من اهتمام عائشة بالامر الى هذا الحد ، وساءها ما سمعته من التعريض بعلي ، ولكن التهيب منعها من الكلام•

أما عبيد فبقي رابط الجأش ، وربما كان على بينة مما سيبدو من أم المؤمنين فأعد لكل خطاب جوابا ، فاستوقفها وقال لها : «ولم ؟ والله ان اول من أمال حرفه لأنت ، ولقد كنت تقولين اقتلوا نعثلا فقد كفر• ألم تخرجي قميص رسول الله وشعره لما علمت بأعمال عثمان وتقولي : (هذا قميصه وشعره لم يبل وقد بلي دينه) ••»

فلما سمعت عائشة قوله ادارت وجهها اليه وقالت : «انهم استتابوه ثم قتلوه ، وقد قلت وقولي الاخير خير من قولي الاول» • قالت ذلك وأمرت رجالها ان يهيئوا الاحمال للرجوع الى مكة • فنظر اليها عبيد وهي خارجة وأنشد :

فمنك البـداء ومنك الغيـر ومنك الرياح ومنك المطـــر
وأنت أمرت بقتـل الإمـام وقلت لنـــا انه قـــد كفـر
فنحن أطعنـاك فـــي قتله وقاتله عندنـــا مـــن أمـر
ولم يسقط السقف من فوقنا ولم تنكسف شمسنـا والقمر
وقد بايـع الناس ذا تـدرأ يزيل الشبا ويقيم الصعـــر
ويلبس للحـــرب أثوابهـا وما من وفي مثل مـن قد غدر

فلم تعبأ عائشة بقوله فتركها وانصرف •

أما أسماء فلبثت هي والعجوز وكأن على رأسيهما الطير لا يفقهـان حديثا ، وكانت أسماء قد همت بأن تجيب عائشة ولكنها خافت غضبها فرأت من الحكمة التعقل ان تؤجل ذلك الى فرصة اخرى •

فلما تهيأت الاحمال بعثت عائشة الى العجوز وأسماء ، فركبتا معها وسار الجميع قاصدين البيت الحرام ، وأسماء صامتة وقد أدهشها ما رأته من تغير عائشة بغتة لأمر لم تكن تتوقعه • على انها مالت لمعرفـة الدليل على صحة قولها في مقتل عثمان وهو الامر الذي كان يقـض مضجعها ، وكانت من جهة اخرى تخشى ان يثبت قتله ظلما فيحدث ما يدعوها الى البعد عن محمد وهذا ما لا تطيقه ، فقضت مسافة الطريق هائمة الفكر • حتى أطلت على مكة وأشرفت على الكعبة وهي فـي وسطها كأنها ملك والابنية حولها جنود • ولم يمض قليل حتى وصـل ركبهم الى الكعبة فترجلت عائشة وترجل الجميع وسارت توا الى الحجر فاستترت فيه • وهو مصطبة محوطة بحائط الى ما دون الصدر منه ما تركت قريش من الكعبة واقتصرت في بنيان الكعبة عنه ، ويقال ان فيه قبر سارة • فلما رأتها أسماء تدخل الحجر دخلت في اثرها والعجوز

معها ولكنهما لم يتكلما لتهيبهما من غضبها •

* * *

ما كادت عائشة تدخل الحجر حتى اجتمع الناس حولها وفي مقدمتهم عبد الله بن عامر الحضرمي عامل عثمان على مكة • ورأت أسماء بينهم جماعة من بني أمية ممن غادروا المدينة بعد مقتل عثمان ولم يكن مروان معهم • ولم يكد يستقر بالناس المقام حتى وقفت فيهم عائشة وقالت وهم سكوت يصغون اليها وكانت جهورية الصوت : «ايها الناس ان الغوغاء من اهل الامصار وأهل المياه وعبيد اهل المدينة ، اجتمعوا على هـــذا الرجل المقتول ظلما ونقموا عليه استعمال من حدثت سنه ، وقد استعمل أمثالهم من كان قبله ، ومواضع من الحمى حماها لهم ، فتابعهم ونزع لهم عنها • فلما لم يجدوا حجة ولا عذرا بادروا بالعدوان ، فسفكوا الدم الحرام ، وأخذوا المال الحرام • والله لإصبع عثمان خير من طباق الارض أمثالهم ، ولو ان الذي اعتدوا به عليه كان ذنبا لخلص منه كما يخلص الذهب من خبثه او الثوب من درنه» •

فما أتمت كلامها حتى هاج الناس وماجوا ، ثم تصدى عبد الله بن عامر الحضرمي وقال والناس يسمعون : «ها أنذا اول طالب» • وكان هو اول من اجاب الدعوة الى المطالبة بدم عثمان •

وكانت أسماء تزداد حيرتها ولا تفقه لهذا الامر سببا معقولا ، فالتفتت الى العجوز فرأتها صامتة مطرقة وقد امتقع لونها وارتجفت شفتاها • فأدركت ان في الامر سرا لا تستطيع ان تبوح به •

وأذنت الشمس بالمغيب فأشارت عائشة الى الناس ان ينصرفـــوا فتفرقوا ، وخرجت هي الى منزلها وأسماء في اثرها وقد هالها ما رأته في يومها من المدهشات •

وجاء القوم الى منزل عائشة في العشاء فأطعموا ، ولم تجرؤ العجوز ولا أسماء ان يجلسا معها تلك الليلة ، فباتتا وأسماء تنتظر الغد لترى عائشة وتستطلعها الخبر اليقين ، فلما أقبل الصباح نهضت أسماء والعجوز . وقالت أسماء : «لقد أدهشني امر لم يبق لي صبر على السكوت عنه وليس لي من يفرج كربتي سواك» .

قالت : «سلي ما تريدين ؟»

قالت : «لقد سمعت من أم المؤمنين ما جهرت به في شأن امير المؤمنين علي بن ابي طالب . وهو كما تعلمين ابن عم الرسول ، وهي زوجه ، فما بالها تعمل عليه وكان أولى بها ان تكون معه ؟»

ففهمت العجوز ، وجالت بعينيها ونهضت كأنها تقول : «لا يعنيني هذا ولا أريد البحث فيه» . وكانت ملامح وجهها تنم عن تكتمها ، فتوسلت اليها وألحت عليها فقالت : «ان في الامر سرا قل من يعرفه سواي ولكنني اخاف ان ابوح به» .

فازدادت أسماء شوقا لسماع السر ، وجرّت نفسها على البساط حتى التصقت بها وقالت : «بالله عليك فرجي كربتي بكلمة ، ولن أبوح بشيء مما تقولين» .

فالتفتت العجوز يمنة ويسرة تحاذر ان يسمعها احد وأدنت شفتيها من أذن أسماء وهمت بالكلام ، ثم أجفلت بغتة وابتعدت عنها وأصغت فاذا بوقع أقدام خفيفة ثم بقارع يقرع الباب وجارية تناديها ، فنهضت وفتحت الباب فدخلت جارية حبشية حيتها وقالت : «ان مولاتي أم المؤمنين تدعوكما اليها» .

* * *

فسرت أسماء لهذه الدعوة على أمل ان تتمكن من الاطلاع على شيء

مما ترومه ودخلتا على عائشة فاذا هي جالسة على طنفسة من السجـاد الثمين ، وقد خلعت الجلباب فبانت أثوابها الزاهية ، وبان معصماهـا وعنقها ، وعليها الدمالج والاساور والعقود مما زادها مهابة وجمالا • فلما دخلتا قبلتا يديها وجلستا على وسائد من الدمقس الملون بالقـرب منها • فلبثت برهة لا تتكلم ثم وجهت خطابها الى العجوز وقالت : «كيف قتلوا عثمان يا خالة ؟»

قالت : «دخلوا عليه عنوة وقتلوه في داره بعد ان احرقوا البـاب والسقيفة» •

قالت : «من قتله وكيف كان ذلك ؟»

فسكتت العجوز برهة ثم قالت : «لا أظنني أستطيع وصف الحادثة كما تصفها أسماء فقد شهدتها بنفسها وكانت في داره ساعة مقتله» •
فالتفتت عائشة الى أسماء وقالت : «هل كنت في الدار ساعة القتل ؟» •
قالت : «نعم يا مولاتي» •

قالت : «وكيف كان ذلك ؟» • فشق على أسماء ان تقص الواقعة كما جرت ، لانها تمس محمدا ، ولكنها لم تر بدا من الجواب فقالت : «يطول الحديث لو اردت بسطه ، ولكني أوجزه فأقول : انهم استتابوه فتاب ، ثم رجع • ولقد نصح له علي بأن يصم أذنيه عن سماع مشورة كاتبه وابن عمه مروان فلم يصغ ، وعاد الى ما كان عليه • وعلم الثائرون ذلـك فطلبوا اليه ان يسلمهم مروان فيعودوا ، فلما ابى ، دخلوا منزله عنـوة وقتلوه » •

قالت : «ومن قتله ؟» • قالت : «اثنان لا أعرفهما ولكنهما مـن صعاليك العرب وليسا من الصحابة ولا من أبنائهم» •

فتأوهت عائشة وحرقت أسنانها وقالت : «كيف يقوى الصعاليك على قتل الخليفة ، وكبار الصحابة ينظرون ولا يدفعون عنه بسيف او لسان؟»

فقالت أسماء : «أنهم دافعوا عنه جهدهم ، ان عليا أرسل ابنيه الحسن والحسين الى الدار ، وكذلك فعل الصحابة . رأيتهم هناك يدفعون الناس عن بابه حتى تلطخ وجه الحسن بالدم . ولكن عثمان رحمه الله منعهم» .

فتبسمت عائشة ابتساما انكاريا ، وقالت : «أتصدقين ان عليا اراد ان يدفع الناس عن عثمان فلم يستطع ؟» . وسكتت . كأنها ضاقت ذرعا بالخوض في تفاصيل الموضوع ، وكادت تهم باستئناف الحديث فابتدرتها قائلة : «اسمحي لي يا مولاتي ان أؤدي شهادة لا أستحي أن أصرح بها أمام الديان العظيم . ان عليا بريء من دم عثمان ، بل هو اول ناقم على هذه الفتنة ويراها مضعضعة الاسلام لا سمح الله» .

قالت : «اراك يا بنية تنظرين الى ظواهر الامور دون بواطنها ، أيعقل ان عليا وهو صاحب الكلمة التي لا ترد في اهل المدينة، قصد الى الدفاع عن عثمان وانه غلب على أمره ؟»

قالت : «عرفت يقينا انه اول غاضب على القائمين بهذه الفتنة ، ولقد سمعته اتفاقا ذات ليلة وهو يناجي رسول الله عند قبره ، يشكو اليه ما اصاب أمته من التشتت بعده ، فسمعت كلاما يتفتت له الصخر يتخلله البكاء حزنا على الاسلام . ان عليا يا مولاتي مخلص في قوله وفعله ولا لوم عليه ، ولعلك ان وجهت اللوم الى القاتلين او المحرضين وجدت القول ذا سعة ، وأما الى علي فلا» . قالت ذلك وهي ما زالت تتهيب موقفها بين يدي أم المؤمنين ، فما أتمت كلامها حتى تصبب العرق من جبينها . فتحركت عائشة في مجلسها وقالت وقد اخذ منها الغضب مأخذا عظيما : «ان أولئك القتلة قد اقترفوا اثما عظيما وأكثرهم لا يشعرون ، وانما حرضهم على هذا المنكر شيوخهم ورؤساؤهم ، فانك تجهلين أمورا أعلمها ولا أجهل شيئا تعلمينه» . وسكتت برهة وأسماء

مطرقة وقد تحيرت كيف تجيب . فاستأنفت عائشـــة الحديث وقالت : «لقد وقع الي ان اخي محمدا كان في عداد المغرورين» . ثم خفضت صوتها وقالت وهي تلقي يدها على الوسادة لتتكيء عليها : «ولكنـــه غير ملوم» .

فلما سمعت أسماء ذلك ثارت ثائرة حبها محمدا وهمت بأن تدرأ عنه التهمة وخشيت ان يؤدي بها الدفاع الى الكذب فلبثت صامتة ، ونظرت الى العجوز فرأتها ترتعش خوفا ورهبة ، وظل الجميع برهة لا تفـــوه احداهن بكلمة حتى عادت عائشة الى الكلام فنظرت الى أسماء وقالت وهي تحاول اخفاء غضبها : «لا أنكر ان عثمان اخطأ في تصريفه أمور الخلافة ، ولكنه خطأ لا يدعو الى القتل» .

فأحبت أسماء ان تسمع رأي عائشة فيما ارتكبه عثمان من الخطـــأ فقالت : «هذا ما سمعته من اخيك محمد ، ولكنه يرى ان خطأه اعظم من أن يغتفر » .

قالت وقد عادها غضبها : «ان محمدا لا يعرف ما أعرفه ، ولو جاءني الان لجادلته وأقنعته بضلاله» . ولم تكد تتم كلامها حتى دخلت احدى الجواري تقول : «ان بعض الامراء بالباب» . فلما سمعت أسماء ذلك نظرت الى عائشة فرأتها توقفت عن صرف الجارية فأدركت انها راغبة في مقابلة القادمين ، فنهضت واستأذنت في الانصراف الى حجرتها فأذنت لها، فخرجت والعجوز في اثرها وكلتاهما صامتة تفكر فيما سمعته .

* * *

وأحست أسماء عقب خروجها بقشعريرة شديدة فأوت الى الفراش والبرداء تعمل في أحشائها ، فتبعتها العجوز وجلست الى جانبها وجست يدها فاذا هي باردة كالثلج ، فدثرتها وأكثرت في غطائها وهي تنتفض

بردا . فقلقت العجوز وسألتها عما بها فقالت : «أحس بارتخاء في أعضائي ورعدة في أحشائي» . قالت ذلك وأسنانها تصطك . فأرادت العجوز ان تخفف عنها فقالت لها : «لا بأس عليك ، ان ما أصبت به من أثر التعب الذي قاسيناه في الطريق» .

وظلت العجوز تخفف عنها حتى خفت البرداء واحمر وجهها احمرارا شديدا . فجستها العجوز فاذا هي محمومة فخففت من دثارها ، وخرجت تستشير اهل الدار في علاجها . فأشارت عليها بعض النساء بعسل تشربه ممزوجا بالماء فجاءتها بقدح من مزيجه فلم تتناول منه شيئا . فتقدمت اليها وقبلتها وتوسلت اليها ان تشرب العسل فلم تجبها ، ثم ما لبثت ان رأت دموعها تهمي وهي تحاول امساكها ، فألحت عليها ان تشرب فازدادت أسماء بكاء وشهيقا وقد احمرت عيناها وذبلت أجفانها واشتدت عليها الحمى اشتدادا عظيما .

فحارت العجوز في امرها وحدثتها نفسها ان تنبىء أم المؤمنين بما حدث فتذكرت اشتغالها بمن قدم اليها من الامراء . فلبثت بجانب الفراش تنظر الى أسماء ولا تتكلم .

ثم سكتت أسماء وأغمضت عينيها كأن النعاس غلب عليها ففرحت العجوز لنومها فتركتها وخرجت لعلها تلقى من تستشيره في علاجها ، ولم تكد تخرج حتى سمعت أسماء تتكلم فظنتها تدعوها فأسرعت اليها فاذا هي تهذي وقد انكشف الغطاء عنها وانحسر درعها وقميصها عن صدرها وانكمشت أكمامها لفرط تقلبها . فهمت العجوز بأن تغطيها وتصلح أثوابها فخافت ان توقظها فدنت من الفراش لترفع الغطاء الى صدرها فرأت الحجاب في عنقها ورسم الصليب على معصمها . فبغتت وتأملت في وجهها فراعها ان رأت لمحة من غير ملامح العرب الغرباء ، وتفرست في رسم معصمها فاذا هو رسم الصليب وتحققت ان الحجاب من أحجبة

النصارى فاستغربت الامر ، ثم تذكرت ان أسماء قلما كانت تبالي التحجب في حديثها مع محمد او غيره ، فقالت في نفسها : «لعلها كانت نصرانية وربيت بين النصارى في الشام» •

وكانت أسماء ساكنة استغرقت في النوم ، وقد أطبق جفناهـــا وتوردت وجنتاها وأسرع تنفسها من الحمى ، فكانت تلهث وفمها مفتوح فأزاحت العجوز الغطاء الى صدرها خوف البرد ، فسمعتها تهذي فأصغت لهذيانها فاذا هي تقول : «أماه يا أماه يا مريم ، آه يا علي يا أبا الحسن كيف ضاع السر ؟ تعال يا حبيبي يا محمد • لا • لا • اذا كنت قـد قتلت عثمان فابعد عني • لا • لا • بل تعال يا منيتي ورجائـــي • ان اسمك كان آخر ما نطقت به أمي • آه يا أماه • مـــــن هو ابي ؟ اخبريني • قولي • أحي هو ام سبقك الى العالم الآخر ؟» • ثم خفضت صوتها وتلجلج لسانها فلم تعد تفهم العجوز شيئا منـــه • ثم سكتت سكوتا تاما واستغرقت في النوم ، فجلست العجوز بالقرب من الفراش وهي تهم بأن تجسها لتتحقق الحمى وخافت ان توقظها فعاذت بالصمت تفكر فيما سمعت منها وتعجب لجهلها أباها •

وفيما هي في ذلك اذ جاءتها جارية تسعى وتقول : «ان أم الفضل جاءتك زائرة» • .

فلما سمعت اسم أم الفضل تحفزت لملاقاتها وقـد سرت بقدومها • وبعد هنيهة اقبلت أم الفضل تمشي لا يسمع لمشيها صوت وكانت فـي نحو الستين من عمرها ، فهمت العجوز بها وحيتها وقبلتها ودخلت بها الى حجرة أسماء ودعتها للجلوس على البساط •

فقالت أم الفضل وهي لم تنظر أسماء بعد : «اني أشم في هـــذه الحجرة رائحة الحمى» • والتفتت الى الفراش وقالت : «من هو المريض عندك ؟ »

قالت : «لقد جئتني في ساعة حرجة فعسى ان تخففي عني» •

قالت : «انما جئت لأسألك عن قتل الخليفة رحمه الله وما آل اليه الامر بعده ، فقد أهمني أمره كثيرا ، وسمعت بقدومك فأسرعت اليك، فأخبريني اولا من هذا المريض عندك ؟»

قالت : «هي فتاة جئت بها من المدينة بايعاز من ابن أختك محمد بن ابي بكر ، لتقيم بضعة ايام عند أم المؤمنين حتى نرى ما يكون» •

قالت : «وما شأن ابن اختي وشأنها ؟»

فالتفتت العجوز الى فراش أسماء حذر أن تستيقظ فتسمعها ، ودنت من أم فضل وهمست في أذنها فقالت : «انه ينوي ان يعقد قرانه بها» •

وأرادت أم الفضل ان تسأل العجوز عن تفصيل مقتل عثمان ، فاذا بأسماء تتأوه ، وأدارت رأسها نحوها وفتحت عينيها • فنهضت العجوز وجست يدها فاذا هي مبللة بالعرق وقد خفت الحمى قليلا فقالت لها : «كيف انت الان يا بنيتي ؟»

فأشارت برأسها وعينيها انها في راحة ، ثم رأت أم الفضل فاستحيت منها وهمت بالجلوس ، فنهضت أم الفضل اليها ودنت منها وهي تقول : «لا تزعجي نفسك يا ابنتي» •

فتوسطتهما العجوز وقالت : «أظنك تستأنسين بلقاء أم الفضل لبابة خالة محمد بن ابي بكر أخت أمه ، وأزيدك علما بأنها اول من أسلم بعد خديجة ، وهي ايضا زوج العباس عم النبي ، وأخت ميمونة زوج النبي• ومن ولدها عبد الله بن العباس من خاصة امير المؤمنين علي بن ابي طالب ، بل هو ابن عمه وابن عم الرسول ، وأظنك رأيته غير مرة في مجلس علي ، او لعلك رأيته في دار عثمان فقد كان يتردد اليه وهو محاصر ، حتى انتدبه ليحج بالناس» • فلما سمعت أسماء ان أم الفضل خالة محمد استأنست بها ، ولما علمت انها زوج عم النبي وأم عبد الله

ابن العباس زاد احترامها لها ، فجلست وهي تمسح العرق عن جبينها . ورحبت بها فأسرعت أم الفضل وقبلتها وقالت : «اهلا وسهلا بك كيف فارقت محمدا ؟»

فتعجبت أسماء لسؤالها عن محمد وهي لا تحسبها تعرف علاقتها به. فلما رأت العجوز استغرابها ضحكت وقالت : «لا تستغربي يا أسماء فانها عالمة بكل شيء ولا يلبث المسك ان يضوع» .

فأطرقت أسماء خجلا ولم تجب .

فجلست أم الفضل الى جانب العجوز بالقرب من الفراش وقالت لها بصوت منخفض كأنها تحاذر ان يسمعها احد : «هل اجتمعت بأم المؤمنين وكيف وجدتها ؟»

قالت : «وجدتها ناقمة على قتلة عثمان ولا أدري ما هي عازمة عليه».

قالت : «علمت انها يوم وصولها الى مكة دعت الناس الى المطالبة بدم عثمان ، وكان اول من اجابها منهم عامل هذه المدينة» .

قالت : «نعم ، وقد سمعت كلامها وكلامه ومعي أسماء ، ولكنني لا أظنها تقرن القول بالفعل» .

فابتسمت أم الفضل استغرابا وقالت : «وما الذي حملك على هذا الظن ؟» . والتفتت الى أسماء فرأتها تلتحف وقد أحست بقشعريرة على اثر جلوسها . فأدنت أم الفضل فمها من أذن العجوز وخفضت صوتها وقالت : «هل تجهلين ما في نفسها على امير المؤمنين !»

فعضت العجوز شفتها وأشارت بعينيها كأنها لا تريد الخوض في هذا الامر امام أسماء وقالت : «اذن تظنينها مقدمة على الامر ؟»

فتطاولت أم الفضل بعنقها نحو الباب حتى أطلت على الدار مخافة ان يسمعها احد وقالت : «لا بد لها من ذلك فان اهل مكة يد واحدة في هذا الامر ، وفيهم بنو أمية الذين هربوا من المدينة . وقد وقع الي ان

الزبير وطلحة قادمان ايضا وكل منهما يريد الخلافة . وقد سار قـــوم لاستنصار اهل البصرة ، وآخرون للكوفة ، وغيرهم لتحريض اهـــل اليمن ، وآخرون الى الشام» .

فابتدرتها العجوز قائلة : «أما اهل الشام فليسوا في حاجة الى من يحرضهم ، وفيهم معاوية ابن عم عثمان ، وقد حملوا اليه قميص عثمان الملطخ بالدم وأصابع نائلة ليهيجوا اهل الشام على لقاتلين» .

فتنهدت أم الفضل وتأوهت وقد عظم عليها ما تتخوفه من تفاقم الفتنة حتى تناثر الدمع من عينيها ، وسكتت .

* * *

كانت أسماء تسمع حديث أم الفضل والعجوز وهي مضطربة لا تقوى على جواب ، فلما رأت أم الفضل تبكي تذكرت بكاء علي عند قبر النبي في الليلة التي رأت فيها محمدا لاول مرة . فانتقل ذهنها الى محمد وما يعترض آمالها فيه من أمر اتهامه بقتل عثمان . وكانت لما سمعت من قبل كلام عائشة انقلبت على محمد وكادت تتحقق ما سمعته لو لم يقم فـــي قلبها برهان حبه .. على انها لم تزل على رغبتها في سماع دفاعه او دفاع من يقول بقوله ويرى قتل عثمان . فلما رأت سعة علم أم الفضل وقد رافقت الاسلام في كل أطواره ، كلمتها بصوت مختنق من تأثير الحمى فقالت : «ان في نفسي شيئا لا صبر لي عليه» . قالت : «ما هو ؟»

قالت : «لقد شهدت مقتل عثمان رحمه الله وسمعت دعوى النـــاس عليه . ولكنني تحققت مما وقع من حوادث كثيرة انهم ظلمـــوه وان الذنب ليس ذنبه ولكنه ذنب مروان ابن عمه فقد كان يصرف شؤونه كيف يشاء . لكن ابن أختك (تريد محمدا) يزعم انه يستوجب القتل وقـــد

جادلته في الامر فوعد بأن يقنعني ويجيئني بالبرهان» •

فلما سمعت أم الفضل كلامها تنهدت وقالت : «وقعت علي خبير ، فاني أعرف عثمان قبل اسلامه، وأعرف ترجمته وما استتر منها وما ظهر، وهي لا تخلو مما يهيج الاحزاب عليه ويبعث الضغائن ، وأظنه لو وفق الى وزير او مشير عاقل او كاتب غير مروان لما بلغ الامر حده ، واليك ما صنعه عثمان مما أثار الصحابة عليه :

«اولا — انك قد تعلمين ان الصحابة هم الذين قاموا بنصرة الاسلام وتأييد دعوته منذ ظهوره ، فهم أولى من سواهم بولاية الامصار وتولي الاعمال ، وكانوا كذلك على عهد ابي بكر وعهد عمر بعده ، فلما تولى عثمان عزل الصحابة وولى آخرين من ذوي قرابته ، كما فعل بعمرو بن العاص في ولاية مصر وهو الذي فتحها وغرس الاسلام فيها فعزله وولى مكانه عبد الله بن ابي سرح ، اخاه من الرضاعة ، وقد كان عبد الله هذا في جملة من ارتدوا بعد اسلامهم ولحق بالمشركين فأهدر النبي دمه ، فأخذ له عثمان الامان بعد فتح مكة •

«ثانيا — أسرف عثمان اسرافا شديدا في بيت المال ، فكان يعطي منه اناسا من قرابته طردهم النبي (صلعم) • ولا يغرنك ما يقال عن تقشفه وزهده في طعامه •

«ثالثا — أساء الى جماعة من أعلام الصحابة وذوي المكانة في الاسلام ، منهم عبد الله بن مسعود ، وأبو ذر الغفاري ، فنفاهم من أوطانهم وانتهك حرمة كعب بن عبدة البهري وحرمة الاشتر النخعي في أمور يطول شرحها •

«رابعا — اكثر من الضرائب على الاسواق ، وحمى سوق المدينة في بعض ما يباع ويشرى ، فأمر ألا يشتري منها احد النوى حتى يفرغ وكيله هو من شراء ما يحتاج اليه • وحمى البحر من ان تجري فيه

سفينة الا في تجارته .

«خامسا ــ أقطع اصحابه اقطاعات كثيرة من بلاد الاسلام مما لـم يكن له فعله . وهناك أمور اخرى نسبوها اليه كمخالفة الجماعة في اتمام الصلاة بمنى ، وانفراده بأقوال شاذة ونحو ذلك . ولكن لأصحابه حججا يدفعون بها عنه وهي طويلة لو اردت ذكرها لطال بنا الكلام» .

وكانت أم الفضل تتكلم بصوت منخفض ، وأسماء تمد عنقها وكلها آذان مصغية فاطمأن قلبها لانها وجدت لمحمد عذرا وافق هواها ، كأنها ألقت عن ظهرها حملا ثقيلا . وكان الاعياء قد بلغ منها مبلغه فاستلقت ونامت ، وخرجت العجوز وأم الفضل الى بستان فيه نخلات متقاربـة فجلستا تتبادلان الحديث وأسماء نائمة ، وأم المؤمنين في شاغل عنهما بمن عندها من الامراء .

وأخيرا قالت أم الفضل : «رحم الله عثمان ، وأيد عليا ، فاني لا ارى خيرا منه للقيام بأمر المسلمين لقرابته وعلمه وفضله وشجاعته وسبقه الى الاسلام ، على ان ابني عبد الله (عبد الله بن عباس) يرى انه ضعيف الرأي ولكنه يؤثره على كل من سواه ، وقد رأيته فرحا بخلافته عندما لقيته بالامس» .

قالت : «أولا يزال هنا منذ ان جاء للحج ؟»

قالت : «حينما حاصروا عثمان أمره ان يحج بالناس ، فلما جاءه نبأ قتل عثمان وولاية علي ، أسرع ليكون بين يديه» .

وتذكرت العجوز حال أسماء فقالت : «ماذا ترين أن أفعل بأسماء ومرضها ؟» . قالت : «أظنها تشفى غدا ، اسقيها العسل» .

فقالت: «سأحمل أم المؤمنين على ان تسقيها اياه» .

وبينما هما في الحديث رأتا الغلمان في حركة وهم يهيئون الخيـل ويعدون الجمال للركوب ، فعلمتا ان الامراء اوشكوا على الخروج من

عند أم المؤمنين ، فنهضت أم الفضل وودعت العجوز وانصرفت •

وسمعت العجوز جلبة ، ثم رأت جماعة خارجين من الدار معظمهم من بني أمية وعلى وجوههم سمات الظفر ، ولم تجد بينهم احدا تعرفه فانزوت حتى انصرفوا ، ودخلت حجرة أسماء وهي في قلق لئلا تكون قد افاقت في اثناء غيابها ، فوجدت الحجرة مفتوحة وعند بابها خف عرفت انه خف أم المؤمنين فعلمت انها جاءت تتفقد أسماء فأسرعت فرأتها واقفة عند رأس أسماء ، فأشارت أم المؤمنين اليها بأناملها وشفتيها ان تمشي الهوينى وألا تخاف • فأبطأت في خطاها حتى دنت من أسماء فوجدتها نائمة وقد كلل العرق جبينها فسألتها عائشة عن حالها فقالت : «انها شعرت بالبرداء عندما خرجنا من عندك ثم اصابتها الحمى» •

قالت : «اسقيها العسل» •

قالت : «جئت اليها بقدح منه فلم تشرب» •

قالت : «الي به • انا اسقيها فانه فيه شفاء • والتفتت الى أسماء فرأتها تحركت وأخذت تسمح العرق عن وجهها بكفيها فدنت من فراشها ففتحت أسماء عينيها ولما رآت أم المؤمنين أجفلت ونهضت وقد توردت وجنتاها • فقالت لها عائشة : «لا تزعجي نفسك يا بنية» • وجست يدها فاذا هي لا تزال حارة وقد ذبلت عيناها واحمرتا من شدة الحمى •

فقالت لها عائشة : «ألم تشربي العسل يا أسماء ؟»

فقالت : «لا أشتهي طعاما يا مولاتي ولا حلواء» •

قالت : «انما هو دواء فيه شفاء للناس وقد سمعت رسول الله يقول: (الشفاء في ثلاث : شربة عسل ، وشرطة محجم ، وكية نار • وأنهي أمتي عن الكي) • وكان يحب الحلواء والعسل» • قالت ذلك ودفعت القدح الى أسماء فأخذته وشربته ، ولم يمض قليل حتى أحست برطوبة حلقها • وأوصتها عائشة بأن تشرب شيئا من لبن الابل ايضا فأطاعت ، وبعد شرب

اللبن انتعشت فجلست في الفراش • ورجت من أم المؤمنين ان تمكث عندها لانها استبشرت بها خيرا •

فقالت عائشة : «بل ارى ان ننزل الى البستان بالعريش لاني مللت الخباء وقد تزاحم الناس علي اليوم» • فنهضن هن الثلاث ومشين حتى وصلن الى البستان وهو محاط بسور من سعف النخل وفي وسطه عريش مصنوع من الجريد يستظل به ، وقد نصبوا فيه مقاعد من الجريد والخشب ، فدخلنه وجلسن فيه وأم المؤمنين صامتة •

- ١٠ -

طلحة والزبير

لم يكد يستتب بهن الجلوس حتى سمعن جعجعة وصهيلا وجلبة ، فقطبت عائشة حاجبيها تطلعا لما يأتيها من أخبار القادمين وما عتم الخادم ان دخل فقالت : «ما وراءك يا غلام ؟» • قال : «ان ركبا قادمين من المدينة وفيهم طلحة بن عبيد الله والزبير بن العوام يستأذنون» • فلما سمعت أسماء ذلك أجفلت وتحفزت للنهوض للعود الى البيت لتخلو أم المؤمنين بالقادمين •

فقالت عائشة : «لا ارى ما يدعو الى دخولك البيت الان ، واذا رأيتما ألا تحضرا مجلسنا فكونا وراء هذا العريش» •

فنهضتا الى مقعد وراء العريش جلستا عليه ، وقد سرت أسماء ببقائها لعلمها ان طلحة والزبير قادمان من المدينة بعدها ، ولا بد من خبر جديد جاءا به ، او انهما جاءا في امر يهمها الاطلاع عليه لعلاقته بالامام علي ، وهي تعلم انهما بايعا عليا مكرهين • فلبثت مستترة بجانب

العريش وأصاخت بسمعها وهي تنظر من خلال الجريد الى من يدخل العريش .

فأذنت عائشة لطلحة والزبير ، وأرخت نقابها ، فدخلا وهما ما زالا بثياب السفر وقد علاهما الغبار ، ومعهما رجال آخرون .

دخل اولا طلحة بصدره العريض ولحيته البيضاء الكثيفة ، وكان قصيرا ، وقد ازداد وجهه احمرارا من طول السفر وأثر الشمس . وكانت أسماء قد رأته غير مرة في المدينة فلم تستغربه . ثم دخل الزبير وهو يمتاز عن طلحة بخفة عضله وقلة شعر لحيته .

ودخل في اثرهما ابناهما . فقالوا : «السلام عليك يا أم المؤمنين».

قالت : «وعليكم السلام يا اصحاب الرسول ونخبة المهاجرين وحماة الاسلام» . وأذنت لهم بالجلوس فجلسوا مطرقين لا ينظرون اليها اجلالا لحرمتها . فخاطبت طلحة والزبير قائلة : «من اين اتيتما ؟»

فأجابها طلحة : «جئنا من المدينة» .

قالت : «وكيف فارقتماها ؟»

قال : «انا تحملنا هربا من غوغاء وأعراب ، وفارقنا قوما حيارى حتى كادت تهم بالنهوض والدخول على الجمع . فأدركت العجوز اضطرابها فأمسكت بيدها فاذا هي ترتعش ، فأخذت تهدىء من روعها خوفا عليها ، ولكن هذه قالت لها : «لا صبر لي على ما أسمع ، وهم انما يريدون الانتقاض على الامام علي ، بعد ان رأيتهم بعيني يبايعونه ويقسمون على الطاعة» .

وما لبثت ان سمعت صوتا ارتعدت له جوارحها ، وكان صوت مروان وقد أقبل ودخل العريش وقبل ان يلقي التحية خاطب طلحة والزبير ضاحكا يقول : «على أيكما أسلم بالامارة وأؤذن للصلاة ؟» . يلمح الى ان احدهما سيكون امير المؤمنين .

فأجابه عبد الله بن الزبير : «على ابـــي» . فاعترضه محمـــــد ابن طلحة وقال : «بل على ابي» . فضحك مروان وقال : «بل اجعلوا الخلافة في ولد عثمان لانكم انما خرجتم تطالبون بدمه» . فقال طلحة: «كيف ندع شيوخ المهاجرين ونجعلها لابنائهم ؟» . فأجاب وهو يتمتم : «لا اراني اسعى الا لاخراجها من بني عبد مناف» .

فابتدرته أم المؤمنين قائلة : «أتريد ان تفرق امرنا يا مروان .؟ ليصل بالناس ابن اختي» . تعني عبد الله بن الزبير .

فلما سمعت أسماء كلام مروان لم تعد تستطيع صبرا ، ولاسيما بعد ان رأت عائشة تنتهره . فنهضت وأسرعت الى العريش واخترقت الجمع وهي ترتجف وقد امتقع لونها ، فلما رآها الناس بغتوا ، وكان طلحـــة والزبير يعرفانها ، فوقفت غير هيابة ولا وجلة ونظرت الى مروان وقالت : «أما كفاك يا مروان ما ايقظت من الفتنة في المدينة .؟ أما كفى انـــك السبب في مقتل الخليفة حتى جئت تلقي الشقاق بين بقية الصحابة ، والله لولا حرمة أم المؤمنين لأرقت دمك بين يديها . فلا اراك براجع عن غيك حتى تفتن المسلمين وتغري بعضهم ببعض» . والتفتت الى أم المؤمنين لترى ما يبدو منها .

فلما سمع القوم كلامها ، لاذوا بالصمت وهي ترتجـــف وتتجلد ، فأجابها مروان وهو يضحك وقال : «تذكرين اني قتلت الخليفة ، في حين لم يقتله الا صاحبك محمد ربيب علي ، وسوف يلقى كل منهما جزاء ما قدمت يداه» .

فقالت : «لا تنطق باسم ابن ابي بكر شقيق أم المؤمنين ، ولا تلفظ اسم ابن ابي طالب امير المؤمنين ، ووالله لو انه بيننا لتلعثم لسانـــك وما نجوت» .

فهم مروان بأن يجيبها ، فأسكتته أم المؤمنين قائلة : «أتذكر اخــي

محمدا يا مروان . اسكت . وأنت يا أسماء خففي عنك وأنت مريضة.
اذهبي الى فراشك» .

وكانت العجوز واقفة بجانبها فأمسكتها وخرجت بها من العريش وهي تكاد تقع لفرط اضطرابها ، فلما خرجتا من البستان صاحت أسماء بالعجوز قائلة : «اخرجي بي من هنا اني لا استطيع البقاء» .

قالت : «والى اين يا ابنتي ؟» . قالت : «الى يثرب» .

قالت : «كيف نذهب ؟ وماذا نفعل اذا افتقدتك أم المؤمنين فلم تجدك ؟ »

قالت : «لا أدري ما العمل ، ولكنني لا استطيع البقاء هنا ولا بد لي من الذهاب الى المدينة» . قالت : «لا استطيع الذهاب اليها الان ؟»

قالت : «اذهبي بي الى منزل آخر غير هذا المنزل» . قالت : «أتذهبين الى أم الفضل ؟»

قالت : «هيا بنا اليها» . قالت ذلك وتناثر الدمع من عينيها غيظا . فسارت بها العجوز الى منزل أم الفضل ، فلما دخلتا عليها رحبت بهما ، وقد استغربت مجيئهما ، رغم مرض أسماء .

أما أسماء فلم تكد تصل الى المنزل حتى عاودتها الحمى وأصابها الدوار ، فهمت بالاستلقاء على المصطبة امام البيت ، ولكن أم الفضل دعتها الى حجرتها فأبت وقالت وقد توردت وجنتاها من شدة الحمى: «خذوني الى المدينة ، احملوني الى الإمام علي لأطلعه على ما يكيدون .. انهم تواطأوا على الطلب بدم عثمان . ولو طلبوه من قاتله لعذرناهم ولكنهم يريدون عليا وأنا أعلم الناس ببراءته» . قالت ذلك وبكت .

فعجبت أم الفضل لقولها ، وشق عليها امرها وخافت عليها العاقبة وتاقت لسماع الخبر فقالت : «ما الذي حدث بعد مجيئي ؟»

فقصت العجوز عليها ما جرى في العريش ، فأجفلت وصاحت «ويلاه

لقد تقدمت الفتنة ، ليت عبد الله ابني هنا . اذن لحملته الخبر الى علي» .
فصاحت أسماء : «دعوني أذهب بالخبر ، دعوني أسر الى الجهاد دفاعا عن المتهم زورا . ان عليا يا قوم بريء من دم عثمان فكيف يطلبونه منه؟»

فقالت أم الفضل : «دعي هذا الي ، فاني مرسلة رسولا الى علي بكل ما وقع» . قالت ذلك ودعت خادما فجاءها برجل من جهينة يدعى ظفر ، فاستأجرته على ان يحمل كتابها الى علي بالخبر ، فركب الرجل هجينة وسار ، وأسماء تشيعه بنظرها وتود ان تكون على رحله .

فلندعها ولنرجع الى المدينة لنرى ماذا جرى لمحمد .

ودع محمد أسماء عند ركوبها الى مكة ، وعاد وفي نفسه شيء أقلقه لا يدري ما هو ، وكان قد خامره شيء من الخوف على أسماء ان تميل عنه الى الحسن بن علي ، ولكنه كان يحبه كثيرا وقد ربيا معا في حجر علي . فقضى مسافة الطريق غارقا في لجة الهواجس . ومما زاده قلقا ارساله أسماء على هذه الصورة وقد شغلته الغيرة قبل سفرها عن تقدير الامر حق قدره. فوقع في حيرة لا يدري ما يجيب به الحسن اذا سأله عنها . وكيف يعتذر او ينتحل سببا لسفرها وشعر لساعته بوطأة الحب وشدة سلطانه ، فأجال نظره في الطريق الذي سلكته أسماء وتلفت قلبه ، فحدثته نفسه ان يعرج على مكان يقضي فيه نهاره قبل الذهاب الى دار علي مخافة ان ينم ظاهره عند لقاء الحسن عما في باطنه . ولكنه لم يجد عذرا لتخلفه يومئذ والناس يتألبون جماعات ووحدانا من كل صوب ، ويؤمون منزل الامام علي وهم بين آمل وخائف وناصر وناقم وقد علم محمد ان بعض الناس قد بايع عليا وهم يضمرون السوء .

فقضى برهة تتقاذفه الهموم وهو يمشي فلم يشعر الا وهو بباب علي ورأى الناس قد تكاثفوا حوله والخيل في بستانه والجمال معقولة الى جذوع النخل والخدع والعبيد وقوف بينها . فذكر هول ما يشغل

عليا وبنيه في ذلك الحين من مهام الخلافة ، وأحب ان يشارك الحسن في حمل بعض العبء الى ان تنتهي الازمة .

فدخل الدار ومشى الى حيث تقيم أمه وقد عزم على كشف سره لها لعلها تواسيه ، فدخل فرآها جالسة وحدها والهم باد على وجهها فهشت له فحياها ورأت في وجهه انقباضا فابتدرته قائلة : «مالي اراك مشرد الذهن يا محمد ؟»

قال يغالطها : «ليس في نفسي شيء غير ما نحن فيه» .

قالت : «أخائف انت على مصير هذه الخلافة ؟»

قال : «لست بخائف ، ولكنني ارى المركب خشنا ، فان طلحة والزبير لم يبايعا الا كرها ، والكوفيون والبصريون على رأيهما ، فأخشى ان يدعوا الناس الى نقض البيعة» .

قالت : «لا تخف فقد تم الامر لأبي الحسن وحوله نخبة من الصحابة يشدون أزره فاذا أحسنوا الرأي استقام له الامر باذن الله» .

قال : «لا تغرنك كثرتهم وفيهم من يضمر غير ما يظهر .. ليت عبد الله هنا (عبد الله بن عباس) فان له رأيا سديدا وهو ابن عم امير المؤمنين » .

قالت : «لعله لا يزال في مكة منذ ان ذهب بالحجيج اليها» .

قال : «نعم» .

قالت : «ولكن لنا في المغيرة بن شعبة خير مشير ، وقد وقع الى انه دخل على امير المؤمنين في الصباح وما يزالان مختليين» .

فقال : «ان المغيرة يا أماه من خيرة الصحابة اصحاب الرأي والدهاء، ولا يخفى عليك انه احد دهاة العرب الاربعة» .

فقالت : «ومن هم الثلاثة الآخرون ؟»

قال : «معاوية بن ابي سفيان ، وعمرو بن العاص ، وزياد بن ابيه».

وما أتم محمد كلامه حتى سمع وقع أقدام عرف انها خطـــوات الحسن ، فبغت وقال : «هذا اخي الحسن ، فلعله يخبرنا بما دار بين الإمام علي والمغيرة» •

قالت : «ادعه» • فخرج محمد ليدعوه فاذا هو قادم ، فابتدره محمد بالسلام ، فرد الحسن تحيته ولم يزد عليها • فخشي محمد ان يكون في نفسه شيء ، فقال : «اهلا بأخي ابن امير المؤمنين ، لقد كنا في حديث الخلافة ، وترانا في شوق لمعرفة ما دار بين مولاي ابي الحسن والمغيرة» •

فجلس الحسن على وسادة بالقرب من الباب ، وتشاغل باصـــلاح عمامته ولم ذيل ردائه ، وهز رأسه ولم يجب •

فازداد قلق محمد وظهر الاضطراب على وجهه فتقدم اليه وألح عليه ان يطلعه على جلية الخبر وهو يحاذر ان يسمع منه لوما او عتابا بشأن أسماء ، فاذا به قد زفر زفرة وقال : «تسألني عن المغيرة ان حديثه لذو شجون » •

قال محمد : «وماذا عسى ان يكون ؟» • قال : «ان المغيرة صاحب رأي وحزم ، ولكن ابي لم يرض ان يعمل بما اشار به ، وقد سمعت ما قال وأعجبني رأيه ولكن امير المؤمنين رأى غير ما رآه» •

فقال محمد وقد اطمأن من ناحية أسماء : «وما هو الرأي الذي رآه ؟ »

قال : «انت تعلم ان بعض الناس بايعونا على دخل (يريد طلحـــة والزبير) وان أخشى ما نخشاه ليس من اهل المدينة ولا من اهل مكة • وانما من عمال الامصار في مصر والشام والكوفة والبصرة ، وأشـــد هؤلاء دهاء وأكثرهم عداوة معاوية بن ابي سفيان في الشام ، وهو كما تعلم ابن عم عثمان ، وكذلك ابن عامر في البصرة وهو ابن خال عثمان» •

قال محمد : «نعم ، ولكن بماذا اشار المغيرة ؟» • قال : «اشار على ابي

بأن يبقي عمال عثمان هؤلاء على اعمالهم ليأمن ثورتهم ، ولنرى ما يكون بعد ان يستقيم لنا الامر ، فلما أضر ابي على رأيه ، قال له : (اعزل من شئت واترك معاوية فان فيه جرأة وهو في اهل الشام ، ولك حجة في اثباته ، وكان عمر بن الخطاب قد ولاه الشام قبل عثمان) . فأقسم ابي لا يستعملن معاوية يومين ، فخرج المغيرة ولم يزد حرفا» .

فقال محمد : «أترى المغيرة مصيبا ؟»

قال : «نعم انه رأي الصواب لأن سكوتنا عن معاوية ورفاقه يهدئهم حتى نرى ما تؤول اليه الحال» .

فقالت أسماء أم محمد : «تمهل ريثما يأتي ابن أختي عبد الله بن عباس من مكة فان الامام يقدر رأيه حق قدره» .

قال الحسن : «لا اظن ابي يلين فقد آنست منه اصرارا شديدا ، فلنصبر عسى ان يحدث ابن عباس امرا» . قال ذلك وسكت هنيهة يفكر ثم انبسطت أسرته فجأة كأنه تذكر امرا سره وتبسم وقال : « ان شؤون الخلافة شغلتني عن امر آخر كنت قد ذكرته لك تلميحا ، وكنت قد عزمت على ذكره لأبي اليوم فأمسكني عن ذلك اشتغاله بالمغيرة وحديثه » .

فأدرك محمد انه يريد خطبة أسماء ، فكادت البغتة ان تظهر على وجهه ولكنه تجلد وقال : «وماذا عسى ان يكون ذلك الامر ؟»

قال : «لا أظنك تجهل ما في نفسي نحو أسماء ، تلك الفتاة الاموية التي نزلت ضيفة علينا» . ثم حول وجهه الى أم محمد وقال : «انها يا خالتي بارعة الجمال وفي وجهها مهابة يندر مثلها في النساء» .

فارتبك محمد في امره ولم يدر بماذا يجيب ، ولكنه تجلد وقال : «لماذا لم تبد رغبتك قبل سفرها ؟» . فبغت الحسن وقال : «اين سافرت ؟» . قال : «الى مكة في صباح هذا اليوم» .

قال : «وكيف ذلك ، وما الذي حملها على السفر ، ومن سافر بها وهي وحيدة ؟»

قال : «سافرت مع عجوز من قرابتي ورجل من بني الليث من أخوال أختي أم المؤمنين» .

فقطب الحسن وجهه وقال : «وما الذي حملها على السفر ؟»

قال : «سمعتها تذكر انها تؤثر البعد عن المدينة في اثناء هذا الاضطراب ، وطالما ارادت التعرف الى أم المؤمنين فأظنها ذهبت لتقضي عندها بضعة ايام ثم تعود» .

فأطرق الحسن يفكر ، ثم قال : «لا بأس من ذهابها الان وسأنتهز فرصة يخلو فيها وجه ابي طالب فأطلب منه ان يخطبها لي ، فاذا لم تكن قد عادت نبعث في استقدامها» . قال ذلك وخرج .

فبغت محمد وامتقع لونه ولحظت أمه ذلك فيه فقالت : «لقد أهمك حديث الحسن ؟» . فتنهد ولم يجب .

فقالت : «مالك لا تجيب ؟» . فتردد بين ان يكشف لها سره وبين ان يظل على كتمانه ، ولكنه لم يعد يستطيع صبرا فقال : «لقد أهمني الامر اكثر مما تظنين بكثير» .

قالت : «ولماذا ؟» . قال : «ان الفتاة التي اشار اليها الحسن مخطوبة» . قالت : «ولمن ؟»

قال : «لي» . قالت : «ماذا تقول ؟» . قال : «هذا هو الصدق» .

قالت : «وكيف يطلبها هو لنفسه ؟» . قال : «لانه لا يدري من الامر شيئا» .

قالت : «ولماذا لم تطلعني على هذا من قبل ؟»

قال : «كنت قد عزمت على ذلك وجئت بها اليك فلم اجدك» .

قالت : «وما العمل الان ؟» . قال : «لا أدري وسأصبر» . قال ذلك

وحرق أسنانه .

قالت : «أتغضب اخاك الحسن من اجلها ؟» . قال : «معاذ الله ، فأنت تعلمين حبي له ، ولكنني سأرى ما يأتي به القدر» . ثم خرج وقد اخذ القلق منه مأخذا عظيما .

- ١١ -

عبد الله بن عباس

مرت ايام والحسن يترقب فرصة يخاطب فيها أباه في شأن أسماء فلم يتسن له ذلك لاشتغالهم جميعا في ايفاد العمال وتقلب الاحوال . فان الامام عليا لم يهدأ له بال منذ ولي الخلافة . وكان اكثر عمال الامصار ناقمين عليه ، ولعله لو اطاع المغيرة لخفف شيئا من نقمتهم ، ولكنه أصر على ان يستبدل بهم عمالا من رجاله وموضع ثقته .

وكان الحسن متهيبا مفاتحة ابيه في امر الخطبة لئلا يخيل اليه انه اشتغل بالحب عن الخلافة فبدا له ان ينتظر مجيء عبد الله بن عباس فيوسطه في الامر لما يعلم من دالته على ابيه . وذكر ذلك لمحمد بن ابي بكر فلم يجبه ولكنه قلق واشتدت غيرته . فلما سمع محمد بمجيء عبد الله بن عباس اراد ان يشغله بحديث الخلافة عن السعي في الخطبة، فأسرع اليه قبل ان يعلم الحسن بمجيئه وأنبأه بما كان من حديث المغيرة ابن شعبة ، وما اشار به على الإمام علي ، الى ان قال : «قد كنا في انتظار مجيئك لعلك تثني الامام عن عزمه ، فقد أصر على خلع عمال عثمان ، وهم ناقمون ولهم أنصار ، ومن بينهم معاوية» .

فقال عبد الله : «اصاب المغيرة والله ونعم الرأي رأيه».

قال محمد : «وهذا ما نراه نحن جميعا فما العمل ؟»

قال : «ها أنذا ذاهب اليه الساعة» . قال ذلك ونهض وقد أهمه الامر كثيرا لغيرته على الاسلام ولقرابته من الرسول ومن علي .

وكان ابن عباس يناهز الاربعين من العمر ، جميل الوجه ، ابيض اللون مشربا صفرة ، جسيما فصيح اللسان . وكان أعلم الناس بالحديث والشعر وكلام العرب ، سديد الرأي ، عالما بتفسير القرآن وبكل علم من علوم تلك الايام ، لم يدرك احد من اهل زمانه ما ادركه . فلما سمع كلام محمد أسرع الى عمامته وجبته وهرع الى منزل الأمام علي ومحمد يتبعه .

ولما وصلا الى الدار رأيا المغيرة بن شعبة واقفا بباب حجرة الامام علي يشد نعاله فأدركا انه كان عنده . فقال عبد الله لمحمد : «أتراه جاءه ثانية ام لعلها الزيارة التي ذكرت ؟»

قال : «هذه غيرها ولا ادري ما جاء به» .

وبينما هما في ذلك ، مر بهما الحسن فلما رأى عبد الله بغت ووقف وسلم عليه ودعاه الى حجرته وهو يريد ان يذكر له امر الخطبة ، فرآه في شاغل آخر وقد أسرع الى حجرة علي ، فدخل معه ومحمد في اثرهما.

★ ★ ★

فلما أقبل عبد الله على الإمام حياه بتحية الخلافة قائلا : «السلام عليك يا امير المؤمنين» . وكانت اول مرة رآه فيها بعد خلافته . وكان علي جاثيا وبين يديه مصحف فلما سمع تحية عبد الله أحسن ردها ورحب به وقال : «وعليك السلام يا ابن عم الرسول» . قال ذلك والانقباض ظاهر على وجهه كأنه كان في جدال عنيف . فمشى عبد الله حتى جلس

بجانبه ، وجلس الحسن ومحمد في بعض جوانب الحجرة .

فلما استقر بهم المقام قال ابن عباس : «رأيت المغيرة خارجا من عندك وعهدي به ذو دهاء وسداد رأي فهل أحدث حدثا ؟»

قال علي : «والله لقد أخلف ظني فقد اشار علي منذ ايام بأن أقـر معاوية وسائر عمال عثمان على أعمالهم . وانهم هم الذين بعثوها فتنة ، أودت بعثمان وأخذوا يؤلبون الناس علينا . فخالفته فيما ذهب اليه . وأبيت الا عزلهم ، فتقدم الي بأن أبقي معاوية على الشام ، فأقسمت لا أستعملنه يومين فخرج وهو يرى ان ستبدي الايام صحة ما رآه . ثم عاد اليوم فقال : (اني اشرت عليك اول مرة بالذي اشرت وخالفتني فيه، ثم رأيت بعد ذلك ان تصنع الذي رأيت فتعزلهم وتستعين بمن تثق به، فقد كفى الله وهم أهون شوكة مما كان) . فحمدت له رجوعه الـى الصواب » .

قال ابن عباس : «يا ابن عم ، أترى المغيرة قد صدقك اليوم ؟. أما انا فما أظنه والله الا قد نصحك في الاولى وخدعك في الثانية . ان معاوية وأصحابه اهل دنيا . فمتى تثبتهم لا يبالون من ولي هذا الامر ، ومتى تعزلهم يقولون أخذ هذا الامر بغير شورى عثمان . ويؤلبون عليـك فتنتقض عليك الشام وأهل العراق . واني لا آمن طلحة والزبير ان يكرا عليك . ولهذا أشير بأن تثبت معاوية فاذا بايع فعلي ان أقلعه من منزله».

وكان ابن عباس يتكلم وعلي مطرق مقطب الوجه ، وقد اقلقه الامـر كثيرا . وأما الحسن ومحمد فكانا يسمعان كلام ابن عباس ويودان لو يقتنع الامام فيقر معاوية تجنبا للحرب . فلما فرغ ابن عباس من كلامه لبثا ينتظران ما يقوله علي فاذا هو لا يزال مطرقا عابسا ، والسكـوت يسود الحجرة ولا ينبس احد ببنت شفة ، ثم رفع علي رأسه ونظر الى ابن عباس ويده على سيفه وقال : «والله لا اعطيه السيف» . ثم رد يده

الى لحيته وقال :

«وما ميتة ان متها غير عاجز   بعار اذا ما غالت النفس غولها»

فلما سمع ابن عباس قوله ورأى ما بدا على وجهه من امــــــارات الغضب ، شق عليه الامر كأنه رأى بأم رأسه المركب الخشن الذي هم علي بركوبه وما يتوقعه من سوء العقبى وكانت له دالة ووجاهة عنـــده فقال له : «انت رجل شجاع لست صاحب سيا سة ولا رأي في الحرب. أما سمعت رسول الله (ص) يقول : (الحرب خداعة) ؟» أما والله لئن أطعتني لأصدرنهم بعد ورد ، ولاتركنهم ينظرون في دبر الامـــــور لا يعرفون ما كان وجهها في غير نقصان عليك ولا اثم لك» . وما فرغ من كلامه حتى اندى العرق جبينه حمية وغيرة ، ولكنه لم يكد يفرغ حتى ابتدره علي قائلا : «يا ابن عباس ، لست من هناتك ولا من هنات معاوية في شيء» .

قال ابن عباس : «أطعني واغلق بابك عليك فان العرب تجول جولة وتضطرب ولا تجد غيرك . فانك والله ان نهضت مع هؤلاء اليـــــوم ليحملنك الناس دم عثمان غدا» .

وكان ابن عباس يتكلم ولا تلوح على حركاته اشارة الرضى . فلما فرغ من كلامه قال له علي : «تشير علي وأرى فاذا عصيتك فأطعني» .

فقال ابن عباس : «افعل . ان أيسر مالك عندي الطاعة» .

فقال علي : «تسير الى الشام فقد وليتكها» .

قال ابن عباس : «ما هذا برأي فان معاوية رجل من بني أمية ، وهو ابن عم عثمان وعامله ، ولست آمن ان يضرب عنقي نقمة لعثمان ، وان أدنى ما هو صانع ان يحبسني فيتحكم علي لقرابتي منك ، وان كل ما حمل عليك حمل علي ، ولكن اكتب الى معاوية فمنه وعده» . فقطع علي كلامه قائلا : «لا والله لا كان هذا ابدا» .

فسكت ابن عباس ولبث برهة ثم استأذن وخرج • وخرج في اثره الحسن ومحمد وكأن على رؤوسهم الطير • اما علي فأمر في انفاذ عماله الى الامصار ، فبعث عثمان بن شهاب الى الكوفة ، وعبيد الله بن عباس (اخا عبد الله) على اليمن ، وقيسا بن سعد الى مصر ، وسهلا بن حنيف الى الشام •

- ١٢ -

الفتنة والحرب

وقضى علي في ذلك اياما لا يخلو مجلسه من الامراء يخوضون في شؤون الخلافة ، فلم ير الحسن سبيلا الى مفاتحته في شأن أسماء ، وكان هو نفسه في شاغل بتلك الشؤون • فلما فرغ علي من تنصيب العمال ، وقل ورود الناس على بابه ، رأى الحسن ان يخاطبه في الامر، وكان يطلع محمدا على ما ينويه وهو لا يعلم ما في نفسه من امر أسماء ، وكان محمد اذا خاطبه الحسن في هذا حدثته نفسه ان يطلعه على ما يكنه لها في قلبه ثم يمسك • فقضى اياما لا يدري ما يعمل ، وكان اذا ذكر له الحسن انه عزم على مخاطبة ابيه في الامر سكت او نقل الحديث الى شيء آخر ، فلقي الحسن محمدا ذات يوم قاصدا الى المسجد وقال له : «ارى امير المؤمنين قد فرغ من ارسال العمال الى الامصار ولا ارى امير المؤمنين أصلح من هذه الساعة لأكلمه في شأن أسماء ، فأرجو منك ان تكون عونا لي في هذا» •

فحار محمد في امره لا يدري بم يجيبه فقد كان يتنازعه عاملان :

حب أسماء ، وصداقة الحسن • فلبث لا يبدي ولا يعيد ثم حانت منه التفاتة الى ما بعد سور المدينة فأخذ يحدق كأنه يرى شبحا قادما لـم يتبينه : ونظر الحسن ليرى هدف محمد في تحديقه فتراءى له هجـان مقبل من بعيد •

قال محمد : «كأني به رسول» • فقال : «ممن يكون يا ترى ؟»

قال محمد وقد سر لتبديل الحديث: «اني والله ما رأيت رسولا مقبلا الا تشاءمت خيفة ان يأتينا بما يسوء» •

فقال الحسن : «ومن اين ترى الرسول قادما ؟»

قال : «يظهر لي انه من الشام فلعله رسول معاوية» •

قال الحسن : «هيا نستقبله وسنرى ما هناك» •

قال محمد : «هلم بنا فانه ان كان رسول معاوية فما جاء الا لحرب لا سلم ، لان امير المؤمنين كتب اليه منذ ثلاثة اشهر ولم يجب بعد» • ثم انطلقا ، وكان الرسول قد دخل باب المدينة ، فلما دنا منهما تفرسا فاذا هو رجل من بني عبس وعليه قيافة اهل الشام وقد التف بالعباءة وتلثم وعلاه غبار السفر ، فلما دخل المدينة اخرج من جيبه صحيفة مختومـة قبض عليها من أسفلها ورفعها والناس وراءه ينظرون اليها فاستوقفـه محمد وقال له : «ممن انت ؟»

قال الرسول : «من معاوية بن ابي سفيان» • قال : «الى من ؟»

قال : «الى علي بن ابي طالب» •

قال الحسن : «وماذا تحمل اليه ؟» • قال : «هذا الكتاب» • فقال: «اذهب الى امير المؤمنين انه في داره» • فانطلق الرسول وهما في اثره وقد شغلا بما عسى ان يكونَ في ذلك الكتاب ، ولولا حرمة امـير المؤمنين لفضا الختم تلهفا على علم ما فيه •

ووصل الرسول الى دار علي ، فترجل واشتغل بعقل جمله ، فسبقه

محمد والحسن الى الخليفة وكان متكئا في حجرته فأعلماه بقدوم الرسول فأمر بادخاله اليه •

فدخل وعلي جالس ، ومحمد والحسن وغيرهما من الصحابة بين يديه ، فتقدم الرسول في غير تهيب ورفع الكتاب بيده ، فهم بعض الحاضرين بأن يتناوله منه ، ولكنه ابى ان يسلمه لغير الإمام علي •

فمد علي يده وتناول الكتاب ، فقرأ على ظاهره : «من معاوية الى علي» • ثم فضه والناس كأن على رؤوسهم الطير ، فلم يجد فيه شيئا فبغت وغضب ، والتفت الى الرسول وقال : «ما وراءك ؟» • قال : «آمن انا ؟»

قال : «نعم ان الرسول آمن» • قال : «تركت ورائي قوما لا يرضون الا بالقود» • قال علي : «ممن ؟»

قال : «من خيط رقبتك • وتركت ورائي ستين الف شيخ ، يبكون تحت قميص عثمان وهو منصوب لهم قد جعلوه على منبر دمشق» •

فنظر علي اليه وقال : «أمني يطلبون دم عثمان ؟ أللهم اني ابرأ اليك من دم عثمان ، قد نجا والله قتلة عثمان الا من يشاء الله» • قال ذلك وأدار وجهه عن الرسول كأنه لم يعد يستطيع ان يراه وأشار اليه ان يخرج •

قال : «أأخرج وأنا آمن ؟» • قال : «وأنت آمن» • فمشى الرجل يريد الخروج فاعترضه بعض رجال علي وهموا بقتله ، فصاح فيهم علي ومنعهم ، فنجا العبسي وهو لا يكاد يصدق •

وأشار الإمام الى الناس فخرجوا ، وخلا الى خاصته وفيهم اولاده ومحمد ابن ابي بكر ، وبعث الى عبد الله بن عباس ، وقال لهم : «قد سمعتم ما قاله معاوية فلم يبق ثمة بد من القتال فتهيأوا» • فقالوا بصوت واحد : «انا معك أنى سرت ، وما تندبنا اليه فانا طوع امرك» •

فجند جندا عقد لواءه لابنه محمد بن الحنفية ، وجعل علي ميمنته عبد الله بن عباس وعلى ميسرته عمرو بن سلمة . وتثاقل اهل المدينة في بادىء الامر ولكنهم اطاعوا اخيرا .

وقضى علي اياما يعد الجيش ويجند الجند ، ومحمد والحسن في مقدمة العاملين معه . ولكنه لم يندب محمدا للقتال فصغرت نفسه في عينه لعلمه انه أولى بالمسير الى الحرب ، وكان يذكر أسماء فيود لو يبقى ليعلم ما يؤول اليه امرها ، ثم ترجع اليه حماسته ليقوم على خدمة علي ويحمل معه عبء القتال .

ذهب محمد بن ابي بكر الى علي ، فرآه وحده في غرفته ، ورأى في يده رقعة يقرؤها ويعيد تلاوتها ، وقد اخذ القلق منه مأخذا عظيما . فتهيب الدخول عليه وظل واقفا عند الباب مترددا فلمحه علي فناداه فدخل وحيى ، فرد علي التحية وهو مقطب الوجه فلم يجرؤ محمد ان يبدأه بالكلام وتربص عساه ان يسمع منه خبرا جديدا . وظل علي يذرع الحجرة حتى وقف الى نافذة من نوافذها وأجال نظره الى الافق وهو غارق في بحار التفكير ، ثم تحول الى محمد بغتة وقال : «اين الحسن؟»

قال : «لعله في المسجد فهل من أمر اقوم به ؟»

قال : «سأطلعك على ما حدث عما قليل . وبماذا جئت انت ، اني ارى في وجهك خبرا ؟»

قال : «انما جئت ألتمس من ابي الحسن ان يساويني بأهل الثقة من رجاله » .

قال : «وماذا تعني ؟»

قال : «أعني انك استنفرت الناس ، وأمرت من أمرت للجهاد ، وتركتني وأنا أولى منهم به» .

فتبسم الإمام علي تبسما يشوبه قلق وقال : «بورك فيك يا ابن اول

الخلفاء ، لأنت عندي بمنزلة ولدي ولكنني امرت سميك محمـــــدا ابن الحنفية في هذه الحملة واستبقيتك انت لأخرى» •

قال: «اني طوع بناتك، وأراني مكلفا بعبء هذهالحرب قبلسواي» •

قال : «لا تستعجل الامر يا بني ، فلن تعدم طريقا تسير فيه الى حرب اخرى ، فقد كثرت اليها الطرق» •

فلمح محمد من وراء ذلك امرا مكتوما فقال : «وماذا يعني مولاي بالحرب الاخرى وهل حدث ما يدعو الى حرب ؟»

فألقى علي الرقعة اليه وقال : «اقرأ هذه فقد اتتنـــي الان بالخبر اليقين » •

فتناولها محمد ونظر فيها فاذا هي كتاب أم الفضل من مكة تنبىء الإمام عليا باجتماع طلحة والزبير وأم المؤمنين على الطلب بدم عثمان وانهم تهيأوا للسير الى البصرة •

فبغت محمد وتلا الرقعة مثنى وثلاث • وتحول علي الى مصحف على منضدة امامه فتناوله وجعل يقلب صفحاته •

وهم محمد ان يتكلم فرآه يقلب صفحات القرآن فلبث صامتا ، وقد هاله ما احاط بهذا الخليفة من البلاء وتذكر أخته وأسماء عندها •

ورفع علي رأسه ونظر الى محمد وقال له : «أرأيت ما فعلت بنـــا أختك ؟ »

فقال محمد : «اني أعجب من عملها ولا اكاد أصدق انها تقدم على هذا • فما الذي حملهم جميعا على الانتقاض ؟»

قال علي : «أتسألني يا محمد عن السبب وقد أنبأتكم بهذه الاحداث قبل وقوعها • كم قلت لكم : (دعوا عثمان وشأنه لا تقتلوه لان قتلـــه سيؤدي الى الفتنة ، لطمع بعضهم في الخلافة ، فلو ظل عثمان حيا لم يكن ثمة ما يبعث على هذه الحروب ، وقد بايعوني وأنا أعلم انهـــم

يضمرون غير ما يظهرون ، فان طلحة والزبير يريدها كل منهما لنفسه دون سواه ، فهما في انقسام عليها • وسترى اذا كتب لهما النصر ان الحرب ستقوم بينهما حتى يفني احدهما الآخر ويقتل الالوف من المسلمين ، ولو تيقنت ان خلعي من الخلافة يخمد الفتنة لتنازلت عنها اليوم • ولكنها تصبح بعدي فوضى كل منهم يتطلبها لنفسه • ناهيك بمعاوية في الشام وما يجول في خاطره من الطمع فيها ، ولا يغرنك ما يدعيه من الثأر لدم عثمان ، لانه لو أهمه لنصره قبل ان يقتل • ولكنه اتخذها ذريعة الى التماس الخلافة لنفسه ، على علمه اني أولى الناس بها • فالغيرة على الاسلام تدعوني الى الدفاع عن خلافتي لعلهم يجمعون على بيعتي فترقد الفتنة • وأما خروجها من يدي طوعا او كرها فانه يدعو الى فتنة عظمى اخشى ان تقضي على الاسلام والعياذ بالله» •

وكان يتكلم والعرق يقطر من جبينه وخديه على لحيته ، وقد احمرت عيناه واغرورقتا بالدمع • وتجلت في وجهه ملامح تشف عما قام في نفسه من الغيرة على الاسلام ، فازداد مهابة حتى لم يعد محمد يستطيع النظر اليه تهيبا من غضبه وخجلا من نفسه لانه كان في جملة الذين رأوا قتل عثمان ، فارتج عليه ولبث صامتا •

وكأنه اراد ان يعتذر لأخته فقال : «يلوح لي يا مولاي ان أختي لم تقم للأمر الا بتحريض طلحة والزبير ، وقد خرجا من المدينة غاضبين واني لأرجو ان لقيتها ان أحولها عن عزمها • ولكنني لم أر وجه الحكمة في مسيرهم الى البصرة دون سواها» •

قال : «أظنهم رأوا اهل المدينة بايعوني فاستنهضوا اهل مكة على نقض البيعة وساروا يفعلون مثل ذلك في البصرة والكوفة» •

قال محمد : «وهل سألت الرسول عن تفصيل الامر ؟»

قال : «لم أسأله الا قليلا» •

فقال : «أتأذن لي أن أستقصي منه ؟»

قال : «لا اراه يعلم شيئا كثيرا ، وأرى ان تسير الى مكة لتستطلع سر الامر بنفسك ، وأنت أجدر الناس بذلك وأختك أم المؤمنين في جملة القائمين به» •

فسر محمد بهذه المهمة سرورا عظيما لانه يخدم بها الاسلام ويرضي الامام ويستطلع حال أسماء •

فأجاب قائلا : «لبيك يا مولاي وعلى خيرة الله وأرجو ان أحول اختي عن عزمها فقد يكون طلحة والزبير هما اللذان حرضاها عليه • وهل أكتم مسيري ؟»

قال : «لا ارى ان يعلم به احد» •

قال : «هل تأذن لي ان ارى الرسول الذي حمل الكتاب اليك لأسأله شيئا ؟»

قال : «انه في دار الاضياف» •

فخرج محمد وسار الى دار الاضياف ، فلقي الرسول فعرفه فسأله عن عجوة هل لقيها في مكة ؟ فأجاب بأنه رآها يوم سفره عند أم الفضل ومعها فتاة مريضة •

فقال محمد : «وهل تعرف الفتاة ؟»

قال : «لا اعرفها فانها غريبة الدار ولكنني علمت انها جاءت مع العجوز عند أم المؤمنين ، ثم انتقلت الى بيت أم الفضل ورأيتها تشكو من حمى شديدة» •

فأحس محمد بنار تلك الحمى في أحشائه وخاف ان تكون أسماء قد أصيبت بسوء ، فأصبح يدفعه الى الاسراع في الرحيل دافعان : خدمة امير المؤمنين ، والبحث عن أسماء •

فودع عليا وخرج لساعته وركب هجينا واصطحب خادما من السبئية

وركب قاصدا الى مكة يود لو يطير اليها على اجنحة النسيم • فبات ليلته في قباء ، فتذكر اول مرة رأى فيها أسماء تندب أمها ، وأصبح قبل الفجر على هجينه يطوي السهل والوعر وهو لا يصدق انه يصل الى مكة ويرى أسماء على قيد الحياة •

وكان كلما اقترب من مكة تعاظم الامر لديه ، وثارت فيه الحمية الاسلامية والغيرة على الامام علي ، وهان عليه امر الحب وعوامله • فلم يخل باله من هذه الهواجس لحظة ، وتذكر نصح أسماء وما تنبأت به من عواقب الفتنة، وكم اشارت على الناس بالكف عن عثمان منادية ببراءة ساحته ، فعظمت في عينيه وازداد اعجابا بتعقلها ودقة نظرها ، وأيقن انهم لو انصاعوا الى رأيها لكانوا تجنبوا هذه الحروب •

قضى طريقه كله في مثل هذه الخواطر ، وكان يستحث جمله لا يلتفت يمنة ولا يسرة مخافة ان يضيع عليه الوقت ، فأمسى وهو على بضعة أميال من مكة فشق عليه المبيت خارجها وصمم على مواصلة السير حتى يدخلها ولو ليلا • فأشار عليه خادمه ان يستريح هنيهة ويريح الجمل ريثما يطلع القمر فيسيران على نوره فاستحسن الرأي ونزلا بمكان رأيا فيه بيتا عند بابه شيخ توسد حصيرا من سعف النخل وأمامه جرار وأكواب من الخشب يسقي بها من يستسقيه في تلك الصحراء •

فسلم على الشيخ وحياه ، فرحب به ونادى ابنة له وعيالا ليقدموا لضيفهم ما يحتاج اليه من الماء او العلف للجمال • فصعد محمد الى رابية خلا فيها الى نفسه وقد غابت الشمس فأجال نظره الى مغيبها في الافق وكان الجو صافيا وقد ظهر الشفق بألوانه من خلال أغصان الاشجار المبعثرة على الآكام • وكان الجو قد هدأ فلم يعد النسيم يهب الا عليلا وأوت الطيور الى أعشاشها الا الخفاش فانه خرج يطير • فاتكأ محمد على بساط فرشه له خادمه وعيناه شاخصتان الى الافق يراقب تلونه ، فما

زالت ألوانه تتحول من الزهو الى الكمود حتى خيم الظلام ، فأوقـــد الشيخ نارا يهتدي بها المارة الى ذلك المستقى • وظل محمد غارقا في هواجسه حتى غاب وجدانه فنبهه ضب مر عند قدميه فوقف وقد لفت نظره من الافق أشباح تتراءى بينه وبين السماء فتفرس فيها فاذا هي بضعة جمال على احدها هودج وعلى سائرها أناس قد حجب البعد هيئتهم، وأسرعوا في المسير فخيل اليه انهم خارجون من مكة يريدون المدينة • فلما توارووا عن بصره ولم ير احدا في اثرهم علم انهم ليسوا من الطلائع• ولكنه عجب من خروجهم من مكة في ذلك الليل واسراعهم بالسير في غير الطريق العام كأنهم سائرون خلسة ، وتمنى ان يعلم امرهم • ولكن الظلام حجبهم عنه فعاد الى هواجسه•

ولم تمض هنيهة حتى طلع القمر من وراء تلك الأكمة كأنه رقيب أطل للكشف عن لصوص في الظلام فلما رأوا وجهه بادروا الى الفرار الا من كان منهم قريبا ولم يستطع فرارا فاختبأ وراء التلال وفي أعماق الاودية ثم لحق برفاقه وتلاشى • وكان القمر ساعتئذ دون البدر ، وقد ابيــض وجهه وسطع نوره فحرك ما في نفس محمد من الشجون فنادى خادمه فهيأ الهجن وودع الشيخ وركب قاصدا الى مكة •

★★★

ولم يسر ساعة حتى أشرف على مكة وهي في منبسط من الارض تحدق بها جبال من كل ناحية ، فصعد الى أكمة وأطل منها على ضوء القمر ، فكانت الكعبة اول ما لفت نظره • وكان يتوقع ان يرى مضارب او جنودا في مكة او حولها فلم ير شيئا ، فواصل السير يريد منزل أخته أم المؤمنين ، فمر بالاسواق فلم يجد ما كان ينتظره من الجلبــة والازدحام حتى بلغ دار اخته فترجل عند بابها وقرعه فأطل عليه عبــد

حبشي عرف من صوته انه من عبيد أم المؤمنين فناداه باسمه ففتح له الباب فدخل فرأى المنزل خاليا فسأله عن أم المؤمنين فقال : «انها خرجت من مكة بالامس» •

قال : «والى اين ؟» • قال : «ألم تسمع بما اجمعوا عليه ؟»

قال : «هل ساروا الى البصرة ؟» • قال : «نعم» •

فسأله عمن سار معها فأنبأه ، فاستعاذ بالله وتكدر لوصوله بعد سفرهم ، وأراد العبد ان يحل جمله ويهيىء له الطعام فقال : «لا تفعل اني خارج وقد اعود» • وأمر خادمه ان يمكث هناك حتى يرجع وخرج وهو بلباس السفر قاصدا الى بيت أم الفضل وهو يكاد يتعثر بأذياله مسرعة مشيه فوصل الى منزلها فرآه مغلقا وقد أطفئت مصابيحه ، فظن اهله نياما فتردد في ان يوقظهم او يصبر الى الغد ولكن شوقه الى رؤية أسماء هون عليه ايقاظهم • فدنا من الباب وأمسك بحلقته وشدها فرأى الباب موصدا فقرعه قرعا شديدا فأجابه البستاني • فقال : «افتح» • فلما فتح سأله عن أم الفضل فقال : «انها ذهبت الى فراشها وأظنها لم تنم» •

قال : «قل لها ان ابن اختك محمدا بالباب» •

فلما علم البستاني انه ابن ابي بكر هرول الى مصباح اناره ، ودعا محمدا الى الجلوس على المصطبة ، ودخل الى أم الفضل فأخبرها فأسرعت اليه وقد علتها البغتة وصاحت قبل ان يحييها : «ما الذي جاء بك يا محمد• وأين كنت ؟»

فعجب للهفتها وقال : «اني قادم من المدينة • اين أسماء ؟»

قالت : «كيف تسألني عنها وقد بعثت في استقدامها ؟»

قال : «الى اين ؟» •• قالت : «ألم تبعث اليها كتابا تستقدمها به؟»

فقال : «ومن قال لك ذلك ؟»

قالت : «رأيت رسولك بأم عيني ومعه كتابك دفعه اليها عند العصر

وكانت لا تزال ضعيفة لا تقوى على السفر فلم تصبر الى الغد وشدت رحلها وسافرت» .

قال : «ماذا تقولين ؟» هل سافرت أسماء ؟ لقد زوروا الكتاب على لساني . من جرؤ ان يفعل ذلك . من هو النذل الذي أقدم على هذه الجريمة ؟»

فضربت أم الفضل يدا بيد وصاحت : «ماذا تقول يا محمد ؟»

فأخذ محمد ولم يجب ثم قال : «في أي الطرق سارت ؟»

قالت : «سارت في هذا الطريق المؤدي الى المدينة» .

فتذكر محمد الاشباح التي رآها خارج مكة ، وقال : «لقد لقيتها والله في طريقي ، يا ليتني اعترضت ذلك الركب وهي معهم . ولو كانت في عافيتها لما خفت عليها بأسا ولكنها مريضة فأخشى ان أحرجوها ان تموت غيظا . لا حول ولا قوة الا بالله» . وصمت برهة يفكر فلم يستطع ادراك سر الامر ثم هب من مكانه وقال : «أستودعك الله» . وخرج .

قالت : «تمهل يا محمد» . قال : «ان الوقت ثمين ، دعيني أتعقب الركب الذين رأيتهم في طريقي لعلي أظفر بها معهم» . ولم يكد يخرج من الباب حتى وقف بغتة كأن شيئا اعترضه فعاد الى أم الفضل وسألها عن الحملة ووجهة مسيرها ، فقصت عليه خبرها فوعى ذلك في ذهنه وخرج مسرعا يلتمس الطريق الذي رأى الركب سائرين فيه .

فمر بخادمه في منزل اخته فرآه غارقا في نومه من شدة التعب وقد أرسل الجمال الى المربط للشرب والعلف ، فأيقظه وأمره ان يتهيأ للرجوع فنهض وعيناه لا تنفتحان من النعاس . وعلم اهل المنزل بمجيء محمد فجاءه قيم الدار يدعوه الى الطعام فاعتذر بأنه لا يستطيع المكث ، ولما ألح عليه قيم الدار وأظهر له ان الجمال تحتاج الى الراحة اقتنع وأكل قليلا مما أعدوه وهو يحث الخادم للتأهب للمسير . وما لبث ان ركب وسار

على أسرع ما يكون . وكان القمر قد تكبد السماء وصفا الجو فالتمس الطريق الذي ظن ان الركب ساروا فيه ، فقضى برهة لا يتكلم ولا يسمع صوتا الا جعجعة الجمال . وانتصف الليل والخادم يتوقع ان يأمره بالنزول للمبيت فلم ير الا حثا على الاسراع ، ثم رآه يسلك طريقا غير الذي جاءوا فيه فتبهه الى ذلك مخافة ان يكون قد ضل السبيل ، فأجابه بأنه يعرف الطرق ولا يحتاج الى تنبيه ، فسكت وظل سائرا حتى بلغا مكانا يتشعب فيه الطريق الى شعبتين احداهما تتصل بطريق المدينة والاخرى تنتهي الى طريق البصرة ، فوقفا هناك صامتين .

* * *

لم يجرؤ الخادم ان يستفهم من محمد عما يريد ، وان كان قد رابه قلقه وغضبه . فلما وقفا في مفترق الطرق وكان الرجل من النباهة والذكاء على جانب عظيم عارفا بالاسفار خبيرا بمسالك البر حاذقا في قيافة الاثر ، تشجع وسأله : «هل من خدمة أقدمها لمولاي ؟»

وكأن محمدا أفاق من سبات ، فانتبه وتذكر مهارة خادمه في قص الاثر فقال في نفسه : «لعله ينفعنا» .

وكان الخادم كهلا عركه الدهر ، قضى معظم ايامه في الاسفار وتحمل مشاقها ، وكان طويل القامة سريع الحركة لا يبالي بالتعب ولا يخاف الموت فقال له محمد : «هل لك في قيافة الاثر يا مسعود ؟»

قال : «اني من أمهر القائفين يا مولاي» .

قال : «أترى على الرمل أثرا لمشاة او فرسان ؟ وهل تستطيع تحقق ذلك على ضوء القمر ؟»

قال : «نعم يا مولاي» . ونزل عن راحلته وجعل يتفرس في رمال الطريق كأنه يقرأ كتابا ، ومحمد بالقرب منه يراقب حركاته ، فرآه يتنقل

بخفة ولباقة فلا يضع قدمه الا حيث يرى انها لا تفسد اثرا سابقا ، وما زال يروح ويجيء وهو يتفرس ويعد ويحسب ويقيس بأشباره وأصابعه ويراقب جهة الاقدام او الخفاف او الحوافر ، ومحمد يعجب لما يبدو من خفته وحذقه حتى كاد يمل الانتظار ، وأدرك مسعود قلقه فقال وهو لا يزال يتفرس في الرمال : «لا تضجر يا مولاي من طول الانتظار فاني اري ارتباكا في الركب الذين مروا من هذا المكان وكأنهم وقفوا فيه برهة يروحون ويجيئون وربما تضاربوا وتقاتلوا ، فاصبر قليلا ان الله مع الصابرين» . وعاد مسعود الى عمله وهو يجلس القرفصاء ويحني رأسه يتفرس في الرمال حتى يكاد يلامس وجهه الارض . وقضى في ذلك ساعة ومحمد كأنه واقف على الجمر ، وربما خيل اليه لعظم قلقه ان الليل قد انقضى . وفيما هو في ذلك رأى مسعودا وقد انتصب بغتة وتحدب وتمطى كأنه تعب من القرفصاء والانحناء ومشى اليه ، فتقدم محمد نحوه وقال : «ماذا رأيت يا صاح ؟»

قال : «ان الآثار تشابهت علي لاختلاطها ومع هذا علمت انها آثار قافلة صغيرة مؤلفة من بضعة جمال بينها جملان يسيران متواليين كأنهما يحملان هودجا ، ومعهما مشاة من الرجال اكثرهم يحملون رماحا لاني اري آثار كعابها بجانب الاقدام . ويظهر ان القوم وقفوا هنا وترددوا في المسير واختل نظامهم ، وقد يكونون تخاصموا او تقاتلوا يدلك على ذلك ما في آثار أقدامهم من الارتباك مع كثرة الابعار المتجمعة . ثم بدا لي انهم اتفقوا اخيرا على سلوك هذا الطريق» .

قال محمد : «والى اين يؤدي ؟» . قال : «يؤدي الى البصرة او الكوفة» .

فسكت محمد وقد رجح لديه انهم هم الركب الذين رآهم في ذلك الليل عن بعد ، فأعمل فكره وحدثته نفسه ان يتبع الآثار ولكنه خاف

ان يشغله ذلك عن المهلة التي جاء بها الى مكة . فوقف صامتا يتردد بين ان يطلع مسعودا على سر الامر وبين ان يظل على كتمانه ، فتحير في امره ثم سأله بغتة : «وما ظنك يا مسعود بالزمن الذي مر على مسيرهم؟»

قال : «أظنهم مروا في أوائل الليل منذ اربع ساعات او خمس ، وهم سائرون على عجل» .

فقال : «وهل تظننا ندركهم اذا اقتفينا اثرهم ؟»

قال : «اذا ظلوا هم على مسيرهم لا أخالنا ندركهم قبل يومين او ثلاثة . قال ذلك وقد مل من تكتم محمد الغرض من هذا البحث ، فأراد استطلاع السر فقال : «هل يرى مولاي ان يطلعني على ما أهمه من هذا الركب لعلي استطيع ان أحسن خدمته ؟»

قال : «يهمني يا مسعود من هذا الركب امر كبير . هل تعرف خادمتنا العجوز التي كانت في المدينة ؟» . قال : «نعم أعرفها» .

قال : «انها جاءت مع فتاة أموية الى مكة وأقامت عند اختي أم المؤمنين ، فلما أجمع اهل مكة على المسير الى البصرة جاءهما أناس بكتاب مزور على لساني يدعونهما الى المدينة ، فسارتا معهم في غروب هذا اليوم ، ولا ادري من تجرأ على هذا الفعل ، ولا الى اين ساروا بهما ، ولكن يظهر مما بينته قيافتك انهم هم الركب الذين مروا بهذا المكان » .

فقال مسعود : «هل ترى ان أقتفي آثارهم وآتيك بالخبر واذا استطعت انقاذهما فعلت» .

فاستحسن محمد رأيه وأثنى على غيرته وأوصاه بأن يحتاط لنفسه وحثه على الاسراع وودعه وركب هجينه ويمم شطر المدينة .

* * *

أما الإمام علي فانه خلا الى نفسه بعد خروج محمد من عنده ، وفكر فيما هم فيه ، فرأى من الحزم ان يحول عزمه عن الشام الى البصرة ، فاستشار ابن عباس وغيره من كبار الصحابة فوافقوه على ذلك، فدعا وجوه اهل المدينة وخطب فيهم ، فحمد الله وأثنى عليه ثم قال : «ان آخر هذا الامر لا يصلح الا بما صلح به أوله ، فانصروا الله ينصركم ويصلح أمركم» • ولكنه رأى تثاقلا منهم وقد كان يتوقع تلبية ونهضة ، فلم يقلل ذلك شيئا من عزيمته • على ان جماعة من الصحابة تقدموا لنصرته واستحثوا الناس فعادوا الى نصرته فعبأ التعبئة التي أعدها لاهل الشام آخر ربيع الثاني سنة ست وثلاثين ، وانضم اليه من نشط من الكوفيين • وبينما هو في تأهبه اذ أقبل محمد بن ابي بكر وأنبأه بما كان من خروج عائشة وطلحة والزبير ومن معهم الى البصرة فعجل بالمسير ، وكان الناس يتوقعون ان يرسل الحملة ويبقى هو في المدينة حفظا لمكانته فيها ، فلما رأوه ركب في مقدمة الحملة تقدم اليه عبد الله بن سلام فأخذ بعنانه وقال : «يا امير المؤمنين لا تخرج منها فوالله ان خرجت منها لن يعود اليها سلطان المسلمين» •

فقال : «لا بد من خروجي» •

فتكاملت الحملة واجتمعت في الربذة على ثلاثة أميال من المدينة ، وتأهبوا للخروج ومحمد والحسن معهم • وكان الحسن لانهماكه بمهام الخلافة ربما مرت أسماء في ذهنه فيصبر نفسه الى ما بعد ما هو فيه •

واستبطأ محمد خادمه وهو لا يدري ما صار اليه ، فقلق عليه ولكنه سر لمسيره هو في الحملة لعله يعلم شيئا عن أسماء •

ولما اجتمع جند علي في الربذة جاءه رجال من طي واسد وانضموا الى جنده فاشتد ازره ، على ان الحسن لم يكن راضيا عن خروج ابيه في تلك الحملة فلما رآه عازما على ذلك قال له : «لقد نصحتك فعصيتني

فستقتل غدا ، ولا ناصر لك» .

فقال له علي : «انك لا تزال تحن حنين الجارية وما الذي نصحتني فعصيتك ؟»

قال : «نصحتك يوم أحيط بعثمان ان تخرج من المدينة فيقتل ولست بها . ثم نصحتك يوم قتل ألا تبايع حتى تأتيك وفود العرب وبيعة اهل مصر فانهم لن يقطعوا امرا دونك فأبيت علي ، ونصحتك حين خرجت هذه المرأة وهذان الرجلان ان تجلس في بيتك حتى يصطلحوا فان كان الفساد ، كان على يد غيرك .. فعصيتني في ذلك كله» .

فقال : «اي بني أما قولك لو خرجت من المدينة حين أحيط بعثمان فوالله لقد أحيط بنا كما أحيط به . وأما قولك لا تبايع حتى يبايع اهل الامصار فان الامر امر اهل المدينة ، وكرهنا ان يضيع هذا الامر . ولقد مات رسول الله صلى الله عليه وسلم وما أرى احدا أحق بهذا الامر مني، فبايع الناس أبا بكر الصديق فبايعته ، ثم ان أبا بكر انتقل الى رحمة الله وما ارى احدا أحق بهذا الامر مني ، فبايع الناس عمر فبايعته ، ثم ان عمر انتقل الى رحمة الله وما ارى احدا أحق بهذا الامر مني ، فجعلني سهما من ستة اسهم ، فبايع الناس عثمان فبايعته ، ثم سار الناس الى عثمان فقتلوه وبايعوني طائعين غير مكرهين ، فأنا مقاتل كل من خالفني بمن أطاعني حتى يحكم الله لي وهو خير الحاكمين . وأما قولك أن أجلس في بيتي حين خرج طلحة والزبير ، فكيف لي بما قد لزمني ؟ او من تريدني ؟ أتريد ان أكون كالضبع التي يحاط بها ويقال لبت ههنا حتى يحل عرقوباها ؟ واذا لم انظر فيما يلزمني من هذا الامر ويعنيني، فمن ينظر فيه ؟. فكف عنك يا بني» .

وفي الربذة أعد علي بن ابي طالب حملته ، فجعل ابنه محمدا بن الحنفية صاحب الراية ، كما كان الشأن عند عزمهم على غزو الشام ،

وأعدوا لعلي ناقة حمراء يركبها وفرسا كميتا •

- ١٣ -

اسماء في الأسر

وكان محمد بن ابي بكر في شغل شاغل من امر الحرب والاستعداد لها ، ولكنه كلما خلا الى نفسه لحظة ذكر أسماء ، وكلما رأى قادما من سفر ظنه مسعودا ، فلما ابطأ مسعود في القدوم خاف ان تكون أسماء أصيبت بسوء ، وكلما تصور ذلك زاد قلقه واقشعر بدنه ، وود لو انه يذهب في مهمة الى البصرة او الكوفة لعله يلقاها او يسمع بخبرها فيطمئن قلبه •

فبات ذات ليلة في خيمته وقد تسلط عليه القلق لما هم فيه من النصرة للامام علي وما يتوقعونه من البلاء • فعظم عليه الامر وأرق ورأى أن يلتمس الذهاب بنفسه الى البصرة يستنهض اهلها لنصرة الامام، وعزم علي ان يبكر في الصباح لمخاطبة الامام في ذلك • وانه لفي هذا اذ سمع صوتا خارج الخيمة يشبه صوت مسعود، فهب من فراشه وناداه، فجاءه ودخل عليه في ثياب السفر ، ودخلت في اثره امرأة لم يعرفها محمد في بادىء الامر لضعف نور المصباح ؛ ولكنه ما لبث ان تبين انها العجوز فبغت وتذكر أسماء فقال : «ما وراءك يا خالة ، اين أسماء ؟»

قالت : «أظنها الان في البصرة او في الكوفة او لا ادري اين هي»•

قال : «وكيف تركتها وجئت وحدك ؟» • قالت : «هي أمرتني ان

اجيء ، وسأقص عليك نبأها بعد ان أستريح» • قالت ذلك وتنهدت وقد أضناها التعب ، فسأل محمد مسعودا : «اين لقيتها وما الذي دعا الى هذه الغيبة ؟»

قال : «طال علي الامد في البحث عن الركب ، وكأنهم غيروا طريقهم وتعرجوا في مسيرهم ، فتشابهت علي سبلهم فقضيت اياما أستقصي حتى كدت أدرك البصرة ، ورأيت جيش أم المؤمنين عن بعد ، ثم تحولت الى طريق آخر فعثرت على هذه الخالة سائرة وحدها ، فسررت بلقياها ، وسألتها عن أسماء ومكانها ، فقالت : ان الركب سارو بها الى حيث لا ندري • وان أسماء بعثتها اليك برسالة لا أدري ما فيها ، وكنت عازما على مواصلة البحث عنها فمنعتني ، فجئت بها اليك» •

فعجب محمد لذلك والتفت الى العجوز وقال : «قصي علينا الخبر يا خالة من اوله الى آخره» •

فجلست وأخذت في سرد الحديث فقالت : «هل أقص خبرنا منذ ودعتنا في المدينة وسرنا نحن الى مكة ؟»

قال : «سمعت هذا من خالتي أم الفضل ، ولكنني أريد ان اعلم كيف خرجتم من مكة ؟»

قالت : «كانت أسماء مريضة عند أم الفضل وهي على مثل الجمر في انتظار اشارة منك للانتقال الى المدينة لانها اصبحت بعد ما رأت من عزم اهل مكة على طلب دم عثمان لا تستطيع الاقامة بها • وكانت مع ضعفها كلما ذكرت عليا والحرب والانتصار له تتشدد وتتقوى حتى خيل الي انها كانت تشتاق النزول الى ساحة الوغى دفاعا عن الامام علي لقوة ايمانها ببراءته من دم عثمان • وكانت كلما ذكرت ذلك تبكي وتحرق اسنانها غيظا لقعودنا في مكة بالرغم منها • وعظم الامر لديها يوم خرجت أختك ورجالها من مكة يريدون البصرة لطلب دم عثمان ، فانها

اصبحت في ذلك اليوم على أشدها لفرط ما هاج من عواطفها رغبة في المسير الى المدينة ، وانما كان يقعدها قولك لها يوم ودعها انك ستبعث اليها من يستقدمها ، فبعد سفر أم المؤمنين بيوم او يومين ، جاءنا رسول بكتاب زعم انه منك • ولم تكد أسماء تتم قراءته حتى هبت من فراشها وقد أشرق وجهها وأبرقت أسرتها وقالت : هيا بنا يا خالة الى المدينة فان محمدا بعث من يحملنا اليه • فنظرت الى الرسول فلم أذكر اني اعرفه فقلت له : اين الجمال والاحمال ؟• قال : هي خارج المدينة وقد سرحناها للراحة • فلم يرق لي كلامه لاني لا أعرفه ، وكانت خالتك أم الفضل جالسة فسألتها فقالت : انها لا تعرفه ايضا ، فخلوت بأسماء وحذرتها من المسير مع قوم لا تعرفهم • نأبت الا الركوب وقالت : انها لا تبالي من كانوا فانما غرضها الخروج من ذلك السجن • فأطعتها وخرجنا والرجل يسير أمامنا وأسماء لا تزال ضعيفة من عقبى الحمى ، وكنت قبل خروجنا من البيت قد عرضت عليها ان يذهب الرسول فيأتينا بالجمال الى البيت فنركب من هناك ، ولكنها لم تستطع صبرا وأبت الا المسير حالا ، فوصلنا الى المكان الذي اشار اليه الرسول ، فرأينا هودجا على جملين وجمالا اخرى وبضعة رجال لم اعرف احدا منهم ، فخامرني الريب ونبهت أسماء الى ذلك فلم تنتبه ، كأن رغبتها في المسير اليك اسكرتها وأعمت بصيرتها، فركبنا والخدم في ركابنا حتى اتينا مكانا تتشعب فيه الطريق الى شعبتين ، وهناك رأينا اناسا مسلحين ينتظروننا ، وفيهم شاب بلباس ثمين كأنه سيدهم ، فلما وصلنا الى المفرق ، وقفت جمالنا ودنا الرجال برماحهم فتحققنا وقوع الخيانة• وكان الليل قد أسدل نقابه فلم نعرف احدا من هؤلاء ، فلما رأيناهم تحولوا عن طريق المدينة الى طريق البصرة قلت : (الى اين انتم ذاهبون بنا ؟) • فقالوا : (الى حيث نشاء) • فهالني جفاء الجواب ونظرت الى أسماء على

ضوء القمر فاذا هي ثابتة الجأش على ضعفها . وقد كنا في الهودج معا . فحالما تحولنا الى ذلك الطريق ، أنزلوني من الهودج وحملوه على جمل واحد وأركبوني الجمل الآخر فأطعت مرغمة» .

وكانت العجوز تتكلم ومحمد مصغ يتطاول بعنقه لسماع تتمة الحديث وقد ظهر القلق على وجهه . فاستأنفت العجوز حديثها وقالت : «وما زلنا سائرين مسرعين طول الليل حتى اصبحنا وتبينت الوجوه ونفرست جيدا فرأيت بينهم رجلا تذكرت اني رأيته في خدم بيت أختك أم المؤمنين . وتأملت الشاب ذا اللباس الفاخر فاذا هو ذو جمال وقيافة فظننته سيدهم ، ولم أعرف من هو ولكنني عرفت ان اسمه سعيد . ويلوح عليه انه من اهل البصرة .

«ولم تكد جمالنا تستريح حتى دنا الرجل من هودج أسماء وانا انظر اليه من بعيد وأسمع شيئا مما يقول ففهمت انه يسألها عن حالها وهل لا تزال تفضل المدينة وأهلها ، ورأيت منه احتفاء عظيما بها ، اذ آمر بطعام فاخر قدمه لها وجعل كل رجاله في خدمتها» .

فقاطعها محمد قائلا : «وهل اكلت من طعامه وأجابته على كلامه ؟»

فقالت : «والله يا بني اني لم أشاهد في حياتي كلها لا في الجاهلية ولا في الاسلام فتاة ولا شابا أثبت جأشا من أسماء ولا أصبر على المكاره منها ، فقد كانت مع ضعفها وعلمها بالخطر الذي وقعت فيه مطمئنة لا يبدو على وجهها شيء من دلائل الخوف والاضطراب ، وقد لحظت لما كان ذلك الشاب يكلمها انها كانت تجيبه بكلام لم اسمعه ؛ ولكنني رأيت اثره في وجه الشاب تهيبا وخوفا منها . وكأن الخطر قد زاد أسماء هيبة وجلالا كما زادها الضعف حسنا وجمالا . وأما انا فكنت خافقة القلب مضطربة الحواس لا اكاد استطيع الوقوف لشدة الارتعاش، وهي جالسة في هودجها والقوم ولاسيما سعيد وقوف على خدمتها لتلبية

كل اشارة منها» •

فقال محمد : «لم تجيبيني يا خالة عن سؤالي هل اكلت من طعامهم؟» قالت : «لا يا سيدي لم أرها تأكل ، ولكنني لا اظنها استطاعت البقاء بلا طعام» •

قال : «ثم ماذا ؟» • قالت : «ولم نسترح الا قليلا • ثم نهض الركب وسرنا نطوي البيداء ووجهتنا العراق ، وأنا لا ادري ماذا أعمل • ولو رأت أسماء فائدة من المقاومة لفعلت ، ولكنها وجدت نفسها عزلاء وحولها رجال مدججون بالحراب والسيوف والرماح ، ولكني أعجبت بشجاعتها وسكينتها • وكانت طول الطريق ساكتة تتأمل كأنها تفكر في طريقة للنجاة • وأما سعيد اصل البلاء ورأس الخطيئة فلا ريب انه أقدم على فعلته وأسماء طلبته ، ولكنه كان متهيبا وربما هم بان يكلمها بشيء في نفسه فاذا دنا من هودجها ارتج عليه فتظاهر بأمر آخر • وقضيت اليوم الثاني وأنا أحاول الدنو من أسماء لعلنا نتعاون على سبيل للنجاة فلم أستطع ، لانهم كانوا يفرقون بيننا عنوة • فبتنا ثم اصبحنا وقد مللت هذه الحال ، فلاح لي اخيرا ان أتظاهر بالتعب والمرض لعلهم يسمحون لي ان اراها وأرى ما يكون ، فشكوت ألما وعجزا عن الركوب فقال سيد القوم : (اتركوها في الطريق وسيروا) ، فصحت : (دعوني انظر ابنتي ، دعوني أودعها) • وأخذت في البكاء فسمعتني أسماء وطلبت ان تراني فحملوني اليها ، فأجلستني في هودجها وأرخت ستائره ، ومشى الركب بنا ، فلما خلونا سألتها عما في نفسها فتنهدت وقالت : «اني لم اقع عمري في مثل ذلك ، وأنا اعلم الناس بما يحدق بي من الخطر ؛ ولكنني لا ارى الخوف يجديني نفعا ، ولا انا استطيع دفاعا فأنا عزلاء وهم عشرة مسلحون • ويلوح لي انهم سائرون بنا الى معسكر أم المؤمنين ، وان هذا الشاب المغرور من رجالها ، وأظنه طامع فيّ ،

فليطمع ما شاء ، ولعلي اجد سبيلا للنجاة ولكني أريد ان أبلغ محمدا خبرا مهما ، فكيف العمل ؟» • فقلت لها : (انا أبلغه اياه فان هؤلاء الرجال يريدون التخلص مني فاذا انا تظاهرت بحب التخلف عنهم خلفوني وساروا فقولي ما تريدين) • قالت : (سأكتب ذلك في كتاب توصلينه اليه) • وسرنا هنيهة ثم وقف الركب وجاء ذلك الشاب فرفع الستر عن الهودج وقال : (انزلي من هذا الهودج ان الجمل لا يستطيع حملك) • فشكوت له التعب والمرض • فقال : (لا يعنيني) • فقالت له أسماء : (تمهل ريثما نصل الى مكان نستريح فيه جميعا فاذا لم تقدر على الركوب معنـــــا تركناها او أوصلناها الى قافلة تسير بها) • وكانت أسماء تتكلم والشاب ينظر اليها وقد هام بها ولم تزده انفتها الا حبا ، وكأنها سحرته فأصابه خبل ، فقال: (حسنا) • فوصلنا في المساء الى مكان فيه آبار وشجر ، فنزلنا جميعا، ونصبوا الخيام ، فطلبت أسماء الخلوة فتركوها ووقفوا خارج خلونها لئلا يدهمها احد ، فقضت هناك ساعة حتى قلقت عليها ثم خرجت الي وقـــد احمرت عيناها وتبللتا وبيدها منديل قطعته من قميصها دفعته الي وقالت: (احتفظي بهذا الكتاب وادفعيه الى محمد) • فتناولته وخبأته بين أثوابي وأنا أحاذر ان يراني احد • وقالت أسماء : (اسرعي في المسير الى محمد ما استطعت) • وكانت هناك قافلة قادمة نحونا فعلمت ان ركبنا سيرحل قبل وصولها ، فتظاهرت بعجزي عن الركوب والمشي ، فلما رأى اصحابنا القافلة آتية تهيأوا للرحيل وطلبوا الي ان اركب او امشي ، فلما اعتذرت هموا بتركي ، وطلبت ان أودع أسماء فأذنوا لي في ذلك ، وقد بكت حين ضممتها وقبلتها مرارا ولكنها اسمعتني كلاما عزاني على فراقها وطمأن قلبي عليها فقالت : (لا تخافي علي يا خالتي فاني ارجو ان يكون هذا ذريعة الى خدمة عظيمة اقوم بها للامام علي ومحمد وعلى الله اتكالي) • ولم اكد اجيبها حتى أقلع جملها وسار وهي تلتفت الي وتبتسم وأنـــا

ابكي • فظللت وحدي أنتظر وصول القافلة فاذا وجهتها غير ما ظننت وطريقها غير طريقي ، فنهضت اسعى في اثرها فسبقتني ، وما زلت اسير تارة وحدي وطورا أصطحب راعيا او ماشيا حتى لقيت مسعودا على ما قصه عليك» •

* * *

وفرغت العجوز من كلامها وقد تعبت ومحمد شاخص اليها ثم قال: «اين كتاب أسماء ؟»

فمدت يدها الى جيبها وأخرجته ، وكانت قد خاطته بباطن ثوبها • ثم دفعته اليه فاذا هو قطعة من قميص أسماء ، فاستأنس به وأدنى المصباح منه ونظر فاذا فيه كتابة بمداد أحمر وأحرف لم يألفها لقربها من الشكل النبطي الذي كان يكتب به عرب الشام وتستغرق قراءته زمنا • فأومأ الى مسعود ان يذهب بالعجوز الى مكان تستريح فيه وأغلق باب خيمته وجلس الى جانب المصباح وطفق يقرأ الكتاب فاذا فيه :

«أكتب اليك هذا بمداد من دمي ، اذ لا سبيل الى غيره وأنا في صحراء قاحلة وحولي أناس لا ادري غرضهم من أسري ، على انهم لن ينالوا مني وطرا ، وقد علمت انهم سائرون بي الى معسكر أم المؤمنين بالبصرة ، وأظنهم من رجال تلك الحملة • لا تجزع يا محمد ولا تخف على أسماء فانها بحول الله لا تخشى بأسا • وقد كتبت هذا اليك لأنبئك بحالي وأدعوك الى عهد بيننا نجعله نذرا علينا هو ان تكون اعمالنا وحواسنا وقوانا مكرسة لخدمة امير المؤمنين ابن عم رسول الله (ص) فقد اتهموه ظلما بدم عثمان وأنا وأنت أعلم الناس ببراءته • فعلينا القيام بنصرته حتى اذا انتهينا واستتقام الامر نظرنا في انفسنا وأجبنا داعي القلب •

«هذا ما ادعوك اليه وأرجو ان تعاهدني عليه ولا أظنك تخالفني فيه وأنا منذ الان ساعية في هذا السبيل وأرجو ان يكون أسري عونا على هذه الخدمة ، فأنت تعمل من جهة ، وأنا من جهة اخرى أعمل لاقناع أم المؤمنين حين القاها ببراءة الامام • آه يا ليتها كانت معنا ليلة وجدناه يبكي عند قبر الرسول • آه من تلك الليلة كم لقيت فيها من الاهوال ، على اني سأذكر لها ذلك ، وانا سمعناه يندب الاسلام ويتخوف وقوع الفتنة ، ولعلها تؤمن ببراءته • اقول هذا على امل تذليل العقبة الوعرة التي اراها في سبيلي ، فاذا مت فاني اموت شهيدة العفاف والغيرة على الاسلام والنصرة للامام رجل هذه الامة ••• ومرة اخرى ادعوك الى العهد على نصرة الامام علي والتفاني في ذلك فاذا فرغنا منه على خير فكرنا في انفسنا والسلام •

أسماء »

ولم يفرغ محمد من تلاوة الكتاب حتى امتلأ قلبه حمية وطفح اعجابا بأسماء وعجب لتوارد الخواطر بينها وبينه ، فقبل كتابها وأثنى على غيرتها ، ولكنه ما زال خائفا عليها من غائلة ذلك الاسر ، فقضى ليلته مضطربا وقد مال الى الذهاب في مهمته الى العراق لعله يلقى أسماء فينقذها •

★ ★ ★

خرج محمد في صباح اليوم التالي قاصدا فسطاط الامام علي لعله يسمع خبرا جديدا ، فلما دخل عليه رأى في مجلسه جماعة من الصحابة يتحدثون فيما هم فيه من الاحوال ، ويتشاورون ، والامام مقطب الوجه يفكر فيما قام من الفتنة •

وفيما هم في ذلك دخل غلام مبغوتا فسأله علي : «ما وراءك ؟»

قال : «ان في الباب ركبا قادمين من البصرة وفيهم رجل ملثم» •

قال : «فليدخل كبيرهم» •

فدخل رجل ملثم الوجه ، حيى الامام عليا وكشف عن وجهه فاذا هو أحلط الوجه أملط لا شعر له في لحيته ولا شاربيه ولا حاجبيه ولا أشفار عينيه ، فأنكره علي وتأمله وقال له : «من الرجل ؟»

قال : «انا عثمان بن منيف عاملك على البصرة» •

فبغت الامام وقال : «ما الذي اصابك ؟»

قال : «بعثتني بلحية فجئت أمرد» •

قال علي : «اصبت اجرا وخيرا • احك لنا خبرك وما دعا الى نتف شعر وجهك على ما نرى» •

قال : «بعثتني يا مولاي عاملا على البصرة ، فلقيني الناس وسروا بخلافة الامام علي ، ثم ما لبثت ان سمعت اهل البصرة يتحدثون بأمر حدث ، وان كتبا وردت على بعضهم من أم المؤمنين تدعوهم فيها الى الاخذ بثأر عثمان ، وانها قدمت من مكة وأقامت في الحفير على بضع ليال من البصرة تنتظر الجواب ، فأهمني الامر كثيرا ، فبعثت رجلين : احدهما رجل عامة ، والآخر رجل خاصة ، يسألانها عما تريده • فعادا وأخبراني ان أم المؤمنين وطلحة والزبير مصرون على طلبهم دم عثمان منك ، وان الآخرين لم يبايعاك الا كرها • فشاورت رجالي فقال بعضهم: (ننصرهم) • وقال آخرون : (نردهم) • ورأيت لهم نصراء في البصرة فخفت اتساع الخرق ، ثم علمت ان عائشة جاءت المربد (وهو السوق خارج البصرة) ومعها رجالها ، فخرجت اليها بنفسي ومعي بعض اهل البصرة ممن يرون رأيي ، فلما انتهينا الى المعسكر سألناهم عن غرضهم ، فوقف طلحة وتكلم بفضائل الخليفة عثمان وحث على الاخذ بثأره ، ثم قام الزبير بمثل ذلك ، وأيدهم من معهم من الرجال • فقلت لهما : (بايعتما عليا وجئتما تقولان ما تقولان) • فوقفت أم المؤمنين وألقت

كلاما حرضت فيه الناس علي طلب دم عثمان ، وقالت قولا كثيرا وكان لكلامها تأثير شديد على كل من سمعها حتى ان جماعة كبيرة من رجالي مالوا اليها • ثم اشتد اللجاج بين الرجال ونشبت الحرب فقتل من رجالي جماعة كبيرة ، فتنادينا الى الصلح وتواعدنا على ان يبعثوا الى المدينة فان كان طلحة والزبير أكرها على البيعة سلمت اليهما الامر والا فانهما يرجعان، فبعثت اليكم وفدا في ذلك» •

فقال علي : «وقد اجابهم اهل المدينة انهما بايعا طائعين» •

قال عثمان : «نعم يا مولاي جاءهم الوفد بذلك فأنكروه ، وبعثوا الي ، وكانت ليلة ذات رياح ومطر ساروا فيها الى المسجد وقت صلاة العشاء ، فأرسلت بعض رجالي لأرى ماذا يريدون ، فقتلوهم ثم جاءوا الي وأخرجوني وتنفوا لحيتي وشعر حاجبي وأشفار عيني كما ترى ، فجئت بالخبر كما وقع» •

فقال علي : «انا لله وانا اليه راجعون ، وكيف اهل البصرة الان ؟»

قال : «ان سوادهم مع أم المؤمنين» •

فأطرق علي ، وكل من في مجلسه سكوت ينتظرون ما يبدو منه فظل ساكتا ، حتى شعر الناس انه يريد ان يخلو بخاصته ، فخرجوا جميعا وفي جملتهم محمد بن ابي بكر وقد ساءه تعاظم الامر الى هذا الحد ، ولم يكد يدرك خيمته حتى جاءه رسول يستقدمه الى علي ، فأسرع اليه فلم ير عنده الا محمدا بن جعفر ، فدخل وحياه وهو يتوقع ان يسمع منه امرا جديدا ، فلم يكلمه حتى جلس على وسادة بجانب محمد بن جعفر ، فقال له والاهتمام ظاهر في وجهه : «أتدري لماذا دعوتك ؟»

قال : «خير ان شاء الله» •

قال : «أسمعت ما فعلت أختك وطلحة والزبير في البصرة ؟• لقد اساءوا الى عاملنا وحضوا الناس على حربنا لاننا على زعمهم قتلنا عثمان،

وأنت تعلم ان اهل الكوفة حزب كبير يهمنا استنفارهم ليكونوا معنا في هذه الحرب اذا كان لا بد منها ، وقد انتدبتك انت وابن اخي هـذا لتسيرا الى ابي موسى الاشعري عاملنا على الكوفة تستنفران الناس لنصرة الحق» •

فوقف محمد وقد ثارت حميته وقال : «اننا طوع امرك وان الدفاع عن الحق ونصرة امير المؤمنين فرض واجب علينا» •

قال علي : «تأهبا واخرجا الى ابي موسى ، واقرآ هذا الكتاب على الناس ، وادعواهم الى الاصلاح فاننا لا نريد سواه ، وأنا لاحق بكما وأستعين الله في نصرة الحق وكبح جماح الباطل» •

فخرجا يتأهبان للرحيل •

فلنتركهما سائرين في هذه المهمة ولنعد للبحث عن أسماء •

★ ★ ★

أما أسماء فقد كان السبب في اسرها ان احد كبراء البصرة ممن جاءوا مع ابن عامر الى مكة شاهدها ساعة وقوفها في العريش ومخاطبتها مروان بتلك الشجاعة مع ما كان يتجلى في محياها من المهابة والجمال ، فوقعت من نفسه موقعا عظيما وعلق قلبه بها • وكان من اهل اليسار والبذخ ، فلما انفض المجلس سأل عنها فأخبره بعض الذين اطلعوا على حديثها سرا من خدم أم المؤمنين انها مخطوبة لمحمد بن ابي بكر ، وانها باقية في مكة تنتظر امره بالذهاب الى المدينة ، فحدثته نفسه ان يخطفها ويغريها بحبه ويتزوجها ، وهو يعتقد انها لا تلبث ان ترى جماله وتعلم بجاهه وغناه حتى تهواه وتفضله على محمد ، فيحظى بها وينتقم من محمد لنقمته على عثمان • فاصطنع ذلك الكتاب على لسان محمد وبعث به مع بعض رجاله فجاءت معه ، فسار بها كما تقدم وهو تارة يستعطفها،

وطورا يعدها بالسعادة عندما يصل بها الى البصرة ، وخيل اليه في بادىء الرأي انها مالت اليه لما آنسه من سكوتها وتصبرها ، ولم يعلم انهـــا فعلت ذلك حزما وتعقلا • وكان يود التخلص من العجوز فتيسر له ذلك على أهون سبيل كما رأيت • فقضى اياما في مسيره وهو يعرج فـــي الطريق روحة وجيئة يلتمس رضاها قبل الوصول الى البصرة ، فلما دنا من البصرة عرج على طريق ينتهي بالكوفة وكان له فيها منازل وصنائع•

وكانت هي تفكر في طريقة للنجاة ، وكثيرا ما حدثتهـــا نفسها ان تجافيه وتظهر احتقارها له ، ولكنها كانت تعود فتصبر مخافـــة ان يفتكوا بها •

فلما صاروا على مقربة من الكوفة لم ير بدا من استجلاء امرها ؛ فصبر حتى أسدل الليل نقابه وجاءها وهي مستلقية في الهودج التماسا للراحة ؛ وكان بجانب الهودج نار اوقدوها للاستضاءة ، فرفع ستائـــر الهودج فانتبهت أسماء وجلست ، ولما رأت سعيدا استعاذت بالله • أما هو فحياها بلطف وقال لها : «ألا تظنين البصرة خيرا من المدينة يـــا أسماء ؟ »

فأطرقت ولم تجب ، فجثا امامها ومد يده محاولا ان يمس معصمها• بينما اخذ ينظر الى وجهها وقد انعكست عليه أشعة لهيب النار ، فلم يكد يمس يدها حتى اجفلت وجذبتها من بين انامله وبالغت في الاطراق •

فقال لها : «ما بالك يا مليحة ؟ ألا تزالين تجافينني وأنت تعلمين اني أسير هواك ؟ فهل تخشين ألا تلاقي في منزل محبك الاكرام الذي يليق بك ؟• انك لا تلبثين ان تنزلي في بيتك بالبصرة او في الكوفة حتـــى تشعري بالسعادة التي تنتظرك هناك مما لا يتأتى لاحد سواي ان يهبك اياه • فهناك تجدين الخدم والحشم ، والدور والمنازل ، والخيــــل والماشية ، والملابس الفاخرة • وكل اسباب الراحة • ألا تمنين علـــي

بنظرة تدل على رضاك ؟»

وكان سعيد يتكلم وعينا أسماء شاخصتان الى تلك النار الموقدة بجانب هودجها ، لا يحاكيها في ذلك الليل الهادىء الا نيران قلبها المتقدة حبا لمحمد وغيرة على الاسلام ، وقد ازدادت اتقادا وحدة لما سمعته من كلام ذلك الشاب وأرادت ان توبخه وتردعه ولكنها علمت انها اذا فعلت ذلك عرضت نفسها للخطر فتنهدت وظلت صامتة •

أما هو فظن تنهدها دليلا على اثر كلامه فيها ، فابتسم ومضى نحوها جاثيا ومد يده ليمسك اناملها وهم بالتكلم ، فجذبت يدها منه ، ونظرت اليه والشرر يكاد يتطاير من عينيها ثم أعرضت عنه وهي تحرق اسنانها، فابتسم هو وهش وقال بنغمة المحب الولهان : «بالله ألا رحمت قلبا قيدته بسلاسل هواك ، ورمقته بلفتة او بكلمة ، قولي يا أسماء ، قولي انك راضية بي عبدا رقا وأنا أكرس حياتي لخدمتك • والله اني لم اقل هذا لاحد قبلك • تعطفي بالله وارفقي ، كفى سكوتا واعراضا ، اعلمي يا مليحة انني انما أريد سعادتك وان الله ساقني اليك لحسن حظك وحظي • وان ابن ابي بكر ليس اهلا لك ولا هو يستحقك ولسوف ترين ما يحل به اذا احتدم القتال» •

ولم تعد أسماء تستطيع صبرا على ذلك بعد ان سمعت التعريض بمحمد ، فحدثتها نفسها ان تصفعه على وجهه ، ولكنها كظمت غيظها بالرغم منها ، وعمدت الى توبيخه فقالت بنغم ضعيف وصوت رخيم : «اني لا اراك اهلا للنزال» •

فسر سعيد لكلامها وان يكن توبيخا له لانه رجا ان يصل بالحديث معها الى استرضائها فقال : «وما أدراك يا فاتنتي اني غير اهل لذلك ؟»

قالت وهي تنظر اليه نظرة التأنيب : «لأن الرجل الذي يقطع الفيافي والقفار طلبا للثأر او نصرة للحق على ما تزعمون ، لا يرتكب جريمة

التزوير ، ومن كان حرا صادقا يلقى الرجل في حومة الوغى لا يكلم فتاة يعلم انها تحب سواه» •

فأحنى الرجل رأسه عند كلامها وقال : «لقد صدقت ايتها العذراء ، ولكنني انما زورت التماسا لقربك اذ لم يبق لي اليه غير هذا السبيل ، فأنا أستغفر لذنبي لديك» •

قالت : «انك انما اذنبت الى غيري ، فاذا كنت رجلا فالق محمـدا واستغفره ، فاما ان يغفر لك ، واما ان ينازعك فنرى من هو الرجل !»

فجلس سعيد ودنا منها حتى كاد يلامسها ومد يده فقبض بواحـدة على زندها وجعل الاخرى على نقابها وأراد ان ينزعه • فجذبت يدها منه ووقفت وقد اخذ الغضب منها مأخذا عظيما وقالت : «ابتعد عني ولا يغرنك سكوتي ومرضي ، والله ان تمدد يدك لأكسرنها» •

فضحك سعيد وقال : «لا تغضبي يا حبيبتي فاني لم أفعـل شيئا يغضبك ، ولكنني أسترضيك وأستعطفك ، فأفيقي من غفلتك ولا ترفضي نعمة أنعم الله بها عليك» •

قالت وهي تتحفز للخروج من الهودج : «اذا كنت تزعم انك تريد رضاي فاعلم انك تطلب عبثا ، واذا حدثتك نفسك بوطر تبغيه فاعلم انها تحدثك باطلا وان احتراقي في هذه النار أيسر مما تدعوني اليه» •

فقال وقد حار في امره وهو يكظم غيظه ولا يزال يرجـو رضاها : «تمهلي يا حبيبتي وتبصري فيما اقوله لك ، ولا ترفسي النعمة التـي أعرضها عليك باسم الحب» •

فقالت بنغمة جافية : «لا تنطق بالحب فانك تتكلم باطلا ولا تستعظم قوتك وتستكثر رجالك فان ذلك لا يرهبني» •

* * *

ولما رأى سعيد من أسماء هذا الاصرار ، وقف على قدميه بغتـة

وصاح فيها صيحة دوت في ذلك الليل الهادىء وانتهرها قائلا : «اراك قد بالغت في القحة ، واستخففت بي وانك تعلمين انك اسيرة بين يدي» • قال ذلك وأمسك بيديها ، فانتفضت من بين يديه ورفسته برجلها فألقته على الارض وأعرضت بوجهها عنه •

فهب من وقعته وصاح برجاله فتجمهروا حول أسماء وقبض بعضهم على يديها وبعضهم الآخر على كتفيها ، فتماصت من بين أيديهم وصاحت فيهم قائلة : «عار عليكم وانتم رجال مسلحون ان تتجمهروا على فتاة عـزلاء» •

فصاح سعيد فيهم : «قيدوا هذه الخائنة وشدوا ساعديها» •

فقالت : «ما الخائن الا انت يا نذل ، أتظن ان القيود تقيد شيئا من حريتي ؟» • وهست بعصا من عصي الهودج استلتها في وجوه الرجال فتفرقوا امامها تهيبا من منظرها ورفقا بها ، فوبخهم سعيد وحثهم فعادوا وتكاثروا عليها وهي تحاول دفعهم ، فعثرت رجلها بعقال الجمل فوقعت على الارض فأسرعوا اليها وشدوا وثاقها وهي لا تبالي بما يفعلون وسعيد واقف ينتفض غيظا ، وأمرهم ان ينقوها في الهودج ويربطوها به ففعلوا•

فلما ايقنت بالخطر القريب ترقرقت الدموع في عينيها وصاحت : «آه يا محمد اين انت • يا ويل الانذال اللئام الذين لا ذمة لهم ولا ذمام» •

فلما سمعها سعيد تنادي محمدا ضحك ضحكة تخالطها رعدة الغضب وقال : «لا تذكري محمدا ولا ترجي نجاة من هذا الاسر» • ثم أمـر رجاله فتفرقوا ، ودنا منها وعاد الى الملاينة فقال : كيـف انت الان ألا ترجعين عن غيك ؟ انك اسيرة بين يدي وحياتك رهن اشارتي الا اذا اجبت طلبي فتصيرين انت الآمرة الناهية • قولي انك رضيت بي ، قولي انك تحبينني وكفى» •

فصاحت به قائلة : «لا • لا • لا احبك ، اذهب عني يا شيطان ولا

ترني وجهك» •

قال : «اعناد وزوحك في قبضة يدي ؟»

قالت : «لا تهددني بالموت فانه خير مسا أتوقعه • واقتلني وأرحني من هذه الحياة» •

قال : «لا أقتلك بل أذيقك العذاب • لا بل أعيد النصح وأدعوك الى حبي» •.ومد يده الى شعرها ولم يكد يلمسه حتى اقشعر جسمها وانتفضت وكان الوثاق محلولا من بعض اطرافه فتسلصت يدها وأخرجت ذراعها ودفعت يده بعنف ، فجرد حسامه وهجم عليها به ليخوفها لعلها تطيعه ، فوقفت وذراعها الاخرى مشدودة الى جسدها ومدت يدها الى سيفه فأخذته من يده وهو لا يسنعها منه فقطعت بقية الحبال وأغارت عليه والسيف مشهر بيدها ، ففر امامها • فأسرع رجاله اليها فأصابت احدهم بضربة على عنقه فخر قتيلا • وهست بالباقين فتكاثروا وتهافتوا عليهـــا بالرماح والحراب والسيوف فأصابها رمح في زندها فسقط السيف من يدها ووقعت مغشيا عليها من شدة الالم ، فأسرعوا وشدوا وثاقها وهي لا تعي • فلما رآها سعيد مغمى عليها أمر بالماء فرشوها به حتى افاقت فقال : «اتركوها لتستريح» • وحسب انها ستذعن لأمره فجلس بالقرب منها يعلل نفسه برضائها بعد ما اصابها من الضنك •

وأما هي فازداد نفورها منه ويأسها من الحياة ، ولما رأت ما هي فيه من الخطر الاكيد عظم عليها الامر فلم تتمالك من البكاء والشهيق•

فدنا سعيد منها وقال بنغمة الظافر : «والآن يا أسماء كيف تريـــن نفسك ؟ »

قالت : «لا اراني أزداد الا نفورا منك اذهب من امامي» •

قال : «يا للعجب أبعد هذا ترجين خلاصا» •

قالت : «لا • لا ارجو ولا أطلب غير الموت فانه غاية ما ارجوه ولكن

آه» • وعادت الى البكاء وهي تقول : «اين انت يا محمد • أرني وجهك قبل الممات ولو لحظة» •

فلما سمعها تذكر محمدا اتقدت الغيرة في قلبه وصمم على الفتك بها، فجرد حسامه ووقف فوق رأسها • فنظرت الى السيف وضوء اللهيب ينعكس عليه فيلمع . فأيقنت انه قاتلها لا محالة فصاحت : «اين انت يا محمد يا ابن ابي بكر ، زودني بنظرة منك قبل الممات» •

فقال سعيد : «أتظنين اني أقتلك الان ؟ لا • لا تعللي نفسك بهذه الامنية فانني سأميتك صابا» • وأشار الى بعض الوقوف من رجاله فرفعوها عن الارض وأوقفوها الى شجرة من السنط والصقوا ظهرها بها، وشدوها اليها شدا وثيقا بحبال مجدولة من ألياف النخيل وكان في جذع الشجرة نتوءات وأشواك اصابت بدنها فآلمتها ، لكنها لم تبال في جانب ما شعرت به من الشوق لرؤية محمد في آخر ساعة من ساعات الدنيا ، وحزنت على فراقها الحياة دون التزود بنظرة منه ، وكانت تفكر في ذلك وهي ترسل نظرها الى الظلام من حولها فلا تتبين غير تلك النار الموقدة بين يديها •

أما سعيد فتركها مشدودة الى الشجرة وذهب هو ورجاله يلتمسون الراحة او النوم وظلت هي مصلوبة تنظر تارة الى الأفق وطورا الى السماء وآونة الى النار امامها وهي غارقة في بحار الهواجس ، وحدثتها نفسها ان تلين لسعيد وتعده خيرا ريثما ترى ما يجيء به القدر ، ولكنها علمت انه لا يكتفي من رضاها بالكلام فقط ، فعادت الى اضطرابها وهي تنظر الى النار فرأتها قد اخذت في الخمود فخافت ان تنطفىء فلا يبقى ما يؤانسها ، على ان خمودها جعل الأفق اكثر ظهورا فقد كانت لا ترى فيه الا ظلاما دامسا • فلما خمدت النار ظهر في أطراف الأفق بعض الاشباح من الشجر او التلال ، وكانت لفرط قلقها تحسب الاشباح اناسا

قادمين لانقاذها .

★ ★ ★

وفيما هي تحدق في الأفق رأت أشباحا تتحرك فتفرست جيدا فاذا هي هجن وأفراس عليها رجال فاستأنست بهم وهمت بأن تستنجدهم فمنعتها الانفة وعزة النفس فقالت في نفسها : «اذا كان لي نصيب في الحياة اتى اولئك الركب لانقاذي بالهام من الله» .

وظل سعيد ساهرا يتوقع ان تسترضيه أسماء فرأى الأشباح عند الافق وعلم ان ناره ستهديهم اليه فأمر باطفائها ، فلما رأت أسماء الرجال يهمون باطفاء النار ايقنت انهم خائفون ، فقالت في نفسها عسى ان تقع عاقبة خوفهم على رؤوسهم . واستبشرت . على انها لم تكد تفعل حتى رأت سعيدا قادما نحوها والحسام مجرد في يده وصاح وهو يحسبها لا ترى احدا قادما وقال : «هل لان قلبك الان ام ماذا ؟» . فلم تجب . فقال : «قولي . اجيبي . ان حياتك بين شفتيك فاما ان تعيشي سعيدة. واما أن يجري دمك على جذع هذه الشجرة» .

فحارت في امرها ولم تدر بم تجيبه وهي تعلم انها اذا اجابت بالرفض ضربها بالحسام وهي مشدودة الوثاق ، فرأت المماطلة خير ذريعة لنجاتها ريثما يصل اولئك الركب عساهم ان ينجدوها . فلم تجب .

فأدرك سعيد قصدها وخاف ان هو انتظر جوابها ان يصل الركب فشرع الحسام بيده وصاح بها : «قولي حالا فاما ان أسمع صوت قبولك واما ان تسمعي صوت حسامي على عنقك» .

فعظم عليها هذا التهديد وهجرها التعقل ، فقالت : «لا . لا . لا ارضى !.. فاضرب عنقي والله يجزي الظالمين . ثم صاحت آه يا محمد يا ابن ابي بكر اين انت . آه .. لو تعلم مصير أسماء» .

فلما سمع سعيد قولها نزل بالسيف على عنقها وهو لا يريد قتلها لانه لا يزال يرجو رضاءها فاضطرب السيف في يده فوقع على جذع الشجرة فوق كتفها فأصاب وثاق أسماء فانحل ، فلما رأت وثاقها محلولا ظنت نفسها في حلم ، وأدركت انه اخطأ الضرب فانطلقت مسرعة نحوه وهي تتميز غيظا .

ورأى هجومها عليه فصاح برجاله فتكاثفوا حولها بحرابهم وسيوفهم فصاحت فيهم : «أما فيكم من يرعى الذمام ويخاف الله ؟» . قالت ذلك ولاحت منها التفاتة فرأت الركب قد اصبحوا منها قاب قوسين او أدنى، وسمعت صوتا كالرعد القاصف وقع في أذنها وقوع الماء على قلب الظمآن ، ألا وهو صوت محمد بن ابي بكر يقول : «لبيك يا أسماء لقد جاءك الفرج .. اخسأوا يا أنذال» .

أما هؤلاء فما كادوا يسمعون صوت محمد ويرون معه رجاله حتى حملوا ما استطاعوا حمله من متاعهم وولوا الادبار ، وما لبثوا ان تواروا عن الابصار تاركين بعض جمالهم والهودج .

ولا تسل عن أسماء وما حل بها لما سمعت صوت محمد فانها اخذت ولبثت صامتة تحسب نفسها في منام ؛ حتى دنا وناداها باسمها .. فقالت : «محمد ؟. اين كنت يا حبيبي ؟. هل بعثك الله لتنجيني ؟ أفي يقظة انا ام منام ؟»

قال : «بل في يقظة . ما الذي اصابك . هل من بأس عليك ؟»

قالت : «لا بأس بي غير جرح خفيف في زندي اصابني وأنا أدفع هؤلاء اللئام ؛ ولولاه لقتلتهم جميعا ولكن السيف سقط من يدي وعثرت بعقال الجمل فشدوا وثاقي» . ونظرت فرأت مع محمد رجلا آخر لم تعرفه فخجلت لما ابدته من دلائل الحب . فأدرك محمد ما بها فقال : «لا تجزعي ؛ هذا محمد بن جعفر ابن اخي امير المؤمنين ، وهؤلاء خدم

سائرون في ركابنا الى الكوفة وقد جئنا بمهمة في خدمة امير المؤمنين ، فاجلسي الان واستريحي وقصي علينا خبرك» . فجلست ومحمد بن جعفر يعجب بما يبدو من همة تلك الفتاة ، وكان قد سمع من محمد حديثها وأعجب بغيرتها على الامام وعلى الاسلام ، فأحبها بالسماع . فلما رأى فيها تلك الحمية رغب في سماع حديثها ، فجلسا وقصت أسماء ما جرى لها وهما شاخصان يزدادان اعجابا . وقص محمد ما حدث له بعد مجيء كتابها ، وقضوا الليل في الاحاديث ، وقبل الفجر اغمضت أجفانهم ساعة فاستراحوا ، فلما انبلج الصبح وأفاقوا نظروا الى ما حولهم فاذا ببقايا الهاربين ، وفيها كثير من الزاد والآنية وجثة ملقاة عن بعد . فنظر محمد اليها وسأل أسماء عنها ، فقالت : «انه احد اولئك الطغام ادركته بضربة ذهبت بحياته» .

قال : «بورك فيك ، نحن الان ذاهبون الى الكوفة وهي على مقربة منا فهلم بنا اليها لنقضي مهمتنا ثم نذهب بك الى المدينة تقيمين بها حتى تنقضي الحرب» .

فقالت وهي تنظر اليه نظر العاتب : «لعل كتابي لم يصل اليك ؟»

قال : «لقد وصل» . قالت : «فكيف تدعوني الى الاقامة بالمدينة وقد آليت لأنصرن الامام عليا ما استطعت الى ذلك سبيلا ؟»

قال : «لقد جاهدت وسعك ، وأنت مريضة الان» . قالت : «لا بأس علي باذن الله» .

قال : «فلنذهب معا الى الكوفة ثم نرى ما يكون» .

قالت : «لا ارى في ذهابي اليها فائدة» . قال : «وماذا اذن ؟»

قالت : «انت تسير في مهمتك ، وأما انا فأذهب الى أختك أم المؤمنين بالبصرة عسى ان أوفق الى اقناعها ببراءة الامام علي فتكف عن الحرب حقنا لدماء المسلمين . ان الامر لأعظم مما تتصوره يا محمد

وقد آليت على نفسي ان أضحي بكل شيء في سبيل دفع هذه الفتنة» .

فأعجب بحسيتها وقال لها : «ولكنني لا ارى سعيك الا ذاهبا عبثا» .

قالت : «علي السعي وعلى الله التوفيق . وكيف الطريق الى البصرة؟»

قال : «اذا كان لا بد من ذهابك اليها فاني أزودك بخبير من رجالي يسير في خدمتك حيث تشائين» . قال ذلك ونادى مسعودا وكان في جملة صحبه في هذا السفر ، فجاء مسرعا فقال محمد : «هذه أسماء التي حملت الي كتابها ، وهي تريد البصرة . فأوصلها الى معسكر أم المؤمنين وعد الي في الكوفة» .

فنهضت أسماء وأمرت مسعودا ان يهيىء الجمل . فقال : «ألا تركبين الهودج ؟»

قالت : «لا ليس ذا وقت التنعم اركبني جملا خفيفا» .

ونظرت الى محمد وقالت : «ان الوقت ثمين يا محمد ، فلنسر في مهمتنا عسانا ان نوفق الى تلافي الفتنة » .

فنهض محمد وركبوا جميعا . فسارت أسماء ومسعود نحو البصرة ، ومضى الباقون نحو الكوفة وهم يعجبون بما آنسوه من بسالة أسماء وحميتها وغيرتها .

سارت أسماء تستحث جملها ، ومسعود على جمله أمامها ليهديها الى الطريق ، فمضى معظم النهار لم يستريحا ولا تناولا طعاما ، فلما كان الغروب سألته أسماء عن البصرة فقال : «انها على بضع ساعات منا ، فأرى ان نبيت هنا الليلة ، لندخل المدينة صباحا» . قالت : «لا صبر لي على الانتظار ، هلم بنا ولا بأس من وصولنا الى البصرة ليلا فنقيم في المربد» .

قال : «ان جيش أم المؤمنين مخيم هناك» .

قالت : «سر بنا على خيرة الله فاني انما أقصد معسكرها» .

فلم يستطع مسعود مخالفتها ، وظل سائرا يتلمس الطريق تلمسا لان

الظلام كان حالكا ، واتفق ان هبت الريح وتلبدت الغيوم ، فلم يعد يرى الطريق امامه ولا النجوم حتى يهتدي بها . ولكنه رأى نورا بعيدا ، فعلم انه نور دير لبعض النساطرة كان قد زاره في بعض سفراته في تلك الانحاء ، فجعل ذلك النور وجهته وأسماء سائرة في اثره وهما صامتان لا يسمعان الا وقع أخفاف الجمال .

★ ★ ★

وكان مسعود قلقا لمسيرهما في هذا الظلام ، وخاف ان يعترضهما وحش او يهويا في هوة ، وقد عجب لشجاعة أسماء وتحملها مشقة السفر . على انه ما عتم ان سمع طنين سهم في الجو مر امام عينيه فجفل وصاح : «من ذا هناك ؟» . ولم يتم كلامه حتى سمع صوت أسماء تقول : «آه .. قتلتني قتلك الله !» . فعلم ان السهم اصابها فتحول اليها وقال : «ما بالك يا سيدتي ما الذي اصابك ؟»

قالت : «اصابني سهم في جنبي وأظنه قاتلي» . فترجل وأناخ جملها فاذا هي تسند جنبها بيدها والسهم ما زال مغروسا فيه ، فنزعه بخفة ، فصاحت صيحة دلت على شدة تألمها ، فتحير في امره وخاف ان تموت أسماء بين يديه في ذلك القفر المظلم ، فوضع يده على جرحها وضغطه بكفه وهو يرتعش خوفا ثم سألها عن حالها فقالت : «اني مقتولة لا محالة . فلم ير مسعود خيرا من ان يحملها على جمله ويسرع الى ذلك الدير . فأردفها وساق جمله وقاد جملها وراءه وأسرع الى الدير ، ولما وصله وجده مقفلا وسوره عاليا لا يمكن اجتيازه ، ثم تذكر ان القوم يعلقون على الاديار أجراسا يدقها من يجيء طارقا ، وبحث عن حبل الجرس حتى وجده فدق الجرس ، ولكن لم يجبه احد ، فكرر الدق فسمع صوتا جهوريا يقول : «من الطارق ؟» . فأجاب مسعود قائلا :

«افتح ناشدتك الله وأسرع الى اغاثتنا» •

فقال : «من انت ؟» • قال : «اننا غرباء في ضنك شديد افتح رعاك الله» • قال ذلك وصبر فلم يعد يسمع صوتا ، ونظر الى أسماء وهي مطروحة عند الباب تئن انينا عميقا فأمسكها بيدها ويده ترتجف خوفا عليها فرآها باردة ، فجس جرحها فغاصت اناملة في الدم وكان قد تخثر وملأ ثوبها فحاول ان يجلسها ليتحقق حالها فاذا هي تشخر وقد ارتخت مفاصلها فزاد اضطرابه وهم بأن يصيح ببواب الدير فرأى رأسا عاريا قد وخطه الشيب قد أطل من الكوة والمصباح في يده ينعكس نوره على لحيته البيضاء ويقول : «أصدقنا ايها الطارق •• من انت ؟»

فصاح مسعود قائلا : «اننا غرباء ومعي مريض يشرف على الموت انجدنا جزاك الله خيرا» •

ولم يتم مسعود كلامه حتى سمع صوت مزلاج الباب كأنه شد بحبل فانفتحت خوخة صغيرة في وسط الباب المصفح بالحديد ، فرأى مسعود انه لا يستطيع الدخول من الخوخة وأسماء على تلك الحال فسأل الراهب ان يفتح الباب كله ، وأشار الى أسماء وهي بين يديه ، فأسرع الراهب خفيفا برغم شيخوخته وجر عضادة ضخمة من خشب كان الباب موصدا بها ففتحه ، وساعد مسعودا في نقل أسماء الى اقرب غرفة هناك ، وأجلساها على الفراش ، وخف الراهب الى رئيس الدير ليخبره الخبر • وما لبثوا حتى جاء الرئيس وهو شيخ هرم قد رق بدنه وتجعد جلده واشتعل رأسه شيبا وعيناه تشعان قوة وصحة وقامته مستوية تدل على نشاط وهمة • فتقدم الى الفتاة وهي ملقاة على الفراش وسأل مسعودا عما بها فقص عليه الخبر • فأدارها على جنبها الصحيح وأخذ في كشف الجرح ، فحول مسعود وجهه عنها حياء واحتشاما ، واشتغل الرئيس وراهبه بغسل الجرح وتضميده ، وأمر بلبن فغسله به،

ثم صب عليه ماء مقدسا يحتفظون به لمثل هذه الحال وربطه ، وأمر بملاءة من نسيج الصوف فغطاها بها لتدفئتها ورش وجهها بالماء المقدس ودهنه بزيت من مصباح الدير المضيء امام صورة المسيح وهو يدعو الله ان يقرب الشفاء • وأفاقت أسماء لحظة ، ولكنها لم تقل شيئا ، ثم عادت الى الأنين • وكان رئيس الدير وهو يغسل وجهها يتفرس في ملامحها كأنه تذكر شخصا يشبهها ، وأخذ يعتذر لمسعود من الابطاء في فتح البـاب لتخوفهم من الطارقين الذين كثروا يومئذ على اثر قدوم اهل مكة الى البصرة ووقوع بعض الوقائع الحربية • فلما فرغ من تضميد الجـرح تحول الى مسعود فسأله : «من الفتاة ؟»

قال : «انها فتاة لبعض كبار الصحابة» • ولم يزد •

فأعاد الرئيس نظره اليها وأدنى المصباح من وجهها ، وكان قـد امتقع ونحل وهي مغمضة العينين كأنها في سبات وقـال : «فهي اذن مسلمة» • قال : «نعم» •

فلمح الرئيس في صدرها حجابا اعتاد النصارى جعله على صدورهم، وكان زندها مكشوفا فرأى عليه رسم الصليب ، فالتفت الى مسعود وقال: «ولكنني ارى عليها بعض شارات النصرانية» •

فضجر مسعود من تدقيقه وهو لا يهمه ساعتئذ الا شفاؤها فقال : «لا ادري يا سيدي سوى انها مسلمة فلعل لتلك الاشارة سببا لا أعلمه» •

فسكت الرئيس وجلس على مقعد بالقرب من فراش المريضة وهـو تارة ينظر الى وجهها وطورا يطرق متأملا كأنه يبحث في ذاكرته عـن شخص يشبهها •

ثم نظر الى مسعود وقال له : «امض يا بني الى غرفة الاضياف اذا اردت طعاما ، ثم اذهب الى رقادك مطمئنا فلا يمضي على هذه الفتاة قليل حتى تصحو وتتحسن صحتها بقوة الله وبركة صاحب هذا الدير» •

فقال مسعود : «اني لا اشعر بالجوع ولا انا في حاجة الى الرقاد وأوثر ان ابقى هنا لأرى ما يصيبها» •

قال : «لا خير في بقائك ، ولا بأس عليها لاننا ما مسحنا جريحا او مريضا بهذا الماء المقدس الا شفاه الله ، اذهب الى فراشك واذا شئت البقاء خارج الحجرة فلا بأس» •

فاستحيى مسعود من تكرار الاعتذار ، فخرج وجلس على حصير وراء الغرفة •

أما الرئيس ، فخلا الى الراهب وأخذا يتساران ويتخاطبان بلسان نصارى العراق الكلداني ويشيران الى أسماء • وكان مسعود اقلقه لا يغفل عن حركة تحدث ، فقلق لهذه المسارة ، وأصاخ بسمعه فلم يفهم من كلامهما شيئا ، فجعل يرصد ما يبدو منهما فاذا بالرئيس قد أمر الراهب فخرج ثم عاد وبيده كتاب ضخم ففتحه فقرأ وتمتم ثم ركع الاثنان ، فعلم انهما يصليان ، فصبر حتى فرغا من الصلاة وقاما ، فرأى الرئيس دنا من أسماء وهو يمسح الماء عن جبينها ويتأملها ، ثم جلس الى جانبها ولبث ينتظر ما يبدو منها • وبعد قليل تحركت كأنها تتقلب من جنب الى الآخر ، وما كادت تفعل حتى صاحت من الالم • فسر مسعود لصياحها لعلمه انه يدل على اليقظة ، فدخل الغرفة فرأى أسماء قد فتحت عينيها ونظرت الى ما حولها فوقف بصرها عند وجه الرئيس وحاولت التفرس فيه ولكن الضعف غلب عليها فذبلت أجفانها وأطبقت عينيها ، وعادت الى الرقاد ، فأومأ الرئيس الى مسعود بيده وابتسم كأنه يقول : «ابشر انها قد افاقت» • ففرح مسعود وظهر البشر عليه وتوسل الى الله ان يتم شفاءها • وقضت أسماء ليلتها راقدة وتنفسها هادىء •

★ ★ ★

وفي الصباح جاء مسعود الى غرفتها فرأى الراهب الشيخ الى جانبها يهتم بالكشف عن الجرح وتبديل رباطه ، فخرج حتى اذا فرغ الراهب من عمله نادى مسعودا فدخل ونظر الى وجه أسماء فاذا هي قد افاقت وفتحت عينيها فحمد الله ودنا منها ، فلما رأته قالت له : «آه من النذل الذي عجز عن لقائي وجها لوجه فأراد قتلي غدرا» • وحرقت اسنانها •

فقال مسعود : «لا بأس عليك يا سيدتي ولا تعبئي بما فعله ذلك الغادر على اننا لا ندري من هو» •

قالت : «لا ريب عندي في انه ذلك الجبان الذي حاول اختطافي فليس في هذه الديار من يعرفني سواه قبحه الله» •

قال : «هل أذهب الى مولاي محمد لأروي له ما وقع ؟»

فقطعت عليه الكلام قائلة : «لا • لا تفعل فان أخشى ما أخشاه ان يسرع الي اذا علم بما حدث ويهمل مهمته التي آنفذه فيها امير المؤمنين ، وهي تمس المسلمين عامة ، فلا يليق ان نشتغل عنها بحياة فرد من افرادهم • فضلا عن اني بحمد الله في عافية ، ولا أخالني الا راكبة جملا او جوادا الى معسكر أم المؤمنين عما قليل لأؤدي المهمة التي ندبت نفسي لها» • ثم صعدت بصرها وأشارت بيدها كأنها تقول : «فقدر لي الله ان أستأخر هنا الى حين» • وشفعت اشارتها بدمعتين كبيرتين انحدرتا على خديها ، ثم التفتت الى ايقونة معلقة امامها شغلت نفسها بالنظر اليها •

وكان الراهب في اثناء ذلك مشتغلا بقراءة درج (رق) في يده ، فيه فرض من فروض الصلاة •

ولما سمع مسعود كلام أسماء وشاهد الدمع ينحدر من عينيها تأثر من منظرها واستعظم كتمانها حالها عن محمد ، فقال لها : «كيف أكتم عنه حالك وقد عهد الي في العناية بك ؟»

قالت : «افعل ما اقول لك • اتركني هنا واذهب اليه لعله يحتاج اليك في شيء ، وأنا لا بأس علي في هذا الدير فان اصحابه اهل ضيافة ورعاية ، وقد صرت على مقربة من معسكر أم المؤمنين ، وبعد ايام أنقه من جرحي فأذهب اليها والاتكال على الله» •

فتركها ومضى الى غرفة الرئيس ، فرآه خارجا ، فسأله عن رأيه في جرح أسماء ، فطمأنه بألا خوف منه ، وبأنه سيتولى العناية بها حتى تشفى •

وبات مسعود هناك ، وفي الصباح خف الى رؤية أسماء فسر لتحسن حالها ، ثم ودعها ومضى وهي تلح عليه في ان يطمئن محمدا عنها•

- ١٤ -

عود الى السر

قضى رئيس الدير نهاره وليله ينظر الى أسماء ، ويجهد فكره لعله يتذكر عنها شيئا فلم يفتح عليه ، ثم خرج لوداع مسعود وعاد اليها وكانت قد تعبت من الرقاد وجلست في الفراش ، فلما دخل نظرت اليه وتأملت وجهه فتذكرت انها رأته مرة قبل ذلك في دمشق يوم سفرها منها مع امها الى المدينة • وكانت قد لحظت تفرسه فيها ، فلما عاد من وداع مسعود جلس على طنفسة بقرب فراشها فنظرت اليه وقالت : «ألا تذكر يا حضرة الاب المحترم انك رأيتني قبل الان ؟»

قال : «هذا ما شغل بالي منذ أتيتنا امس ، ولكنني لا أذكر ايــن رأيتك » •

قالت : «أظنك رأيتني في دمشق في العام الماضي» .

فلما سمع قولها انبسطت أسارير وجهه ، وتفرس في وجهها وقال : «نعم ، نعم . رأيتك مع امك وقد جئتما الى كنيسة مار يوحنا في دمشق لزيارة القسيس مرقس الشيخ البار . نعم أذكر ذلك . اين امك ؟»

فلما سمعت أسماء ذكر امها ترقرقت الدموع في عينيها فبادرت الى مسحهما بطرف كمها وسكتت .

فأدرك الرئيس ان هناك امرا محزنا دعاها الى البكاء فسكت قليلا ثم قال : «هل اصابها سوء ؟»

فقالت وهي تبكي : «نعم يا سيدي انها ماتت واأسفاه عليها ولولا مماتها ..» . وشرقت بدموعها .

فأطرق الرئيس ونظر الى الراهب ، وكان ما زال جالسا ، وأشار اليه ان يخرج من الغرفة ففعل . فلما خلا الرئيس الى أسماء جعل يخفف عنها ويعزيها حتى هدأ روعها ثم قال لها : «هل عرفت أباك ؟»

فلما سمعت سؤاله آنست من ورائه نورا لعلها تهتدي به الى استطلاع ذلك السر الذي كانت تظنه دفن مع امها . فقالت : «لا يا سيدي لم اعرفه وهل تعرفه انت ؟» . فسكت ثم قال : «لا يا ابنتي ، لست أعرفه ولكن» . وسكت .

فقالت : «ولكن ماذا ؟ قل يا سيدي ان معرفته تهمني كثيرا ، وقد كنت أحسب امر ابي مكتوما عن كل بشر سوى امي . ولما توفيت حسبته ضاع ودفن معها . فكيف عرفت انت ان ابي مجهول ، وقد كان ذلك سرا مكتوما عن كل انسان على ما أعلم ، فاطلاعك عليه يستلزم معرفتك حقيقته ، فهل تعرف شيئا عنه ؟» . قالت ذلك بلهفة .

فلبث الرئيس الشيخ صامتا يجيل اصابعه في لحيته كأنه يكتم امرا ود لو انه ظل كذلك . ولكنه لما رآها متلهفة قال لها : «صدقيني يا

ابنتي اني لا أعرف من هو ابوك ، ولكنني أعلم ان الذي كان مع امك يوم رأيتك في كنيسة مار يوحنا بدمشق ليس أباك» .

قالت وهي تخفض صوتها احتراما لمقام الرئيس وشيخوخته : «وكيف عرفت ذلك يا سيدي ؟ ربما لا يهمك امر هذا السر مطلقا ولكنه يهمني كثيرا لانني علمت كذلك ان يزيد الذي كان مع امي رحمة الله عليها ليس ابي ، وان لي أبا غيره كانت أمي قد وعدتني بذكره فقضى الله بموتها قبل وصولنا واحسرتاه عليها .. فظللت مجهولة النسب . وأظن ان الله قد اراد كشف هذا الذل عني على يدك» . قالت ذلك وهمت بتقبيل يده وهي تقول : «أتوسل اليك ان تطلعني على ما تعرفه في هذا الشأن» .

وكانت تتكلم والرئيس مطرق . فلما انتهت من كلامها رفع نظـره اليها وقال : «قلت لك يا ابنتي اني لا اعرف من هو أبوك ، وأما كيف عرفت ان لك أبا غير يزيد ، فلهذا قصة لا بأس بأن أرويها لك لعلهـا تفيدك » .

فاعتدلت أسماء في مجلسها ويدها على جنبها المجروح تضغطه تخفيفا للألم وأصغت لما يقوله الرئيس .

فقال : «أتذكرين يوم جاءت امك الى كنيسة مار يوحنا في دمشق وكنت انت معها فتركتك مع زوجها خارجا ، ودخلت هي لوداع القسيس الشيخ مرقس قسيس الكنيسة ثم خرج بعد ذلك لوداعك ؟»

قالت : «نعم يا سيدي أذكر ذلك الشيخ الهرم وخروجه لوداعنا» .

قال الرئيس : «قد كنت انا يومئذ ضيفا عنده ، فلما عاد رأيت على وجهه آثار القلق ، فقلت له : (ما بالك ؟) . فقال : (ان لهذه المرأة سرا عهدت به الي منذ بضع وعشرين سنة ، وهي الان شاخصة الى المدينة لتبوح به هناك . وأخشى لضعفها ومرضها ان تموت قبل وصولها فاذا حدث ذلك ظل الامر مكتوما عندي وحدي ، وأراني قد شخت وربما دنا

أجلي فيذهب السر ضياعا وهو يهم ابنتها التي كانت معها) • فقلت له : (أهو سر اعتراف ؟) • قال : (نعم) • فقلت : (لا سبيل اذن الى كشفه لي ، ولكنني أود ان أعرف موضوعه بحيث لا يكون في ذلك ما يعد اباحة) • فتردد كثيرا قبل ان يجيبني ثم قال : (ان الفتاة التي رأيتها مع هذه المرأة هي ابنتها ، وأهل دمشق يظنون هذا الرجل أباها ، ولكنه ليس كذلك) • فقلت : (ومن هو ابوها اذن ؟) • قال : (لا استطيع كشف هذا السر الان ، ولكنه سيظهر بعد قليل لان المرأة منطلقة بنفسها لكشف امرها لاصحاب الشأن في يثرب ــ المدينة ــ لأن أبا الفتاة الصحيح احد كبار المسلمين هناك) ••»

فبغتت أسماء وخفق قلبها ، فصعد الدم الى وجهها فتورد بالرغم من ضعفها وتطاولت بعنقها لسماع الحديث • فلما وقف الرئيس عند هذا الحد قالت بلهفة : «وما هو اسمه ؟» • قال : «لا أعلم يا ابنتي ولم أسأل القسيس عنه لعلمي انه لا يبوح به حفظا لسر الاعتراف» •

فبهتت وقد عاد اليها اصفرارها للهفتها وتأثرها وقالت : «وكيف يكون ذلك وأنا لا اعرف يثرب قبل هذه المرة ، ولم أسمع أمي تذكرها !»

قال : «علمت يا ابنتي ان امك كانت تبالغ في اخفاء هذا الامر عن كل انسان ، لانها رومانية الاصل حملها بعض قواد المسلمين الذين فتحوا الشام في جملة السبايا وأهداها الى ابيك ، فمكثت عنده بضع ليال ، ثم قدم عليها اخوها خلسة وحرضها على الفرار ، ففرت الى دمشق ، ولم تستطع الظهور خوفا من العيون فيممت مصر • فظهر حلها هناك وقبل ان تضعك طلبت القسيس مرقس وكان في كنيسة المعاقة، وكانت تعرفه من الشام واعترفت له بسرها ، وذكرت له اسم ابيك • ثم كانت الحرب بمصر ففتحها العرب ، وقتل خالك ، ووقعت أمك بين السبايا ثانية وأنت طفلة ، فتزوجها يزيد الذي تعرفينه وأقام بها بدمشق

وأنت معها • فلا تعجبي لاغفالها ذكر ابيك لانها كانت تعد نفسها مجرمة، وتخشى اذا عرف مكانها ان يقتص منها» •

ولم يتم الرئيس كلامه حتى استولت البغتة على أسماء وعرتهـــا الدهشة ولبثت صامتة وهي تأمل ان يكون الرئيس عارفا اسم ابيها ، فتوسلت اليه ان يخبرها به • فأكد لها انه لا يعرفه ثم قال : «اذا لقيت القسيس مرقس في دمشق فانهيطلعك عليه ، وربما أطلعك على أمــور كثيرة ، فأسرعي اليه حال شفائك قبل ان يقضي آجله لانه شيخ طاعن في السن • انظري الى شيخوختي واعلمي اني اذا قيست الاعمار بالسنين كنت أصغر من اولاده» •

وكانت أسماء قد تعبت من الجلوس فلما يئست من معرفة اسم ابيها من الرئيس غلبها التعب على امرها فألقت بنفسها على الفراش وتنهدت تنهدا عميقا وهي صامتة تفكر فيما سمعته ، واشتاقت نفسها الى المسير الى دمشق ، لعلها تلقى القسيس فيقص عليها الخبر •

- ١٥ -

وقعة الجمل

قضت أسماء في الدير اياما تتقلب على فراش الوجع والقلق ولا تدري اذا هي شفيت هل تسير الى دمشق لمقابلة القسيس ام الى أم المؤمنين لأداء مهمتها • وكانت تتململ لانحباسها في الدير فلم تستطع الوقوف والخروج الى فناء الدير الا لتتمرن على المشي •

وصعدت ذات يوم الى سطح الدير فأطلت منه على سهل واسع رأت في آخره مما يلي البصرة معسكرا فيه الخيام والاعلام وحوله الجمال ترعى في بعض المغارس ومعها العبيد ، فعلمت انه معسكر أم المؤمنين في ضاحية البصرة ، وكان الوقت أصيلا فجعلت تفكر فيما تنويه من مخاطبة أم المؤمنين وما تتوقع ان تسمعه من دفاعها وتهيىء الرد عليه . وبقيت غارقة في تصوراتها حتى مالت الشمس الى المغيب فنظرت اليها وقد كبر جرمها وتكورت ومالت الى الاحمرار . فاشتغلت بالنظر الى الافق والتمتع بذلك المنظر البديع . ولم تكد تغيب الشمس حتى أحست بالبرد فدخلت تلتمس الدفء في الفراش ، فباتت تلك الليلة وهي تتوقع ان تصبح ناقهة فتنظر هل تسير الى معسكر أم المؤمنين ام الى الشام .

فلما اصبحت شعرت بنشاط ، ولكنها لم تأنس من نفسها القدرة على ركوب الجمل او الجواد . فلم تر بدا من الاصطبار حتى يتم التئام الجرح وتتقوى ، فالتمست من رئيس الدير ان يأذن لها في الخروج للرياضة في بساتين الدير ، فأذن لها فخرجت وحدها الى البستان تمشي الهوينى ، فابتعدت عن الدير مسافة طويلة وهي لا تدري ، فانكشف لها من الافق قسم كان مستترا وراء التلال فرأت فيه خياما وأعلاما وجمالا وعبيدا ، وما كادت تتفرس في ذلك الحشد العظيم حتى علمت انه معسكر الامام علي فخفق قلبها ومشت قليلا حتى دنت من آكمة صعدت اليها وجعلت تتأمله ونفسها تحدثها بالذهاب اليه لعلها ترى محمدا فيه او تسمع شيئا عنه ، على انها تشاءمت من قدوم جيش الامام لانه نذير الحرب .

وبينما هي هكذا ، اذ سمعت صوت رجل يزجر جملا على مقربة منها فالتفتت فاذا ببعير سائب يعدو ورجل يركض في اثره يستنجد الناس

ليعينوه على القبض عليه ، فلم يسع أسماء السكوت مع ضعفها فاعترضت الجمل ليرجع ، وكان قد جمح ولكنه ظل مسرعا في سبيله فركضت نحوه وتعلقت بعنقه لانه لم يكن له رسن فظل راكضا وأسماء ممسكة عنقه بذراعيها كأنها تحاول الصعود الى ظهره • ولكنها ما لبثت ان شعرت بخور قواها وأحست كأن شيئا تمزق في مكان الجرح واشتد بها الالم حتى لم تعد تستطيع صبرا عليه • وكان البعير في اثناء ذلك قد قلل سرعته فأدركه صاحبه وأمسك بعنقه حتى أناخه : فسقطت أسماء الى الارض لا تعي شيئا من شدة الالم •

وكان صاحب البعير شابا من عبد القيس احدى القبائل التي أنجدت عليا وجاءت معه للحرب ، فلما رأى أسماء ساعدته في القبض على بعيره ثم رأى ما ألم بها من التعب حتى سقطت خائرة القوى ، شعر بأنه السبب فيما أصابها فدنا منها وأجلسها وقد بهره جمالها وأعجبته هيئتها فكلمها فأفاقت ويدها على جنبها تتقي الالم • ولما رأت ذلك الغريب بجانبها علمت انه صاحب البعير • اما هو فحالما نظرت اليه هابها ، ولم يسعه الا الاعتذار عما اصابها بسببه •

أما هي فتجلدت وضغطت جنبها بيدها واغتنمتها فرصة لاستطلاع امر ذلك الجند ، فقالت له : «ممن انت ؟» • قال : «من عبد قيس» •

قالت : «ومن هؤلاء الجند الذين أمامنا ؟»

قال : «أما سمعت بما قام بين الامام علي وأم المؤمنين ؟»

قالت : «سمعت وعلمت ، وهل هذا الجند هو جند الامام علي ؟»

قال : «نعم ونحن في نجدته لاعتقادنا فضله على سائر الناس» •

قالت : «وكم عدد رجاله ؟»

قال : «عشرون الفا بين راجل وفارس» •

قالت : «أتعلم عدد جند أم المؤمنين ؟»

قال : «أظنهم ثلاثين الفا» •

فبهتت وهي تفكر في الفرق بين الجيشين ، والالم يمنعها من مواصلة الكلام ، على انها تشددت وقالت : «ولمن ترى الغلبة ؟»

فابتسم الشاب وقال : «لقد قضي الامر امس» •

قالت : «ماذا تعني ؟» • قال : «لقد تم الصلح وانصرف العداء» •

فبغتت أسماء ولم تصدق مقاله فقالت : «وكيف ذلك ؟ أصدقني الخبر» • وشعرت مذ سمعت خبر الصلح بنشاط ساعدها على النهوض، فمشت وهي تخاطب الرجل حتى جلست على حجر تحت شجرة ، وأسندت ظهرها اليها وضغطت الجرح بكفها فوق أثوابها فأراد الرجل ان يشرح لها اصل العداء لظنه انها خالية الذهن منه ، فابتدرته قائلة : «لا تشرح القصة فاني أعلمها ، ولكن اخبرني كيف تداعوا الى الصلح» •

فعجب الرجل لعلم أسماء ، وود لو يعرف من هي ، ولكنه اجابها عن سؤالها قائلا : «وصل جيشنا الى هنا امس ، فلما تقابل الجيشان خرج من جيش أم المؤمنين طلحة والزبير على فرسيهما يطلبان المبارزة فخرج اليهما الامام علي حتى اختلفت أعناق دوابهم ونحن ننتظر عاقبة ذلك الملتقى ، لانه سيكون قاضيا اما علينا واما لنا ، فتجاولوا مدة ونحن ننظر اليهم لنرى ما يبدو منهم ، فاذا هم وقوف يتخاطبون • وعلمنا بعد رجوع الامام انه لما لقيهما قال لهما : (لعمري قد أعددتما سلاحا وخيلا ورجالا ، ان كنتما أعددتما عند الله عذرا فاتقيا الله ولا تكونا كالتي نقضت غزلها من بعد قوة انكاثا • ألم اكن اخاكما في دينكما تحرمان دمي وأحرم دمكما ، فهل من حدث أحل لكما دمي) • فقال طلحة : (ألبت علي عثمان) • قال علي : (يومئذ يوفيهم الله دينهم الحق • يا طلحة تطلب دم عثمان ، فلعن الله قتلة عثمان ، يا طلحة أجئت بعرس رسول الله صلى الله عليه وسلم تقابل بها وخبأت عرسك في البيت،

أما بايعتني ؟) . قال : (بايعتك والسيف على عنقي) . قال علي للزبير : (ما اخرجك ؟) قال : (انت ولا اراك لهذا الامر اهلا ولا أولى به منا) . فقال له علي : (ألست له اهلا ، قد كنا نعدك من بني عبد المطلب حتى بلغ ابنك ابن السوء ففرق بيننا) . وذكره اشياء وقال له : (أتذكر يوم مررت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في بني غنم فنظر النبي فضحك وضحكت اليه فقلت له : (لا يدع ابن ابي طالب زهوه) . فقال لك رسول الله صلى الله عليه وسلم : (ليس بمزه ، لتقاتلنه وأنت ظالم له) . فقال الزبير : (اللهم نعم ولو ذكرت ما سرت مسيري هذا ، والله لا أقاتلك ابدا) .

«وهكذا عاد الامام الينا بالخبر ، وتوسمنا خيرا من ندم اولئك على عملهم ، ثم علمنا ان الزبير لما رجع من ساحة المبارزة سار تـوا الى أم المؤمنين فقال لها : (ما كنت في موطن منذ عقلت الا وأنا أعرف فيه امري، غير موطني هذا) . فقالت له : (ما تريد ان تصنع ؟) . قال : (اريد ان أدعهم وأذهب) . فوبخه ابنه عبد الله وقال : (جمعت بين هاتين الفئتين، حتى اذا حدد بعضهم لبعض ، اردت ان تتركهم وتذهب ، ولكنك خشيت رايات ابن ابي طالب ، وعلمت انها تحملها فتية أنجاد ، وان تحتها الموت الاحمر فخفت) . فاعتذر الزبير بأنه حلف ألا يقاتل عليا ، ثم تفاوضوا بعد ذلك مع طلحة وغيره ، فتم الاتفاق على الصلح ، وبتنا ليلتنا البارحة والقلوب هادئة ، وكل فرح بما حقن من دماء المسلمين» .

فلماسمعت أسماء كلام الرجل أشرق وجهها وأبرقت أسرتها ونسيت ألمها وضعفها ، وقالت : «بشرك الله بالخير يا اخا عبد القيس» . وأرادت الاستفهام عن محمد ومقامه ، فقالت : «وهل جاء اهل الكوفة لنصرة الامام ؟ »

قال : «لقد جاءوا بعد ان ترددوا كثيرا» .

قالت : «كيف يترددون في نجدة امير المؤمنين ؟»

قال : «ذهب اليهم اولا محمد بن ابي بكر ومحمد بن جعفر ، فلقيا أبا موسى الاشعري عامل الكوفة ، فكلماه ففضل القعود على المسير ، فعادا بذلك الى الامام فأرسل الاشتر وابن عباس ، فعادا ولم ينـالا وطرا ، فأرسل ابنه الحسن وعمارا بن ياسر فجاءا الكوفة ، وكانت عائشة قد ارسلت رسلها تدعو الناس الى نجدتها ، وظل ابو موسى يحـرض الكوفيين على القعود فلا يسيرون مع هؤلاء ولا مع هؤلاء ، فجادلهم الحسن حتى أقنعهم بأن يقوموا لنصرة امـير المؤمنين فجاء منهـم تسعة آلاف» .

فأدركت أسماء من حديثه ان محمدا في معسكر الامام علي ، وكانت قد تعبت من الجلوس على الحجر فنهضت تلتمس الدير لمداواة الجـرح لانها شعرت وهي قابضة عليه ان الدم يسيل منه . فأحس الرجل بمرادها فأراد مساعدتها في المشي فأبت فرافقها حتى دنت من الدير فودعها وعاد بجمله يطلب المعسكر .

أما هي فالتمست حجرتها فلقيها الرئيس عند الباب فسألها عن حالها فقصت عليه حديث الجمل ووقوعها . فهم بالجرح فأعاد تضميده وبشرها بألا خوف منه ، فلبثت تفكر فيما سمعته وكانت كلما تمثل لها وقـوع الصلح يكاد قلبها ان يطير فرحا لنجاتها من مصائب كثيرة وحقن دمـاء الناس . على انها وهي في وسط هذه المسرات تذكرت ما سمعته مـن الرئيس عن ابيها ، فانقبضت نفسها مخافة ان يضيـع خبره ، فصممت عزمها على ان تسافر الى دمشق حالما تستطيع الركوب ، لتقابل القسيس الشيخ وتعرف منه من يكون ابوها .

★ ★ ★

قضت أسماء اياما وهي تتوقع في كل يوم ان ترى محمدا آتيا الى الدير لمشاهدتها ، لعلمها ان مسعودا قد اطلعه على ما اصابها ، فلا بد من مجيئه ولاسيما انه على مقربة منها • فلما مضت ايام ولم يأت ايقنت ان مسعودا لم يره بعد ذهابه من الدير • وكان الجرح قد التأم فلم تر بدا من لقاء محمد لتخبره بعزمها على المسير الى دمشق وتسأله دابة تركبها وخادما يسير في ركابها • ولكنها تذكرت الحسن وما لحظت منـه يوم كانت في المدينة فخافت ألا يرضى محمد بذهابها الى المعسكر فعزمت على استقدامه اليها ، فكتبت ورقة بذلك واستأذنت رئيس الدير فـي ارسال احد خدمه بها ، فجاءها ببعضهم ، فاختارت احدهم وأفهمتـه كيف يسير والى من يسلم الورقة ودلته على الجهة التي يلقى فيها جيش الامام علي •

فخرج وجلست هي في فراشها تنتظر رجوعه ومحمد معه • وكلمـا تصورت لقاءها محمدا اختلج قلبها في صدرها وأعدت عبارات تخاطبه بها تسفر عما في نفسها ، وقد اهمها من الصلح انقضاء تأجيـل الزواج فاخذت تعد نفسها بالسعادة المستقبلة ولاسيما اذا تمكنت من معرفة اسم ابيها الصحيح •

قضت ساعة وبعض الساعة في مثل هذه الهواجس وهي كلما سمعت سعال رجل او وقع أقدام او جعجعة بعير او صهيل فرس ظنت رسولهـا عائدا ومعه محمد • ولم تعد تستطيع صبرا على الانتظار فصعدت الـى سطح الدير تستطلع قدومه عن بعد ، ولم تكد تخطو خطوتين فـوق السطح حتى رأت رسولها راجعا يعدو ويلتفت وراءه ، فاضطربت ولبثت تنتظر وصوله فما عتم ان وصل وهو يلهث من شدة الجري • فقالت : «ما وراءك ؟» • قال : «خرجت من الدير الى الجهة التي رسمتها لي ، فما وصلت الى المكان حتى رأيت النبال تتطاير في الجو ، فلما اشرفت على

المعسكر رأيت الحرب محتدمة» .

فبغتت أسماء وقطعت كلامه قائلة : «الحرب ؟. بين من ، ومن ؟»

قال : «سألت بعض العبيد ممن كانوا يلتقطون النبال المتساقطة خارج المعسكر ، فأخبرني ان قد نشب القتال بين الامام علي وعائشة ، وكانوا قد ابرموا صلحا فنقضوه» .

قالت : «لا حول ولا قوة الا بالله العلي العظيم ومن نقضه ..؟»

قال : «لا أدري ولكن العبد اخبرني انهم باتوا على الصلح فأصبحوا فاذا بجيش عائشة على الحرب» . فقالت : «ألم تلق محمدا ؟»

قال : «وكيف ألقاه وأنا لم استطع الدنو من المعركة مخافة ان تصيبني النبال فأموت ولا يبقى من يرجع اليك بالخبر» . فثارت الحمية في رأس أسماء ولم تر بدا من العدول عن دمشق الى معسكر أم المؤمنين لتكلمها في الرجوع الى الصلح قبل ان يتفاقم الخطب .

فسألت رئيس الدير عن دابة تركبها فقال : «ان خادمك الاول ترك هنا جملك الذي جئت عليه» .

قالت : «اين هو ؟» . فأمر الرئيس باعداده للركوب ، وذهبت أسماء الى حجرتها وجعلت ثيابها على شكل مشابه ثياب الرجال ، وشدت وسطها بمنطقة عريضة والتفت بعباءة وغطت رأسها بكوفية وتقلدت حساما كان قد اعطاها اياه محمد يوم سفرها مع مسعود ، وركبت الجمل، وولت وجهها نحو معسكر أم المؤمنين ، وكان الوقت ضحى وهي للهفتها لم تودع الرئيس حتى اذا بعدت عن الدير تذكرت ذلك فالتفتت اليه وأشارت بالسلام بيدها ورأسها . ولم تبعد عن الدير قليلا حتى أطلت على المعركة فرأت السهام تتطاير من كل جانب حتى كادت تحجب أشعة الشمس بدلا من الغبار ، لان الجو كان قد امطر في ذلك الصباح فتماسك التراب . ووقفت هنيهة ريثما تعرف الطريق الذي يؤدي الى

أم المؤمنين • فرأت الرجال يهرعون يمينا وشمالا وفيهم المشاة والفرسان وسمعت النساء من وراء الجمع يحرضن الرجال على الثبات ، وكان الجو صافيا لا غبار فيه فجعلت تتفرس في الرجال عساها ان ترى محمدا فلم تره ، ولكنها ادركت ان النصر للامام علي لانها رأت رجاله يتقدمون، والآخرين يفرون امامهم ويعثر بعضهم بجثث جرحاهم وقتلاهم ، فأجالت بصرها لعلها ترى فسطاط عائشة لتسرع اليها وتخاطبها في الكف عن القتال ، فلمحت مروان بن الحكم على فرسه يتعقب فارسا آخر علمت انه طلحة وقد رماه مروان بسهم في رجله فشكها في صفحة الفرس • ثم رأت طلحة حوّل عنان جواده نحو البصرة وترك الجيشين يقتتلان ، فعلمت انه انما ذهب اليها لجرح بليغ اصابه ، فتأكدت فشل جند مكة • ولكنها عجبت لما فعله مروان بطلحه وهما من جند واحد • على انها أولت فعله بطمعه في الخلافة لبني أمية ، وعلمه بأنها اذا خرجت من يد الامام علي ، فلن تكون لغير طلحة او الزبير ، فاذا قتل هذان فلا يبقى من يتنافس فيها بني أمية •

★ ★ ★

وبينما هي تتأمل حركات الجيش وتسمع ضجيج الناس ومقارعة السيوف والرماح وصهيل الخيل ، رأت في معسكر أم المؤمنين فسطاطا كبيرا علمت انه فسطاطها ، ولكنها لم تر ازدحاما فارتابت في امره ، ثم لمحت جمعا متكاثفا حول هودج فوق بعير فعلمت من لون الهودج وشكله انه هودج أم المؤمنين فساقت جملها اليه ، ولكنه لم يسعفها ، ثم رأت فرسا تائها خارج المعركة فأسرعت اليه وركبته ، وسارت تلتمس الهودج، ولم تكد تصل الى وسط المعركة حتى رأت فارسا خارجا منها يطلب عرض البر لا يلتفت وراءه ، فعرفت انه الزبير وتذكرت انه أقسم ألا يحارب

عليا ، فقالت في نفسها : «قد فر الزعيمان ولا اخال أم المؤمنين اذا علمت ذلك الا آمرة بالكف عن القتال» • فاخترقت المعركة لا تبالي ما يتساقط عليها من النبال او يعترض فرسها من جثث القتلى والجرحى ، ولم تدن من الهودج حتى سمعت أم المؤمنين تصيح بصوتها الجهوري وتنادي احد رجالها وقد مدت يدها من الهودج وفيها المصحف وهـــي تقول : «اليك يا كعب • ادع الناس الى هذا المصحف» • فلم يكد الرجل يتناوله حتى أصيب بنبل فقتل • وكانت أسماء قد وصلت الى الهودج فــرأت الرجال حائمين حوله وعائشة تقول : «ايها الناس العنوا قتلة عثمـــان وأشياعهم » •

فترجلت أسماء وأقبلت الى الجمل فرأت الهودج قد اصبح كالقنفذ لكثرة ما غرس فيه من السهام المتساقطة ، وأرادت التسلق على الجمل لتلقى عائشة في الهودج فاعترضها بعض الرجال ، فأزاحت لثامها ونادت أم المؤمنين ، فعرفت صوتها فأذنت لها ، فقال قائل من الوقوف : «هبى اننا أذنا لك بالصعود على الجمل تسلقا فهل تستطيعين ذلك ؟» • فتذكرت ما اصابها من تسلق جمل الامس ، فعادت الى فرسها واتصلت منــه بالهودج ، وأم المؤمنين تعجب لوجودها هناك • أما أسماء فترامت على قدمي ام المؤمنين وهي تقول والدمع ملء عينيها : «اشفقي يا أماه على اولادك ، احقني دماءهم ، ارحمي أبطالا يوحدون الله ، لقد كفى مــا اصابهم من البلاء ، فمري بالكف عن القتال ، ان السلام بين شفتيـــك وأنت أم المؤمنين وزوج رسول رب العالمين • ثم ان طلحة والزبير اللذين أضرما نار الفتنة قد فرا من المعركة ، فانهضي وأطلي على الجنديـــن وانظري القتلى من الفريقين» •

وكانت أسماء تتكلم بخشوع وتذلل ، وهي جاثية عند قدمي عائشة• وكانت عائشة في ابان اضطرابها لا تملك وقتا للنظر في الامر والناس

حول هودجها يتلقون ما يتساقط عليه من السهام حتى قتل عند خطام الجمل اكثر من اربعين رجلا . فنظرت الى أسماء وقد أثر فيها كلامها ، مع ما توسمته من فشل جندها وقالت : «لقد كنا على موعد للصلح ، فلا ندري ما حملهم على نقضه ؟»

فقالت أسماء : «انهم يقولون بأنكم الناقضون» .

قالت : «كلا . لقد بتنا مصالحين ، فأصبحنا واذا هم يقاتلوننا» .

قالت أسماء : «ان في الامر دسيسة فلعل بعض الاعداء سعى فسادا فأوقع الشقاق بينكم ، وعلى كل حال ان الصلح قريب وتكفي كلمة منك لحقن الدماء» .

قالت أم المؤمنين : «لقد قضي الامر ولم يعد الرجوع مستطاعا ، فلا تلتمسي ذلك مني» . قالت ذلك وفي لهجتها وملامحها ما يزجر أسماء عن الكلام . فصمتت وعادت عائشة الى استنهاض القبائل حتى اصبح كل من بقي من رجالها يدافع عن جملها .

وهمت أسماء بالنزول من الهودج ولكنها لم تجسر تهيبا من عائشة، ثم سمعت صوت علي يقول : «اعقروا الجمل فانه ان عقر تفرقوا» . ولم يكد يتم أمره حتى احست أسماء بسقوط الجمل وهو يهدر من الالم ، فعلمت انهم عقروه ، فهمت بالخروج من الهودج ، ولكنها أطلت قبل ذلك فرأت كل من حوله من الرجال تفرقوا وعلي يقول لرجاله : «ارسلوا من ينادي في الناس ألا يتبعوا مدبرا ولا يجهزوا على جريح ولا يدخلوا الدور» . ثم قال : «احملوا هذا الهودج من بين القتلى» . فحملوه وهي ما زالت فيه مع أم المؤمنين ، وهذه غافلة عنها لعظم ما ألم بها . وكانت أسماء تنظر اليها وهي متهيبة خشية ان تنتهرها وربما لا تستطيع جوابا. ثم سمعت عليا يقول : «يا محمد يا ابن ابي بكر ، اضرب على اختك قبة ، وانظر هل وصل اليها شيء من جراحة» .

فلما سمعت ذكر محمد وما أمره به علي ، لبثت تنتظر ان تراه مطلا من الهودج وقلبها يخفق . أما هو فلما أدخل رأسه في الهودج ورأى أسماء مع اخته ، ذهل ، ولكنه تجلد ولم يكد يتكلم حتى سمع اخته تقول : «من انت ؟» . قال : «اخوك» .

قالت : «الحمد لله الذي عافاك» .

وأشار محمد الى أسماء ان تخرج . فخرجت ونظرت الى ما حولها فرأت الارض قد خلت من الناس غير من قتل او جرح جرحا بليغا فلا يستطيع المسير . وسمعت أنين الجرحى ورأت الدم جاريا قنوات ، والخيل والنوق سارحة بعضها يعرج وبعضها يهدر من الجراح ، ورأت في بعض تلك الدواب سهاما لا تزال مغروسة في رقابها او اعجازها . وكان المنظر رهيبا محزنا مؤثرا . وفيما هي تنظر في ذلك اذ رأت عليا دنا من هودج أم المؤمنين وقال : «كيف انت يا أماه ؟»

قالت : «بخير» .

قال : «يغفر الله لك» . قالت : «ولك» .

ثم أمر اخاها ان يدخل بها البصرة لتستريح .

وفيما هو يتكلم رأى أسماء واقفة فعرفها . فلما رأته ينظر اليها همت بيده فقبلتها وقد علتها البغتة واحمرت وجنتاها خجلا فقال : «اين كنت يا أسماء ؟»

ثم سمع صوت أم المؤمنين تقول من داخل الهودج : «اكرموا هذه الفتاة ، فوالله اني ما رأيت اكثر غيرة منها على الاسلام ولا أصدق لهجة في الدفاع عن الحق ، وهي انما خاطرت بحياتها وأتتني تحت النبال المتساقطة تلتمس الكف عن القتال» .

فخجلت أسماء لهذا الاطراء وأطرقت ، فقال لها علي : «بورك فيك يا بنية ، اني توسمت فيك هذا الخير منذ رأيتك للمرة الاولى . تعالي» .

ثم سار وسارت في اثره وهي مطرقة ، وهو في شاغل بأمر الجرحى ، والامر بدفن القتلى • ثم علم ان طلحة والزبير قتلا فأخبرته أسماء بما رأته من مروان • فقال : «لا تعجبي ممن كان سبب هذه الفتنة ان يفعل مثل ذلك» •

وظلوا سائرين الى البصرة حتى دخلوها ، فنزل علي في دار العامل بقرب المسجد ، وتواردت الناس لمبايعته وقد سلم الامر له وخلا له الجو•

ونزلت أسماء في تلك الدار مع بعض النسوة ممن جئن مع الامام ، وكانت عرفتهن اثناء اقامتها بالمدينة • وظلت اياما تحاول ان ترى محمدا دون ان تستطيع ذلك ، اذ شغله الامام علي بأمر العناية بأخته أم المؤمنين، فلم يكن يستطيع التخلي عنها ، فرأت ان تسير هي اليه بحجة زيارة أم المؤمنين •

فلما التقيا ، سألته عما أقعده عن زيارتها مع علمه انها كانت جريحة في الدير ، فاستغرب قولها وأكد لها انه لم يعرف عنها شيئا ، لان مسعودا لم يعد اليه وهو لا يعرف مقره ثم قال : «ها قد انقضت الحرب وانتصر الامام والحمد لله ، وآن لنا السكون والاجتماع» •

فسكتت أسماء وقد ادركت انه يشير الى الزواج ، ثم قالت : «ولكنني على أهبة السفر الى الشام» •

قال : «ولماذا ؟» • قالت : «لأعرف اسم ابي» •

قال : «وكيف ذلك ومن يخبرك عنه ؟» • فقصت عليه خبر رئيس الدير ، فعجب وأصبح اكثر منها اشتياقا لمعرفة ابيها وارتفع مقامها في عينيه لما علم انها ابنة احد كبار الصحابة في المدينة ، فقال لها : «لا يبعد ان تكون بيننا قرابة قبل القرابة التي نسعى فيها اليوم» •

فعاودها الخجل ، وغيرت مجرى الحديث فقالت : «وكيف أم المؤمنين ؟»

قال : «هي في خير وقد امرني الامام باعداد ما يلزم لسفرها الى مكة ، وها اني أعد ذلك ، وقد جهزت لها اربعين امرأة من نساء البصرة المعروفات ليسرن معها ، فاذا سافرت ..»

ولم يتم كلامه حتى رأى الناس في هرج يصيحون : «جاء امير المؤمنين» . ثم وصل علي ، وكانت عائشة قد تهيأت للسفر وأعد لها الهودج ، وجاء الناس لوداعها فخرجت لوداعهم ، فلما رأت عليا قالت وهي تنظر الى الناس : «يا بني ، لا يعتب بعضنا على بعض ، انه والله ما كان بيني وبين علي في القديم الا ما يكون بين المرأة وبيت أحمائها ، وانه على معتبي لمن الاخيار» .

فقال علي : «صدقت والله ، ما كان بيني وبينها الا ذاك ، وانها زوجة نبيكم في الدنيا والآخرة» . ثم قال لمحمد : «سر يا محمد مع اختك الى مكة» .

فلما سمعت أسماء هذا الامر اضطرب قلبها ونظرت الى محمد ونظر هو اليها ففهم كل منهما ما في ذهن الآخر .

★ ★ ★

وكان الحسن قد جاء مع ابيه لوداع أم المؤمنين ، فرأى أسماء وقد علم بما اظهرته من الغيرة على الاسلام فازداد حبه لها وصمم على خطبتها وهو لا يعلم ما بينها وبين محمد . ثم علم ان أباه عازم على السير الى الكوفة لاخذ البيعة كما اخذها في البصرة .

وكانت أسماء لما ودعت محمدا عادت الى عزمها على التوجه الى الشام لملاقاة القسيس مرقس وسؤاله عن ابيها ، وقد اصبح هذا الامر شغلها الشاغل ، فأتت عليا بعد سفر محمد لتودعه وتخبره بعزمها وتسأله رفيقا ودابة فلم تستطع مقابلته لكثرة المبايعين . فصبرت حتى سار ومن

معه الى الكوفة فسارت مع السائرين •

وقضت في الكوفة اياما كأنها على جمر الغضا ، حتى اصبحت يوما وقد ملت الانتظار فصممت على الاستئذان في السفر ، فسألت عن علي فقيل لها انه في مجلسه وحده ، فاستأذنت في الدخول عليه فأذن لها ، فدخلت فاذا هو جالس في قاعة واسعة ليس فيها احد سواه • فلما رآها هش لها ورحب بها ، فهمت بتقبيل يديه وهي تقول : «نحمد الله على ما أولانا من نعمة في احقاق الحق ، ونشكره على ما اولاك من النصر» •

فتنهد وقال : «كنت أود ان تنتهي الفتنة ولا يسفك فيها دم ، ولكنها ابت ان تنام الا على فراش من الدماء» • قال ذلـــك وسكت ثم قال : «وكنت عازما على استقدامك الي لأشكرك على سعيك في هذا الامر فقد سعيت فيه سعيا حميدا» • فأطرقت ولم تجب •

فقال لها : «ولنا فوق ذلك اقتراح نقترحه عليك عساه ان ينـــال موافقتك » •

فقالت : «اني أمة اذا أمرت أطعت» •

قال : «اننا نود استبقاءك عندنا فتكونين بمنزلة ولدنا» •

فأدركت أسماء ما وراء ذلك فأجفلت مخافة ان يتحقق ظنها ، لعلمها ما في نفس الحسن ، ولكنها لم تستطع غير اظهار الاستحسان فقالت : «اني أحقر من ان احظى بهذا الشرف العظيم» •

قال : «لا ، بل انت اهل الأفضل منه ، ولا اخفي عليك ان ولـــدي الحسن راغب فيك ، لما آنسه من غيرتك على الاسلام ورغبتك في اعلاء كلمته ، فهل ترضين به خاطبا ؟»

فلم تستطع اخفاء عواطفها بما ظهر على وجهها من الاحمرار السريع ولكنها تجلدت وقالت وهي تشكر : «اني لا أستحق هذا الاكرام يـــا مولاي لانه فوق ما تتوقعه فتاة يتيمة غريبة مثلي ، كيف لا وفيـــه

التقرب من اعظم رجال هذه الامة وابن عم النبي ، ولكنني جئت الى مولاي الامام الان في امر أهمني كثيرا وهو يدعوني الى سفر قريب لا ارى منه بدا فجئت أستأذن امير المؤمنين في شأنه» .

قال : «وما ذلك ؟» . قالت : «لا اظن مولاي أبا الحسن يجهل امر امي يوم قدومها المدينة . وما ظننا اننا فقدناه من السر بوفاتها» .

قال : «لا أجهله» . قالت : «ولعلك تعلم يا سيدي ان يزيد الذي كان معنا في ذلك اليوم المشئوم ليس ابي» .

قال : «ظننت ذلك به مذ رأيته ، ثم سمعت انه ليس أباك» .

قالت : «وكنت انا ايضا أعلم هذا فقد اخبرتني به امي ، ووعدتني ان تذكر لي ابي الصحيح عند وصولنا الى المدينة ، فقضى الله بوفاتها قبل وصولنا ، وظننت ان سر ابي ذهب معها الى القبر ، فأسفت وبكيت، ولكن المقادير ساقتني بالامس الى دير بجوار البصرة بعد جرح اصابني في اثناء سفري ، فأقمت به اياما أعالج الجرح ، وهناك رأيت راهبا عرفته، وكنت قد رأيته في كنيسة دمشق قبل سفري ، فأخبرني خبرا اعاد الي آمالي» . فقال علي : «وهل ذكر لك اسم ابيك ؟» قالت : «لا ، ولكنه اخبرني ان قسيس كنيسة دمشق يعرفه لان امي اعترفت له به دون سواه» . ثم قصت أسماء ما اخبرها به رئيس الدير ، ولم تكد تتم كلامها حتى ظهرت الدهشة على وجه الامام لما سمع من ان والدها من كبار المسلمين في المدينة ، وأن امها جاءت المدينة للبحث عنه ، فعاد يسألها : «ألم يخبرك عن اسمه ؟»

قالت : «انه لا يعرف اسمه ، وهذا ما حملني على الاسراع الى دمشق لأستطلع الخبر» . فأمر لها بجواد وخادم امين وقال لها : «تنتظرين قافلة سائرة من الكوفة الى الشام تذهبين معها لانه يعسر سلوك الطريق على شخصين منفردين» .

فشكرت • وودعته وخرجت وهي تود ان تطير الى دمشق لمقابلة القسيس وصممت على الاسراع ما استطاعت دون ان تنتظر قافلة ولا ركبا •

- ١٦ -

معاوية وعمرو بن العاص

كان معاوية في الشام مناوئا لعلي في خلافته ناقما عليه، وقد حرض اهل الشام على مطالبته بدم عثمان ، فجعل قميص عثمان وأصابع نائلة امرأته على المنبر بدمشق ينظرهما الناس • فثار اهل الشام وأنكروا مبايعة علي ، وبعث معاوية الى علي بالطومار كما تقدم وهو عازم على مقاومته ما استطاع الى ذلك سبيلا • وحدثته نفسه بأن يطلب الخلافة لنفسه ولكنه ما زال يرى ذلك بعيدا ، حتى سمع بنقض طلحة والزبير بيعة علي ومسيرهما في اهل مكة الى البصرة ، فقال : «لأصبرن حتى ارى ما يكون من عاقبة تلك الحرب» • ثم سمع بخروج علي من المدينة ووقعة الجمل ومقتل طلحة والزبير ، فعلم ان ليس ثمة من يطالب بالخلافة غيره •

وكان عمرو بن العاص فاتح مصر في أوائل الهجرة ومخرجها من أيدي الروم (سنة ٢٠ هـ) على عهد الامام عمر بن الخطاب قد تولاها وأصلح شؤونها فلما افضت الخلافة الى عثمان بن عفان ، وكان عثمان على ما سلف من ايثاره ذوي قرباه في ولاية الاعمال ، عزل ابن العاص

عن مصر ، وعهد في ولايتها الى اخيه في الرضاع عبد الله بن سعد ؛ فخرج عمرو ناقماً على عثمان . وكان من دهاة العرب المعروفين ، فلما كانت الفتنة وثار الناس على عثمان وجاء اهل الامصار الى المدينة كان هو في جملة الناقمين . ولكنه غادر المدينة قبل الحصار وسار الى فلسطين وأقام بها ينتظر ما يكون . فلما علم بسقتله قال : «اني قتلته وأنا في وادي السباع» . وجعل يفكر فيمن يلي الخلافة بعده وقال في نفسه : «ان يل هذا الامر طلحة فهو فتى العرب ، وان يله ابن ابي طالب فهو أكره من يليه الي» .

فلما بلغته بيعة علي اشتد عليه الامر ، ولبث ينتظر ما يصنع الناس، فبلغه مسير أم المؤمنين وطلحة والزبير الى البصرة ، فلبث ينتظر ما يكون من امرهم ، فجاءه الخبر بوقعة الجمل وانتصار الامام علي فارتج عليه ووقع في حيرة . ثم بلغه ان معاوية في الشام لا يبايع عليا ، وانه يعظم شأن عثمان ، وكان معاوية أحب اليه من علي لانه داهية مثله ، فأخذ ابنيه محمدا وعبد الله وسار الى دمشق ، واتفق مع معاوية على المطالبة بدم عثمان ، ونفس عمرو طامحة الى مصر يحن اليها لانه فاتحها ؛ وكانت مصر يومئذ على دعوة علي ، وعمرو يعلم ان عليا لا يوليه اياها ، فلم ير خيرا من الانتماء الى معاوية فجعل يحرض اهل الشام على طلب دم عثمان ويقول لهم : «انتم على الحق ، اطلبوا دم الخليفة المظلوم» .

***

قضت أسماء اياما في مسيرها من الكوفة الى دمشق ، فلما اشرفت على غوطتها المشهورة بالخصب ، ونظرت الى دمشق عن بعد رأتها في منبسط من الارض تحف به الحدائق الغناء والبساتين الفيحاء ، وفيها

أغراس المشمش واللوز والسفرجل والخوخ والليمون والفاكهة على اختلاف انواعها ، وفيها الاعشاب والرياحين ، وكلها يانعة تجري بينها جداول من الماء القراح . وكانت أسماء ملتفة بالعباءة و«الكوفية» فوق جواد يسابق الريح ، ومعها الخادم على جواده ، فأقبلت على المدينة في الصباح وقد تعطر نسيمها بشذا الازهار تتخلله نغمات الاطيار ، فلم يشغلها ذلك كله عما قام في خاطرها من الشوق للاطلاع على اصلها . فدخلت المدينة من باب الجابية بعد ان ترجلت وأمرت الخادم ان يسير في اثرها بالجوادين وسارت ملثمة تلتمس كنيسة مار يوحنا من اقرب الطرق وهي تعرف دمشق معرفة جيدة . محاذرة ان يراها احد من اهلها او جيرانها فيعرفها فيشغلها عما هي ساعية في طلبه . وخوفا من ان ينتبه الناس لها اذا مشت والخادم والجوادان في اثرها أمرت الخادم ان ينتظر في خان دلته عليه وقالت له : «امكث هناك حتى اعود اليك» . فأطاعها.

وظلت هي سائرة حتى دنت من الكنيسة فتذكرت ان هذه الكنيسة العظيمة المعروفة باسم القديس ماري يوحنا قد أخذ المسلمون حين فتحوا الشام نصفها الشرقي وجعلوا فيه مسجدا يصلون فيه ، وتركوا النصف الآخر وهو الغربي للنصارى وفصلوا بين القسمين بحاجز . فالتمست الباب المؤدي الى القسم الغربي وهي بلباس السفر . فاستقبلها خادم الكنيسة واستغرب مجيئها بعد الفراغ من الصلاة فكلمها باللسان الرومي، وكانت قد تعلمته من امها ، فسألها عن غرضها فذكرت انها تريد القسيس مرقس ، فدعاها الى الاستراحة على مقعد من رخام في صحن الكنيسة ، وسار للسؤال عن القسيس ، فلبثت في انتظاره وهي تلهي نفسها بما هناك من فخامة البناء كالاعمدة الضخمة الشاهقة والنقش البديع من الفسيفساء وغيرها ، فضلا عن الصور على الجدران والسقف في أشكال غريبة وألوان زاهية . ولم تكن تلك اول مرة دخلت هذه الكنيسة ولكن غرابة

ذلك البناء وفخامته يلفتان النظر ويشغلان الخاطر في كل آن •

فما لبث الخادم ان عاد يدعوها الى غرفة الاستقبال لتقابل الشماس وتطلب منه ما تريد •

فخرجت من الكنيسة الى دار في وسطها بركة من الرخام يتدفق منها كسائر دور الشام ، واتصلت من الدار بقاعة فخمة استقبلها فيها شماس لم تكد تراه حتى تذكرت انها رأته يوم زارت الكنيسة مع امها قبل سفرها الى المدينة ، فاستأنست به وسألته عن القسيس مرقس ، فدعاها الى الجلوس على بساط من السجاد وبين يديهما بركة اخرى اصغر من بركة الدار والماء يسيل من جوانبها الى قناة تحيط بها ويصرف منها ، فلما جلست قال لها : «ان القسيس مرقس سافر منذ بضعة اشهر» •

فاجفلت وقالت : «الى اين ؟» • قال : «الى بيت المقدس» •

قالت : «ومتى يعود ؟» • قال : «لا أدري متى يعود ، لان سفره لم يكن لشأن خاص بالدير ولكنه خرج فرارا مما أقلق راحته من اصوات البكاء والعويل التي ترن في آذاننا كل يوم في القسم الآخر من هذه الكنيسة » •

قالت : «وما هو هذا العويل وعلى من ؟»

قال : «ربما سمعت بمقتل الخليفة عثمان في يثرب . فان بعض رجال حاكمنا معاوية جاء بقميصه الملطخ بالدم وأصابع امرأته التي قطعت وهي تدفع بيدها عنه ووضعوها على المنبر الذي يخطبون فوقه ، وكلما اجتمعوا للصلاة وذكروا مقتل الخليفة صاح الناس رجالا ونساء ، شيوخا وأطفالا ، يبكون ويولولون حتى تكاد تتفتت القلوب • وكان ابونا القسيس في اثناء ذلك مريضا مرض الشيخوخة فزاده ذلك الحال ضعفا ، فأشار عليه طبيبه ان يسافر الى القدس يقيم بها حتى تتغير الحال، فسار ونحن في انتظاره وقد بلغنا انه ما زال مريضا» •

فعادت تسأله : «ألا تدري متى يعود ؟»

قال : «لا . ولكن اذا كنت تريدين خدمة فاننا نؤديها بالنيابة عنه».

قالت : «انما امري منوط بهوحده» . وفكرت فيما تصنع : هل تقيم هناك ريثما يعود ، ام تخرج الى الخان . وفيما هي صامتة تفكر ابتدرها الشماس قائلا : «اذا شئت ان تقيمي ضيفة في هذه الدار حتى يعود ابونا القسيس فعلى الرحب والسعة ؛ فان عندنا نساء يقمن بخدمتك» .

ثم صفق فجاء الخادم فأمره ان يدل أسماء على غرفة القسيسة فصعد بها الى قاعة علوية فيها امرأة طاعنة في السن بلباس اسود وعليها هيئة الكمال والوقار . فنهضت لها واستقبلتها وأجلستها الى نافذة تطل على بعض ابنية دمشق ، وأمرت لها بما تحتاج اليه من طعام فاعتذرت من تناول الطعام .

وجلست أسماء وقد استأنست بتلك المرأة ولكنها ما زالت منقبضة النفس من عرقلة مساعيها لغياب القسيس وتصورت ان نحس طالعها قد عرقل أمورها وخيل لها ان القسيس مرقس سيموت في القدس لضعفه وشيخوخته فيضيع السر وتذهب آمالها ادراج الرياح ، فخطر لها ان تذهب اليه وتستطلع السر ، وكانت تفكر في ذلك والقسيسة تبالغ في ملاطفتها وتدعوها الى نزع العباءة والكوفية وهي تمتنع .

***

ودنا وقت الظهر فخرجت القسيسة للصلاة كالعادة ، وظلت أسماء منفردة فأطلت من النافذة فوقع نظرها على صحن الكنيسة كله وفيه القسم الذي جعله المسلمون مسجدا فرأت في ارضه الأبسطة والطنافس وقد تعلقت بسقفه المصابيح ، وشاهدت على جدرانه رسوما مسيحية في

جملتها صور صلبان وقديسين ما زالت كما كانت قبل الفتح • وفيما هي تتأمل في جدران المسجد ومفروشاته ، سمعت المؤذن يدعو الناس الى صلاة لظهر ، وما كاد يفرغ من أذانه حتى رأت الناس يتقاطرون الى صحن المسجد زرافات ووحدانا وفيهم الرجال والنساء شيوخا وشبانا وأطفالا فشغلت بالنظر اليهم ، وفيهم جماعة عرفت انهم من الجيران الذين كانوا يزورون أباها •

ثم رأت الناس يموجون موج البحر يتقهقر بعضهم شمالا والبعض الآخر يمينا ، حتى فتحوا طريقا واسعا فأدركت ان احد الكبراء داخل ، فصبرت واذا برجل جميل الخلقة ابيض البشرة ذي هيبة ووقار ، عليه ثياب سود موشاة تتألق ، كبير العمامة فعرفت انه معاوية بن ابي سفيان والي الشام ، ورأت الى جانبه رجلا قصير القامة وافر الهامة أدعج أبلج عيناه تكادان تتقدان حدة • فمشيا وهما ينظران الى الجمع والناس سكوت اجلالا لهما ؛ فلم تعرف أسماء رفيق معاوية ولكنها سمعت واحدا من الحضور يقول بصوت عال : «انت لها يا ابن العاص ، انت نصير الخليفة المظلوم» • فعلمت انه عمرو بن العاص •

فوقفت تنتظر ما يبدو منهما فرأت معاوية ظل سائرا حتى بلغ دكة عليها قميص ملطخ بالدم ، وعلمت ان الدكة هي المنبر ، وان القميص قميص عثمان ، فتذكرت مقتل ذلك الخليفة على مشهد منها ، وتذكرت نائلة المسكينة وقالت في نفسها : «اين هي الان يا ترى ؟» وكانت تفكر في ذلك وهي تنظر الى معاوية فرأته صلى ركعتين وصعد المنبر ، فسكت الناس وأصغوا ، فوقف وحمد الله وأثنى عليه وأمر بالمعروف ونهى عن المنكر • ثم سكت لحظة وهو يجيل اصابعه في لحيته وعيناه تتنقلان في الناس واحدا بعد واحد ، ثم تناول من المنبر هنات كانت معلقة بالقميص جعل يقلبها بين يديه وينظر الى الناس ويقول : «أتعلمون ما بين يدي؟••

انها اصابع نائلة زوج الخليفة المظلوم ، قطعت بسيوف القتلة وهي تدافع عنه» • فتأملت أسماء في الاصابع فاذا هي اصبعان وشيء من الكـــف واصبعان مقطوعتان من أصلهما ونصف الابهام • ثم أمسك معاويـــة القميص بيده وقال : «أتعلمون قميص من هذا ؟•• انه قميص الخليفة المظلوم •• انه قميص عثمان المقتول ظلما» •

ولم يكد يتم كلامه حتى ضج الناس من جوانب المسجد بصـــوت واحد «قتل عثمان مظلوما •• قتل مظلوما» • وسمعت بعضهم يقـــول بصوت عال : «أقسم بالله ورسوله وخليفته ألا يسني ماء الا للغسل من الجنابة ، وألا انام على الفراش حتى اقتل قتلة عثمان ومن قام دونهم»• وما أتم الرجل حديثه حتى ضج النساء والاطفال بالبكـــاء والعويل • وتهافتوا على المنبر ليبكوا على القميص والاصابع ، فزجرهم معاويـــة فعادوا الى اماكنهم ، وعاد هو الى كلامه وأسماء تتميز غيظا لما سمعته من التعريض بعلي ومحمد وما آنسته من التهديد • فثارت الحمية في رأسها ، ولكنها صبرت لعلمها ان موقفها خطر ، فسمعت معاوية عاد الى كلامه بين تحريض وتعريض حتى سمعته يقول : «ان عليا قتل عثمـــان وآوى قتلته» • فلما سمعت ذلك لم تعد تستطيع صبرا فتحولت مـــن النافذة بأسرع من لمح البصر وهرولت الى باب الجامع بعباءتها وكوفيتها• وبينما الناس يسمعون خطاب معاوية اذا بفتاة وقفت فيهم وعيناها تتقدان غيظا وحنقا والمهابة تتجلى في محياها ، فلفتت انتباههم فشغلوا بالنظـــر اليها عن سماع الخطاب •

ثم صعدت الى دكة من رخام وولت وجهها شطر الناس وظهرها الى معاوية وقالت وصوتها يرتعش وركبتاها تصطكان : «ايها الناس ، اراكم تسمعون وتغضبون لأمر لم تشاهدوه ولا انتم على بينة منه ، لانكم لم

تكونوا في المدينة ولا شاهدتم مقتل الخليفة . يقولون لكم انه قتل مظلوما وأن عليا قتله وآوى قتلته ، وهذا افتراء لأن عليا اول من دافع عنه بلسانه وسيفه وأولاده . قتل عثمان ايها الناس والحسن والحسين في داره وقد تلطخ وجه الحسن بالدم ، ولو لم يأمرهما عثمان بالكف عن الدفاع لبذلا النفس عنه . على انهما لم ينجوا مع ذلك من تأنيب الامام . وقد شهدت ذلك بنفسي ورأيته رأي العين . فاتهام علي بمقتله افتراء وفتنة لا يصيب القائم بها الا ما اصاب اصحاب الجمل في البصرة . تزعمون انه قتل مظلوما ، وربما كان زعمكم صحيحا ، ولكن عليا لم يرد قتله ، بل هو اول من قال باستبقائه خوفا من الفتنة ، فكيف تقولون انه قتله ؟»

وما أتمت أسماء كلامها حتى صاح معاوية : «من ذا الذي يتكلم ، من انت يا رجل ؟»

فالتفتت اليه أسماء وقالت : «انني فتاة يا معاوية ولست رجلا» .

فعجب لهذه الجرأة من فتاة في مثل سنها ، وتأثر من هيبتها وجمالها وأنفتها ، ومع كل غيظه وحنقه لم يأمر بالقبض عليها ولا المثلة بها ، ولكنه دعاها اليه والناس شاخصون ينظرون كأنه يريد مجادلتها في الامر . فأشار اليه عمرو اشارة فهم منها انه لا يليق ان يجادلها امام الناس لان الجدال ينقص من برهانه ، فأعجبه دهاء عمرو . فلما صارت أسماء بين يديه أمر بالقبض عليها فتكاثف بضعة عشر من رجاله لشد وثاقها فصاحت فيهم : «تتجمهرون على فتاة وأنتم رجال ولا حاجة الى شد الوثاق فاني لا أفر من بين أيديكم . أليس عارا عليكم ان تدفعوا الحق بالقيود والاغلال وهو انما يدفع بالبرهان والجدال» .

فأشار معاوية ان يسيروا بها الى السجن حتى ينظر في امرها .

- ١٧ -

اسماء في السجن

ولا تسل عن حال أسماء لما وجدت نفسها في حجرة لا يدخل اليها النور الا من كوة في اعلى البناء ، وليس فيها الا حصير بال ، فأخذت تفكر فيما آلت اليه آمورها وما تتوقعه من العذاب ، فندمت على مـــا ابدته من الجرأة في الدفاع عن علي ، ولكنها شعرت انها اقدمت على ذلك بالرغم منها ، فقد كانت كلما سمعت اسم علي طربت واستعزت او خافت وتهيبت وهي لا تقدر على كبح احساسها •

فلما خلت الى نفسها تمثلت لها حالها كما هي ، فتذكرت ما مر بها من الاهوال منذ حداثتها وما قاسته من البلاء في أسفارها وجهادها وما كان من وفاة أمها قبل وصولها الى المدينة وضياع سرها • ولما وصل ذهنها الى هنا اعترض ظلمة كدرها نور ضعيف من الامل في كشف السر على يد القسيس مرقس • ثم تصورت مروان وما سامها من العذاب في بيت الخليفة عثمان ، وتذكرت انه كان البيت الذي كاشفت فيه محمدا بالحب فطربت لذلك • ثم تذكرت سفرها الى مكة وما لاقته من المرض والتعب وما عقب ذلك من أسرها ومسيرها في الصحراء مهددة بالموت وبالعار حتى قضى الله بنجاتها فعادت الى خطر آخر ونجت منه ، وكيف بشرت بالكشف عن نسبها ثم شهدت وقعة الجمل ••

وتتابعت عليها الذكريات حتى وصلت الى ما هي فيه من السجن فعظم الامر عليها واشتد الاسف بها حتى اجهشت بالبكـــاء ، فحاولت التجلد لئلا يقال انها بكت من اليأس او الخوف وهي انما بكت لنكـــد حظها وسوء طالعها وما يقف في سبيلها من العقبات التي لم تكن تخطر لها ببال • فالتفتت الى ما حولها فلم تجد احدا وتطاولت بعنقها الى باب

السجن فرأت السجان في غفلة عنها • فأطلقت لنفسها عنان البكـــــاء وأخذت تناجي نفسها ، تارة تذكر امها وطورا حبيبها وآونة عليا وأخرى تندب حظها ، واستغرقت في ذلك حتى نسيت نفسها وغاب رشدها كأنها أصيبت بنوبة عصبية فلم يعد في امكانها امساك عواطفها عن البكـاء والنحيب •

وما زالت في ذلك حتى تعبت فغلب عليها النعاس فنامت على ذلك الحصير فرأت فيما يرى النائم امها تمشي اليها علـــى بساط من الورد المنثور وعليها حلة ارجوانية طويلة الذيل مزركشة بالذهب تجرها وراءها، وعلى رأسها تاج من زهر الرمان ورأتها تمشي الهوينا وهي تتلمس الخطى كأنها تحاذر مرور النسيم • فبغتت أسماء لرؤية خيال امها ولاسيما لما رأتها في عافية تامة وقد ارتد اليها لونها وتوردت وجنتاها وأشرق وجهها• وظلت أسماء في دهشة شاخصة الى ذلك الخيال وكأنها سمعته يقـــول بصوت رخيم : «هل عرفت أباك يا أسماء ؟»

فأسرعت أسماء اليها وألقت نفسها على صدرها تستنشق حنــــان الامومة ، فانتعشت وجعلت تقبلها وتقول : «لا • لا يا أماه لم أعرفــه بعد • قولي لي • قولي فقد نفد صبري» •

فضمتها والدتها الى صدرها ، وهمست في أذنها : «اخفضي صوتك لئلا يسمعك الامام» •

فأطاعتها وقالت بصوت خافت : «قولي لي يا أماه من هو ابي ؟»

قالت : «انما جئت اليك الان لأخبرك بذلك فاعلمي ان أباك هو ••»

وسكتت لحظة وهي تتلفت يمينا وشمالا وعيناها تلمعان كأن الماء يغشاهما، وأسماء شاخصة اليها وقلبها يكاد يتفطر وسمعها مرهف لسماع اســـم ابيها ، ولكنها ما لبثت ان رأت امها ترتعد وقد اخذ لونها في الامتقاع وهي تنظر الى شبح قادم اليها • ثم رأتها أجفلت وحاولت الفرار فتشبثت

أسماء بها وهي تقول : «امكثي بالله لا تذهبي انطقي باسم ابي» • فلم تلتفت اليها وحاولت التملص منها وأسماء ممسكة بها • وفجأة افاقت مذعورة فرأت نفسها في تلك الحجرة المظلمة على ذلك الحصير القذر، وسمعت صوتا لم تكد تموجاته تدرك أذنها حتى ارتعدت فرائصهـــا لمشابهته صوت مروان بن الحكم عدوها القديـــم ، فقالت في نفسها : «أعوذ بالله من حظي على يد هذا الرجل ما زال ذكره شؤما علي حتى في أحلامي • كنت في ألذ الاحلام فأيقظني بصوته» •

فما كادت تفتح عينيها حتى رأت مروان واقفا امامها وقد تقلـــد حسامه وأتقن هندامه • فلما رأته استعاذت بالله ولم تلتفت اليه •

فتقدم مروان اليها وهو يقول : «لقد صفحنا عما مضى يا أسماء ، كنت ترجعين عـن غيك وتعلمين ان محمدا وعليا لا يغنيان عنك فتيلا، انت الان في دمشق مسقط رأسك ومقر آبائك • ما لك وللمدينـــة والكوفة ؟ اصغي لنصحي وارجعي عن عنادك ، واعلمي انك اذا اطعتني هذه المرة صفحت عما مضى وكنت أسعد فتاة والا فانك مقتولة لا محالة، لانك في قبضة يدي أفعل بك ما اشاء • واعلمي ان معاوية سيبعث اليك ليحقق معك في شأن ما فهمت به في المسجد مما لا يأتيه الا كل مختل الشعور • فاذا شئت البقاء حية فاعتذري مما فرط منك وحالفي القوي ولا يغرنك انتصار علي في البصرة فانه سيلقى منا سيوفا لا تفل ، ورجالا لا ترد ، وقلوبا كالحجر الصلد • وستخرج الخلافة من يديه فيخضع لنا هو وأولاده وكل من يلوذ به» •

وكان مروان يتكلم وأسماء ترتعد وجلا وقلبها يكاد يفر من صدرها، وصعد الدم الى وجهها فتوردت وجنتاها واحمرت عيناها وهي مع كل ذلك مطرقة تفكر وقد ايقنت ان حياتها بين يديه ويدي معاوية • فحدثتها نفسها بادىء الامر بأن تعمل بما توحيه عواطفها فتنتهر مروان وتوبخه ،

ولكنها تذكرت ما جرته عليها جرأتها في المسجد فأمسكت وتجلدت وهي تكظم الغيظ ولم تحر جوابا .

فظن سكوتها لينا او رضاء ، فدنا منها وبالغ في التـــودد اليها ، فقال : «لعلك تذكرين ما عاملتني به من الجفاء ، وأنا اعذرك وآمل ان تكوني قد ارعويت، لانك انما كنت مدفوعة الى ذلك بطيش الشبيبة ، وكنت تحسبين محمدا اهلا لك ، وقد رأيت كيف انقلب امرهم جميعا، وكيف قام المسلمون عليهم يطالبون بدم الخليفة عثمان . ولا أظنــــك تجهلين ما فعله محمد ، وقد كنت شاهدة مقتل عثمان . ألم تريه وقد دخل عليه وأمسك بلحيته وهم بقتله ، فوبخه الخليفة وذكـــره فرجع . أتعدين ذلك دفاعا ، وهل تزعمين بعد ذلك ان محمداً خير من مروان» .

فثقل كلام مروان على أسماء ثقل الجبال حتى كادت تحرج باحتقارها اياه فتبوح له ، ولكنها كظمت الغيظ وسكتت فطفحت عواطفها دموعـا وهي مطرقة لا تنظر اليه .

ففرح مروان وتحقق ندمها ، وهم بالدنو منها ليستأنف الحديث ، واذا بالسجان دخل وقال لمروان : «ان الامير بعث يستقدم السجينة اليه» . ثم تقدم السجان ودعا أسماء الى المثول بين يدي معاوية ، فوقفت ومسحت عينيها ، وخرجت فرأت خارج السجن بضعة رجال بالسيوف والحراب فقال لهم مروان : «لا حاجة اليكم فانها تسير غير محروسة الى مجلس الامير » .

* * *

وسارت أسماء بقدم ثابتة وقلب جريء ، ومروان وراءها مبتهـــج القلب بما تجدد عنده من أمل في الحصول عليها ، فقد كان مسحـورا بجمالها وهيبتها ، طامعا في نيلها ليفخر بأن قد نالها دون محمد بـــن

ابي بكر .

وما عتموا ان وصلوا الى قصر منيع من بناء الرومان كان في الاصل قصرا لحاكم الشام من الروم ، وعند بابه الحراس بالسيوف والحراب . فدخلت في دار رحبة ومروان أمامها يدلها على قاعة المجلس ، فعرج بها حول البركة حتى دخل قاعة كبيرة فيها الوسائد والطنافس على الجانبين، وفي صدرها معاوية على مقعد ، والى جانبه عمرو بن العاص وولـــداه محمد وعبد الله ، وبين أيديهم جماعة من الامراء لم تعرفهم ، فدخلت ووقفت ونظرت الى الحضور نظرة فاحص بسكينة وجلال ، ثم وجهت نظرها الى معاوية غير متهيبة ، فنظر اليها وتأمل فيما يتجلى في وجهها من المهابة ، وكانت ما زالت غاضبة وقد قطبت أسرتها وازدادت وقارا فأعجب بهيبتها وجمالها ، وكان قد أعجب من قبل بشجاعتها واقدامها . فلما وقفت بين يديه قال لها : «ما الذي حملك على الجرأة التي ظهرت منك في المسجد اليوم ؟»

قالت : «انما حملني على ذلك الحق والصدق ، فقد سمعت تعريضا برجل اتهموه وهو بريء» .

قال معاوية : «وما أدراك انه بريء وأنت فتاة قاعدة في بيتك ؟»

قالت : «اني أعلم من الامر فوق ما يعلم كل واحد منكم ، وقـــد تحققت يقينا ان عليا امير المؤمنين بريء مما يتهمونه به» .

فاعترضها عمرو بن العاص قائلا : «لا تقولي امير المؤمنين ، فاننا لم نبايعه» . فقالت : «ان لم تبايعوه انتم فقد بايعه سواد المسلمين فـــي المدينة والبصرة ومصر وسائر الحجاز ، وهو ابن عم الرسول وأحـــق الناس بهذا الامر» .

فقال عمرو : «اراك تحكمين في أمور تجهلينها . فلو أجمع الناس على بيعته ما اضطر الى الحرب وسفك الدماء . يكفيه انه كان السبب في

قتل الخليفة عثمان الذي اصبح دمه طليعة ما سفك وسيسفك من الدماء».

فنظرت أسماء الى عمرو وقالت: «ألست ابن العاص؟» . قال: «نعم».

قالت : «ألم تكن اول ناقم على ذلك الخليفة المقتول لانه عزلك عن مصر وولاها اخاه عبد الله . ألم تفرح بقتله ؟. ولكن الدهاء أبعدك والناس يعرفون القاتل او الساعي في القتل» . قالت ذلك وقد ظهر التأثر في وجهها مما بدا عليه من الامتقاع .

فعظم جوابها على عمرو وخاف ان تتمادى فقال لها : «ممن انت يا فتاة ؟ »

قالت : «من هذا المكان !»

قال : «اني اسألك عن ابيك ؟»

فسكتت ولم تجب ، فتقدم مروان وهو يأمل ان يخفف غضب معاوية وعمرو على أسماء ، طمعا في رضائها واستبقائها وقال : «انها أموية ، وقد قتل يزيد ابوها فيمن قتلوا مع عثمان» .

فقال معاوية : «اأموية انت ؟» . فلم تجب .

فقال : «كيف تكونين أموية وتقولين ما لا يقوله بنو أمية ؟. أليسوا مجمعين على ان عثمان قتل ظلما وقد نهضوا للأخذ بثأره ؟»

فقالت : «لا يهمني أموية كنت ام غير أموية ولكنني أشهد بما أعلم. فأنا لا ارى احدا مظلوما في هذه الفتنة غير امير المؤمنين علي بن ابي طالب ، واني اقول هذا رضيتم ام غضبتم . ولعلكم تتهددونني بالقتل او السجن ، فلا أبالي التهديد ولا الوعيد . هذا قولي فافعلوا ما تشاءون » .

وكان مروان في اثناء كلامها يفكر فيما يرجوه من رضائها ، وعيناه شاخصتان الى الحضور لئلا ينظر اليها احد نظر الراغب فيها ، وود لو انهم يقطعون الحديث لئلا تقول قولا يثير غضب معاوية فيأمر بقتلها .

اما عمرو فرأى بحسن فراسته ودهائه ان يظهر الاستخفاف بكلام أسماء ، ويبدي الرفق بها لانه رآها لا ترضخ للعنف . وخاف ان تتمادى في كشف ما كان ساعيا فيه ضد عثمان قبل قتله . فقال لها : «اراك يا بنية مغرورة ، ومن العبث ان نجادلك ولاسيما ان النبي (صلعم) أوصانا بالنساء رفقا لانهن ضعيفات ، ثم انك أموية من لحمنا ودمنا . فارفقي بنفسك وارجعي عن غيك وامكثي عندنا في أمن واقلعي عما انت فيه» .

فقالت : «لا تستضعفوني ، ولا تأملوا رجوعي ، ولا تحسبوني أموية ولا هاشمية ، فافعلوا ما تشاءون وقد قلت لكم اني لا اهاب الموت» .

فتقدم مروان الى معاوية وهمس في أذنه قائلا : «أرى الكف عن جدالها ، فاتركوا امر اقناعها الي ، لاني اعرفها من قبل ذهابها الى المدينة ، فقد كانت مقيمة بدمشق وأعرف أبويها ، وأنا أضمن اقناعها طوعا او كرها ، اذ لا يليق بنا استبقاءها على هذا العناد فاما ان ترجع عن غيها او نقتلها والقتل امر مستدرك فأرى ان نقنعها بالحسنى» . ثم التفت الى عمرو وقال بحيث يسمعه الاثنان ولا تسمعه أسماء : « ولا يخفى عليكما اننا اذا اخذناها في حزبنا ، فانها تطلعنا على كل دخائل علي ورجاله ، لانها عالمة بكل اسرارهم ، فاتركا هذا الامر الي» . ثم تنحى جانبا وأسماء خائفة مما بدا منه . فقال معاوية : «خذوها الان الى منزل مروان وسننظر في امرها» .

فقطعت الحديث قائلة : «لعل منزله السجن» . قال : «كلا» .

قالت : «بل خذوني الى السجن حيث كنت في هذا الصباح» .

فخاف مروان اذا أصروا على ارسالها معه ان تصرح بشيء ضده فقال : «خذوها الى السجن» . واعتزم ان يكلمها هناك .

***

اشار معاوية الى الحراس فساروا وأسماء معهم غير هيابة ولا وجلة. وأما مروان فانه أسر الى كبير الحراس ان يجعلها في غرفة من غـــرف السجن وحدها ، وأن يضيقوا عليها لعلها تشعر بحاجة الى النجدة . ولم يدركوا السجن الا بعد الغروب فدخلوا بها من باب كبير الى دار رحبة اتصلوا منها بممر مظلم انتهوا منه الى بضع درجات نزلوا عليها الى دار صغيرة تستطرق الى غرف عديدة دخلوا في احداها واتصلوا من هـــذه بحجرة اخرى واطئة السقف مظلمة تتصاعد منها رائحة الرطوبة والعفونة ، وقد نبتت الطحالب على جدرانها وتحلب الماء عنها . فأقعدوها على حصير بال ورجعوا ، وظل السجان وحده . فلما خلا المكان الا منهما نظر اليها وكأنه أشفق على شبابها وتوسم فيها مهابة ووقارا ولكنه لم يخاطبهـــا فتركها على ذلك الحصير وعاد وهو يرجو ان تخاطبه هي وتلتمس نجدته متى أحست بالوحدة او شعرت بالجوع والخوف .

اما هي فلما رأت نفسها في تلك الحجرة وقد خلا المكان من الناس واستولى السكوت على تلك الجدران العفنة ، لبثت تفكر في حالها وما صدر منها في حضرة معاوية من الاقوال مخافة ان تكون قد فاهت بما يدل على عجز او خوف ، فرأت انها أدت الامانة حق أدائها . ولكنها مع ذلك أسفت لانها لم يتح لها اتمام قولها .

وقضت ساعات وهي جالسة لا تبالي الظلمة ولا الجوع ولم يزرها النوم لعظم اضطرابها ، ثم انتبهت الى ما هي فيه من الخطر ان لم يكن من معاوية ورجاله فمن مروان وآماله ، وأيقنت انه آت اليها تلك الليلة طمعا في رضائها عنه ، والموت عندها خير من اجابة طلبه ، فالتفتت الى ما حولها وهي لا تكاد ترى جدران الغرفة لشدة الظلام ، فأنصتت لعلها تسمع مشيا او كلاما فاذا كل شيء هادىء ساكن لا يكدر سكوته الا طنين البعوض حول وجهها ونقيق الضفادع نقيقا ضعيفا يدل من اتجاهه

على ان السجن قائم على ضفة نهر بردى الذي يتشعب في دمشق فيسقي اهلها بأنابيب من الحجارة او الخزف متفرقة في كل منازلها • فاستأنست بذلك النقيق ولكنها استوحشت من الظلمة الدامسة مخافة ان تلسعها عقرب او يلدغها ثعبان على غرة •

وبينما هي تفكر في حالها وقد شغلتها الوحشة عن التفكير في الخطر المحدق بها اذ سمعت خطوات بطيئة تدل على تلصص صاحبها في مشيته ، فجمد الدم في عروقها وخافت ان يكون ذلك القادم مروان ، فأشاحت بوجهها نحو الخطى وقلبها يخفق حتى كادت تعد دقاته • واذا بذلك الصوت يقترب نحوها فأجفلت ونهضت وتهيأت للدفاع اذا مست الحاجة ، ولبثت تنتظر ما يكون • فاذا بالخطوات تبتعد وتضعف حتى لم تعد تسمعها • فعلمت ان احدا كان قادما نحوها ثم رجع • فازدادت قلقا وظلت واقفة ترتعد لعظم التأثر ، وودت لو ان ذلك القادم وصل اليها لتعلم من هو وما غرضه ، فان رجوعه زاد بلبالها • وصممت ان تتفانى في سبيل الدفاع وأن تصرح لمروان ، اذا كان هو القادم ، بما في ضميرها ولو ادى ذلك الى قتلها •

ولبثت برهة لم تعد تسمع في اثنائها صوتا ، ولكنها ما برحت مضطربة شاخصة بعينيها الى الجهة التي سمعت الصوت منها ، وطال انتباهها حتى لم تعد تستطيع اطباق أجفانها ونسيت موقفها •

وفيما هي كذلك لمحت نورا ضعيفا في دار السجن الصغرى ، فاستأنست به وتذكرت مروان فخافت ان يكون قادما اليها • على انها تشجعت وقالت في نفسها : «فليأت فاما اقتله او يقتلني فأستريح من هذا الموقف» • ولم تكد تفكر في ذلك حتى رأت النور يتعاظم ويقترب ، ثم بان المصباح يحمله رجل عرفت من لباسه وقيافته انه السجان فهدأ روعها• ونظرت اليه فاذا هو يحمل المصباح في احدى يديه ويحمل بالاخرى

قصعة ، فلما دنا من غرفتها تأكدت انه هو ، فلبثت تنتظر ما يبدو منه فاذا هو يقول : «سامحيني يا سيدتي لاني تركتك الى الان بلا طعام ولا نور ، فاني لم أكن اعرف انك تنتمين الى الامير مروان» .

فلما سمعت ذلك الاسم ارتعدت فرائصها ولكنها لم تجب . وأما السجان فدخل الغرفة ووضع المصباح على الارض وقدم القصعة وفيها خبز ولحم ، وهو يقول : «هذا طعام بعث به اليك الامير مروان وكلفني ان انبئك بأنك لن تبيتي في هذا المكان الا الليلة ، وفي الغد ينقلك الى منزله» . فنفرت منه وقالت : «لا حاجة بي الى طعام ، فارجع من حيث اتيت » .

قال : «لقد قضيت نهارك بلا طعام ، ألا تأكلين شيئا ؟»

قالت : «لست جائعة . عد بالطعام» .

فعجب السجان لقولها ، وقد كان يتوقع ارتياحها لعطف مروان عليها ، فقال لها : «ولماذا هذا يا سيدتي . تناولي لقمة لتسدي جوعك» .

قالت : «خذ الطعام ، اني لست جائعة» . قالت ذلك وحولت وجهها عنه .

فقال : «دعي القصعة والمصباح هنا وافعلي بهما ما تشائين ، وها أنذا عائد» . قال ذلك ورجع .

فلما خلت الى نفسها ظل بصرها على المصباح تتأمل حركاته والبعوض يحوم حوله وفكرها تائه وقلبها يخفق كلما تصورت مروان قادما نحوها. وأرادت ان تسند ظهرها الى الحائط فأحست برطوبته فابتعدت .

★ ★ ★

وعاد السكون الى المكان مدة طويلة وأسماء في ابان اضطرابها ، حتى كأنها نسيت وجودها . ثم انتبهت على صوت أقدام تمشي في

الغرفة الخارجية بهدوء ، فأجفلت وتأكدت ان مروان قادم ، فخفق قلبها وصعد الدم الى رأسها وتهيأت للفتك به • وحولت نظرها الى الخارج فرأت شبحا قادما يخطو خطو السارق المتلصص وقد التف بعباءة ، فخافت ولكنها تجلدت لترى ما يبدو منه ، فلما دنا من باب الغرفة همت بأن تخاطبه فاذا هو يقول بصوت ضعيف : «لا تخافي يا سيدتي اني جئتك بالفرج لا تخافي» •

فلما سمعت كلامه ارتعدت فرائصها وذكرت انها تعرف الصوت فقالت : «من انت ؟»

قال : «اني عبدك مسعود لا تخافي • وقد جئت لانقاذك» •

قالت : «من اين اتيت ، ومن ارسلك ، هل هبطت من السماء ام خرجت من جوف الارض ؟»

قال : «لم يرسلني احد ولكنني كنت سجينا في هذا المكان منذ فارقتك في دير البصرة • لاني خرجت من الدير ، وفيما انا عائد الى الكوفة ظفر بي جماعة من بني أمية كانوا قادمين بمهمة من معاوية ، فقبضوا علي وساقوني الى هذا السجن ، لاني من صنائع ابن ابي بكر ، وأشكر الله الان على وجودي هنا لعلي استطيع انقاذك من أيدي هؤلاء الظالمين » •

فاطمأن بالها ولكنها حسبت نفسها في منام مثل منام الامس • فقالت: «وكيف عرفت اني هنا ؟» • قال : «رأيتك مع الحراس لما اتوا بك عند الغروب ، ولبثت أنتظر فرصة آتي بها اليك ، وقد جئت حتى كدت أقترب منك فسمعت خطوات السجان فهرولت راجعا ، وأما الان فلا خوف علينا من السجان ، تعالي معي» •

قالت : «وأين السجان ؟» • قال : «ذهب الى بيت مروان» •

قالت : «وكيف ذلك ؟ اخشى ان يكون هنا» • قال : «لا تخافي لاني

حرضته على المسير الى مروان ليخبره برفضك طعامه ، وليحثه على المجيء للانتقام منك ، وأطمعته بمال يناله منه اذا فعل ذلك ، وعزمت على الخروج في اثناء غيابه» .

قالت : «والباب ؟» قال «لقد ظن السجان المسكين انه اقفله ، ولكنه ما زال مفتوحا ، تعالي قبل ان يعود السجان او يأتي مروان» . فترددت برهة وقد اكبرت امر الفرار فأدرك مسعود ترددها فقال «أتحسبين خروجك من هذا السجن فرارا ، وما بقاؤك فيه غير الموت والعار . تعالي . وأسرعي أناشدك الله» .

ومشى فمشت هي في اثره ، ثم عاد الى المصباح وقال ارى ان نطفيء هذا المصباح لئلا يدل علينا . وأطفأه فأظلم المكان ولم تعد أسماء تعرف الطريق ، فأمسك بيدها ومشيا وهي ترتعد ، حتى خرجا من الغرفة الثانية الى الدار الصغرى ، وأطلا على البيت ، وما صعدا الدرجات حتى سمعا كلاما في طرفه الآخر مما يلي الدار الكبرى ، فوقفا ينصتان فاذا بمروان والسجان يتحدثان ومروان يقول : «لا بد لي من قتلها اذا ظلت على عنادها ، وقد كنت أتوقع هذا العناد منها ولذلك فاني ارسلتك بالطعام وسرت في اثرك» .

فجمد الدم في عروق مسعود وأسماء ، وأيقنا بالهلاك وشق ذلك على مسعود لانه عرض أسماء للخطر . اما هي فهدأت روعها وضغطت يد مسعود وجرته الى ما وراء باب الممر حيث انزويا وقلباهما يخفقان ، ولبثا ينتظران دخول مروان والسجان فسمعا مروان يقول : «هات المصباح وتعال» .

فقال السجان : «في حجرتها مصباح تركته عندها» .

ودخلا الممر وصدى خطواتهما يتعاظم رويدا رويدا حتى بلغا الباب الثاني الذي اختبأ مسعود وأسماء وراءه . فلما رأى مروان المكان مظلما

وقف وقال للسجان : «اين هو المصباح اني ارى السجن مظلما» •

فقال السجان : «اني وضعته في حجرتها ولعلها اطفأته كيدا وقحة ، هلم لنرى» •

فقال مروان : «اني لا ارى الطريق لشدة الظلام هات مصباحا آخر» •

قال : «هلم ندخل ثم آتيك بالمصباح • انزل هذه الدرجات على مهل• ها اني اخطوها امامك • تمسك بمصراع الباب من عندك» •

ونزلا ومروان يتوكأ باحدى يديه على السجان ، وبالاخرى على الباب حتى وصلا ارض الدار الصغرى فمشيا حتى دخلا الغرفة وهما يتلمسان الارض •

ولا تسل عن حال مسعود وأسماء في تلك اللحظة فقد كانت عندهما اطول من شهر ، فحالما علما بدخول مروان والسجان الى الغرفة اشار مسعود الى أسماء ان تخلع نعليها وكان هو بلا نعل ، ففعلت وتحول كلاهما من وراء الباب الى الممر بخفة وسرعة ، ومنه الى الدار الكبرى فالباب الكبير وكان ما زال مفتوحا • وأسرعا الى الشارع وهما لا يصدقان ان قد ظفرا بالنجاة •

وكانت أسماء تعرف طرق الشام معرفة جيدة فلما بعدا عن السجن وقفا برهة يتدبران المكان الذي وصلا اليه ، فعرفته أسماء وسارت قاصدة كنيسة ماري يوحنا •

وقبل ان تصل الى الكنيسة تذكرت خادمها والجوادين في الخان ، فوقفت تتردد بين ان تسير الى الكنيسة اولا او الى الخان ، فسألها مسعود عن سبب ترددها •

فقالت : «أتردد بين ان اذهب الى كنيسة ماري يوحنا ، فأقيم بها ، وبين ان اسير الى الخان حيث يقيم الخادم ومعه الدواب» •

فتعجب مسعود لترددها وهو لا يرى حاجة الى الكنيسة لانه لا يعلم

بما أنبأها به الراهب في دير البصرة • فقال : «ما لنا وللكنائس ، هيا بنا الى الخان ومنه الى الكوفة فقد علمت ان الامام عليا وسائر الصحابة هناك» •

فتنهدت وقالت : «نعم انهم جميعا هناك ، ولكن لي في هذه الكنيسة غرضا يهمني ، وانما جئت دمشق من اجله ولا بد لي من اتمامه • ولكني ارى ذهابي الى الكنيسة في آخر هذا الليل مما يوجب يوجب شبهة او تساؤلا ، والكنيسة والمسجد متلاصقان او هما بناء واحد ، فأرى ان امضي بقية هذا الليل في الخان لأرى الخادم وأدبر أموره ثم اسير الى الكنيسة» • ثم مشت ومسعود الى جانبها ، فسألته : «هل انت عازم على الذهاب الى الكوفة ؟» • قال : «نعم ان شاء الله» •

قالت : «اذا لم يكن بد من ذلك ، فأوصيك بأن تبلغ الامام ورجاله ما فيه اهل الشام من النقمة لعثمان والمطالبة بدمه» • وقصت عليه ما رآته في المسجد من التحريض والتهديد بالاصابع والقميص الى ان قالت: «واذكر لهم اني باقية هنا بضعة ايام ريثما تتم مهمتي» •

- ١٨ -

موقعة صفين

رأى الامام علي بعد ان انتصر في وقعة الجمل ونزل البصرة فبايعه اهلها ، ان يستعمل عليها عبد الله بن عباس ، ثم سار الى الكوفة فنزلها وانتظم له الامر بالعراق ومصر واليمن والحرمين وفارس وخراسان وبايعه

اهلوها ، ولم يبق خارجا عليه الا الشام وفيها معاوية وأهل الشام مطيعون له في المطالبة بدم عثمان •

وكان علي قد ولى على مصر قيسا بن سعد بن عبادة وهو من خيرة المهاجرين ، ودهاة العرب • وكان في مصر جماعة بخربتا يرون غير رأيه ويطالبونه بدم عثمان ولكنهم معتزلون لا يتحركون لحرب ، فرأى قيس من السياسة والدهاء ان يكف الحرب عنهم ويداهنهم لئلا ينضموا الى معاوية •

وكان معاوية قد كتب الى قيس يستميله ويبذل له الوعود الخلابة فلم يجبه • فاصطنع معاوية على لسان قيس كتابا قرأه على الناس في الشام يوهمهم ان قيسا معه وانه لذلك لم يقاتل المعتزلين في خربتا ، فبلغ ذلك عليا فصدق الوشاية في قيس وعزله عن مصر وولى محمدا ابن ابي بكر •

ولم يكن لعلي شاغل يشغله بعد وقعة الجمل الا معاوية وجنود الشام ، فرأى ان يبعث اليه يطلب بيعته فبعث اليه جريرا بن عبد الله البجلي ليطلب منه الدخول فيما دخل فيه المهاجرون والانصار • فسار جرير الى الشام فماطله معاوية مدة ريثما اراه حال اهل الشام وما يقاسونه من البكاء والعويل عند قميص عثمان وأصابع نائلة ، فرجع جرير بالخبر الى علي • فعلم ألا بد من الحرب ، فسار من الكوفة الى الشام في جيش عظيم ، وقد علم بما تحالف عليه معاوية وعمرو ، وسار معاوية وعمرو من الشام يطلبان عليا ولكنهما أبطآ السير حتى التقى الجيشان في صفين • ودخلت سنة ٣٧ هـ والجمعان في «صفين» •

وصفين هذه موضع بقرب الرقة على شاطىء الفرات الغربي ، امام «الرقة» على الضفة الشرقية • وبين صفين والكوفة نحو ثلاثمائة ميل او اكثر •

هناك نزل الجيشان العظيمان يقودهما اعظم رجال الاسلام ونخبة المهاجرين والانصار . وفي ذلك السهل الواسع جرت وقعة صفين المشهورة التي قتل فيها عشرات الالوف من الرجال . وقد نال فيها علي بن ابي طالب ما ناله في وقعة الجمل من النصر والغلبة . ولكن هل انتظم له الامر بعدها . كلا . فانها كانت خاتمة انتصاراته على مناظريه في الخلافة وبداية دسائسهم عليه . ولم يكن ذلك لضعف عزيمته ، ولكنها حيلة دبرها عمرو بن العاص فنفذت فيه ، وفشل رجاله وانقسموا فيما بينهم .

★ ★ ★

لبثت أسماء اياما وأسابيع عند القسيسة تنتظر عودة القسيس من بيت المقدس فلم يرجع ، فحسبت لابطائه الف حساب ، واضطرب بالها ولم تر خيرا من ان تسير هي اليه بنفسها ، واستشارت القسيسة في الامر فاستغربت هذه قلقها وتعجلها رؤية القسيس فقالت لها : «هل تحتاجين الى القسيس في امر يدعو الى كل هذا ؟»

فتأوهت الفتاة وسكتت وبدت كأنها تريد مكاشفتها بما في ضميرها لعلها تفرج كربتها .

فقالت لها القسيسة : «قولي يا ابنتي ما الذي اوجب تنهدك عسى أن انفعك» .

قالت : «اني أحتاج الى القسيس في سر عنده عن امي لا يعرفه احد سواه ، وقد كانت تعرفه وحدها وباحت به للقسيس . وأما الان فلم يبق غيره عارفا به» .

فأدركت القسيسة ان امها ماتت ، فلم تشأ ان تذكرها بها ، ولكنها

احبت ان تعرف ما هو موضوع ذلك السر فقالت : «هل يجوز ان اعرف موضوع ذلك السر ؟»

قالت : «أعترف لك يا سيدتي اني ربيت في دمشق في حجر امـي ورجل كنت احسبه ابي ، فأخبرتني امي ذات يوم ان الرجل ليس ابي ، فسألتها عن ابي الصحيح فوعدتني باطلاعي عليه في فرصـة اخرى» . وقصت عليها أسماء قصتها من اولها الى آخرها . وكانت تتكلـم والقسيسة تنظر اليها وتتأمل في ملامحها ، فلما فرغت من كلامها تبسمت القسيسة وهشت لها وضمتها وقالت : «لعلك ابنة مريم ؟»

قالت : «نعم يا سيدتي» . واستأنست بحنوها ومعرفتها اسم امهـا فقالت : «وهل تعرفينها ؟»

قالت : «مسكينة امك ، اني اعرفها جيدا قبل ان تتزوج ، وكانت كثيرا ما تأتي الكنيسة للصلاة ، وكنت انا يومئذ شابة وهي صبية ، وكنت احبها كثيرا فلا يمضي عيد من اعيادنا الكبرى كالفصح والشعانين والميلاد وغيرها الا دعيت انا والقسيس الى مائدة جديك رحمهما الله . وأذكر انه كان لأمك اخ جميل الصورة حاد الذهن ، كان يأتي معها وأبويهمـا للصلاة . وظللنا على ذلك حتى جاءنا العرب منذ بضع وعشرين سنـة ففتحوا المدينة واستولوا عليها فتفرق شملنا، وكانت امك قـد اصبحت شابة ، وهي في مثل حالك جمالا وذكاء، ولم اعد ارى جديك ، ولكنني سمعت انهما قتلا . اما امك فأخذوها سبية ولم اعد اراها ، الى ان جاءت في العام الماضي الى القسيس ، وأذكر اني رأيتها وهي داخلة فمكثت عنده برهة وأنا احسبني اعرفها ، ولما خرجت سألت القسيس عنها وقلت: (أليست هذه مريم بنت قسطنطين ؟ ــ وهو اسم جدك ــ) . قال : (بلى). ولكنني رأيت على وجهه بعد خروجها من عنده اثر الانقباض ، ورأيت الدمع في آماقه ، فاضطربت ولم أسأله عن السبب مخافة ان يكـون

سؤالي تطفلا ، لعلمي ان القسيس مستودع اسرار كثيرين ، وقلت في نفسي : (لو كان خبر مريم مما يجوز ذكره لما تأخر عن ذكره) • اما هو فكأنه ادرك قلقي وتشوقي لمعرفة خبر امك ، لما يعلمه من رابطة المودة بيننا • فلما جلسنا على المائدة في المساء اخبرني عن قصتها وسبب غيابها عنه كل هذه المدة ، وفهمت من خلال كلامه ان الرجل الذي كان معها يومئذ ليس أباك وان أباك رجل آخر» •

فقالت أسماء بلهفة : «ألم تعرفي اسم ابي ؟»

قالت : «كلا لاني لم أسأله» •

فاستأنست أسماء بالقسيسة، وازدادت ميلا اليها فقالت لها : «بماذا تشيرين علي الان ، أأنتظر رجوع القسيس ام اسير الى القدس فأستطلعه السر ؟ »

فصمتت القسيسة كأنها تفكر في امر ، ثم تغير لونها بغتة وانقبض وجهها ونظرت الى أسماء والدمع يتلألأ في عينيها وقالت : «ارى ان تذهبي الى بيت المقدس لان القسيس اصبح شيخا هرما» • قالت ذلك وغصت بريقها •

فأدركت أسماء انها تخاف انقضاء أجله عاجلا ، فتجاهلت ما بدا من عواطفها وقالت : «ها أنذا ذاهبة والاتكال على الله» • ونهضت فودعت القسيسة وخرجت تلتمس الخان وفيه خادمها والجوادان ، فأمرت الخادم بالاستعداد ، وفي صباح اليوم التالي ركبت وسارت قاصدة الى بيت المقدس •

★ ★ ★

وكان القسيس مرقس يعرف جدي أسماء وأسرتها قبل الفتح ويعطف

عليها بالتخصيص ، فلما تسلم السر من امها شاركها مصابهما وازداد عطفا عليها ، وود لو استطاع ان يفرج كربتها ، فلما جاءته في المرة الاخيرة قبل سفرها الى المدينة وأخبرته انها عازمة على كشف امرها لذوي الشأن هناك ، سره هذا ولكنه رآها ضئيلة مريضة فتشاءم وتوقع قرب انقضاء أجلها ، فأوصاها بأن تبعث اليه بما يحدث لها وهو انما يريد بذلك ان يتحقق من وصولها الى مأمنها حية • فلما انقضى العام ولم يأته منها نبأ قلق عليها ، وكان كلما سمع اسم يثرب (المدينة) يتجدد بلباله ويود لو يرى أسماء ، ليطلعها على اسم ابيها ، ولكنه لم يكن يعرف مقرها ، فلبث وهذا شأنه حتى جاء الامويون بقميص عثمان وأصابع نائلة ، وكان ما كان من بكائهم وعويلهم ، وعلم ما حدث من الفتنة في المدينة فازداد قلقه وأثر ذلك في صحته ، فاضطر مع كبره وضعفه الى ان يبرح دمشق الى مكان يستقر فيه ريثما تهدأ الاحوال • فخطر له الذهاب الى بيت المقدس لان له فيها اهلا يرتاح الى مجاورتهم ، فركب اليها قبل وصول أسماء الى دمشق ، ومكث هناك مدة وهو يزداد ضعفا، ولم يجده ترحيب اهله واحتفاؤهم به نفعا ، وأحس بقرب الاجل •

فخطر له الشخوص الى انطاكية حيث الكرسي البطريركي الذي سيم فيه قسيسا فيرى البطريرك الانطاكي ويتزود بالاسرار المقدسة على يده قبل الوفاة • واتفق ان سفينة امبراطورية كانت راسية في مياه عسقلان أنفذها الامبراطور قونسطانس الثاني ليحمل البطريرك الاورشليمي الى انطاكية للبحث مع بطريركها في بعض الشؤون الدينية التي كان الخلاف قائما عليها في تلك الايام • وكان البطريرك الاورشليمي قد علم بعزم القسيس على الذهاب الى انطاكية ، فدعاه ليسافر معه بحرا لان الفصل صيف ولا خوف من الانواء ، والطريق في البر شاق لما يقتضيه من ركوب الدواب وقطع الجبال والاودية ، فسر القسيس بتلك الدعوة

وسار في حاشية البطريرك الى عسقلان على ان يسيرا منها الى انطاكية في السفينة الامبراطورية .

واتفق وصول أسماء الى القدس بعد خروج القسيس منها ببضعة ايام، ولما اخبروها انه قصد انطاكية استعاذت بالله مما ابتلاها به من النحس في أسفارها ، وباتت ليلة وصولها مسهدة حزينة لم يجف دمعها لفرط ما تولاها من القنوط فأصبحت شديدة الاعتقاد بسوء طالعها .

على انها اصبحت في اليوم التالي وقد هدأ روعها وعادت اليها رباطة جأشها فقالت في نفسها : «لأذهبن الى انطاكية على عجل قبل ان يخرج القسيس منها والاتكال على الله» . فركبت جوادها وسارت والخادم في رفقتها يقوم لها بما تحتاج اليه من الخدمة في السفر ، وكانت حيثما توجهت تتنكر بلباس الرجال مخافة ان يعلم مروان بها ، ولا ينجيها منه شيء الا القتل . وكان المسافر من القدس الى انطاكية يغلب ان يمر بدمشق ولكنها جعلت طريقها لبنان . وبعد مسيرة ايام وليال اشرفت على انطاكية .

وكان وصولها قبل طلوع الشمس ، والشمس لا تطلع على انطاكية الا متأخرة لاحتجابها بجبلها الشرقي . وأشرفت أسماء على تلك المدينة العظيمة أم مدن الشام ومقر بطاركتها ، بل هي ثالثة مدائن تلك الايام (رومية والاسكندرية وانطاكية) فأطلت عليها من مرتفع مشرف فاذا هي مستطيلة الشكل على ضفة نهر «العاصي» الجنوبية ، وتحدق بها البساتين الغناء وفيها الثمار والفاكهة من كل الانواع . فدهشت أسماء لعظمة تلك المدينة وما فيها من الابنية الشاهقة ، وأكثرها من الكنائس فوقها القباب المزخرفة وفيها الطرق التي لا تكاد تشرق الشمس حتى تغص بالناس . وأذهلها بنوع خاص سورها العظيم وما عليه من الابراج التي يبلغ عددها ٣٦٠ ، وله خمسة ابواب . وتتبعت ذلك السور الواسع بنظرها

لعلها تحيط بسعة المدينة فرأت انها تحاول عبثا لان السور يصعد مع الجبل الى أعلاه ثم ينزل من الجهة الاخرى بحيث يحيط بالمدينة ومزارعها جميعا بما تزيد مساحته على بضعة عشر ميلا مربعا •

فبهتت أسماء لتلك المناظر الفخمة ، وكان بحر الروم يتراءى لها عن بعد في الافق كأنه هلال مستطيل • وبعد ان وقفت هناك برهة تتأمل عظمة هذه المدينة تحولت الى باب من ابواب السور في الشرق واتصلت منه بالطريق الاعظم الذي يقطع المدينة في طولها من الشرق الى الغرب وطوله اربعة أميال وعليه من الجانبين اربعة صفوف من الاعمدة الرخامية تعلوها اقواس جميلة ، وفي الوسط طريق واسع مكشوف مرصف بالجرانيت ، تحده من الجانبين مقاعد من الرخام المنقوش • وهو كله على استقامة واحدة تتفرع منه طرق صغرى من الجانبين • فذهلت أسماء لما شاهدته من العظمة والبذخ في انطاكية مما لم تر مثله قبلا • ومما زاد ذهولها ودهشتها انها رأت تيجان الاعمدة في ذلك الطريق الطويل محلاة بالذهب الخالص مما يندر مثله في اعظم مدائن الارض • على ان ذلك المنظر الجميل كان ممزوجا بما يدعو الى الاسف الشديد ، لما توالى على هذه المدينة من الزلازل التي دكت معظم ابنيتها فشوهت وجهها وغيرت مجرى نهرها ، على ان العظمة مع ذلك ما زالت تتجلى فيها •

وظلت أسماء سائرة تلتمس دار البطريرك لعلها ترى القسيس هناك، فوصلت الى بناء شاهق يدخلون اليه من باب عظيم قائم على اعمدة من الرخام ، عتبته العليا من الجرانيت الاحمر الجميل ، وعليها نقوش باليونانية لم تستطع قراءتها ، فأطلت من ذلك الباب الى فناء واسع رصف بالفسيفساء ينتهي الى سلم عريض يصعدون منه الى دار رحبة رأت فيها جماعة من القسيسين والشمامسة وغيرهم يخطرون في مشيهم، وكل اثنين او ثلاثة منهم في شاغل بالحديث ، فقالت في نفسها :

«أأدخل ؟» ولكن اذا كان القسيس ليس هنا فما الذي يدخلني ؟» • ثم سألت بعض الوقوف عند الباب عن القسيس مرقس فقال : «لا اعرفه» • فتذكرت انه قادم على سفينة البطريرك الاورشليمي وانهما يصلان معا ، فسألت عن البطريرك فقالوا : «انه لم يصل بعد ، ولا يعلم زمن وصوله لان السفر في البحر رهين بحالة الجو والريح ، وقد يصل بعد يومين ، او بعد اسابيع» • وما علمت أسماء ذلك حتى قالت : «لا بد لي اذن من التربص حتى تصل السفينة» • وأمرت الخادم ان يسير بها الى خان تقيم به •

★ ★ ★

قضت أسماء في الخان اياما وهي على مثل الجمر تصعد احيانا الى الجبل للنظر منه الى البحر لعلها ترى السفينة قادمة ، ولكن بعد البحر من انطاكية كان كثيرا ما يحول دون رؤيتها شيئا فاذا ملت الاصطبار ارسلت خادمها الى البطريركية يسأل عن القادمين ، حتى لم يبق لها صبر على البقاء هناك ، وشكت سوء طالعها وقالت في نفسها : «لا يبعد ان تكون السفينة قد غرقت بمن فيها لشقائي» •

وكانت غرفتها تشرف على الطريق الاعظم ، فاستيقظت ذات يوم على ضجيج الغوغاء وجلبتهم ، فأطلت من النافذة فرأت جماعات من العرب بالعدة والسلاح سائرين على غير نظام يحمل بعضهم الاعلام وفيهم الفرسان والمشاة تتقدمهم بعض النساء بالدفوف بين مربع ومستدير يضربن عليها وينشدن الاشعار الحماسية يحرضن بها الرجال وينهضن هممهم • فعلمت أسماء انهم من جند انطاكية ولكنها لم تفهم معنى جلبتهم فنادت الخادم فلم يجبها لانه كان قد انخرط في سلك المارة يحادثهم ويستفهم عما هم فيه • وبعد قليل عاد مسرعا والبغتة بادية على وجهه • فقالت : «ما

وراءك ... من هؤلاء ؟»

قال : «جماعة من جند انطاكية سائرون لنجدة جند الشام في صفين».

فقالت : «على من ؟» . قال : «على جند امير المؤمنين علي بن ابي طالب» .

فقالت بلهفة : «وهل هم في حرب هناك ؟»

قال : «نعم يا سيدتي ، انهم هناك من زمن بعيد ، وبعض الذين حدثتهم يزعم انه شهد معركة حامية هناك انكسر فيها جيش الامام» .

ولم يتم كلامه حتى اقشعر بدن أسماء وصعد الدم الى وجنتيها غيرة وحمية وقالت : «اين هي صفين ؟»

قال : «على بضع مراحل من هذا المكان شرقا» .

فلبثت في حيرة بين ان تظل في انطاكية حتى يصل القسيس وبين ان تسير الى صفين وترى ما وقع لجند الامام ، فظلت صامتة برهة ، فتركها الخادم وخرج . اما هي فقالت في نفسها : «ان انتظاري سفينة قادمة في هذا البحر قد يطول كثيرا ، لان سفر البحر لا حدود له ، وقد ينتهي انتظاري بالفشل اما بغرق المركب واما بموت القسيس قبل وصوله» . قالت ذلك وتناثر الدمع من عينيها حزنا على حالها وغيظا مما أحدق بها من سوء الطالع ، فبكت ، ثم عادت الى تفكيرها فقالت : «وأما الحرب في صفين فان عليها تتوقف سعادة المسلمين او شقاؤهم ، وما انا خير من احدهم ، ولا بد لي من الاسراع الى هناك عسى ان أؤدي خدمة لعلي او أقتل في ساحة الوغى فأنجو من البلاء» . ثم نادت الخادم وقالت : «أسرع الى دار البطريرك واسأل عن القسيس مرقس ، فان علمت انه لم يأت فعد حالا وأسرج الجوادين وأعد معدات السفر» .

فخرج الخادم ، وبعد قليل عاد ومعه بعض الزاد مما لا غنى عنه في الطريق وأخبرها ان السفينة لم تصل ولا يعلم زمن وصولها وانه أعد ما

تحتاج اليه في الطريق .

فقالت : «نذهب الى صفين ، حتى اذا انقضت الحرب وظللنا على قيد الحياة عدنا الى انطاكية ، والا فعلى الدنيا السلام» .

ولم تمض ساعة حتى ركبت أسماء ، وركب خادمها في اثرها ، وخرجا من المدينة ، فالتقيا بالنجدة سائرة امامهما . ففكرت أسماء فيما تستطيع ان تخدم به الامام علي وهي يد واحدة لا تفيد في القتال فائدة تذكر ، فلاح لها ان تخدمه في استطلاع حال العدو وكشف عوراته ومخبآته ولا يتم لها ذلك الا اذا اختلطت بجند الشام . وذلك لا يكون الا اذا تنكرت وانخرطت في سلكه .

وقضت مسافة الطريق وهي تفكر في الامر ، وسبقت نجدة انطاكية، فأطلت في صباح الخميس بعد بضعة ايام على سهل صفين من جبل عال فهالها ما شاهدته في ذلك السهل من الخيام والاعلام والجند والخيل والجمال ، ولم يكن في ذلك الحين قتال . فرأت هناك معسكرين احدهما في الشرق والآخر في الغرب ، وبينهما ساحة خالية ، فعلمت انهما معسكرا علي ومعاوية في هدنة ، وشاهدت الجمال سارحة في المرعى وراء الخيام ومعها العبيد ترعاها ، وتأملت معسكر الشام لانه اقرب الى موقفها من ذلك ، فرأت في وسطه قبة كبيرة حولها الرجال والخيول فعلمت انها قبة معاوية امير تلك الحملة .

وما كادت تتأمل في المعسكرين برهة حتى رأت فيهما حركة ، وقد تهيأوا جميعا للقتال والتحم الجيشان وتطايرت النبال وصهلت الخيول وخفقت الاعلام وصاح الفرسان من الجانبين . فلم تر بدا من العمل فقالت لخادمها : «اعطني ثيابك وخذ ثيابي وابق انت هنا بالجوادين» .

ارتدت أسماء ثياب خادمها فأصبحت تشبه رجال حملة انطاكية ، ثم انتظرت حتى وصل جنود النجدة فانخرطت في سلكهم وسارت مع المشاة

لا ينتبه اليها احد ، حتى دخلت معسكر معاوية والحرب محتدمة وكل لاه بنفسه • وما زالت تخترق صفوف المقاتلين وهي تتظاهر بالقتال معهم ، حتى وصلت الى قبة معاوية فرأت خمسة صفوف من الرجال قد عقلـوا انفسهم بالعمائم حولها للدفاع عن معاوية بحيث لا يستطيع احد ان يفر وحده • فعلمت انهم متفانون في سبيل نصرته او يقتلون في الدفاع عنه ، وتفرست من خلال الصفوف فرأت معاوية والى جانبه عمرو بـن العاص ، وكلاهما في وجل وعيونهما تكاد تطير شعاعا تطلعا لما سيكون من عاقبة تلك الوقعة ، وهما يحثان الرجال على الدفاع ويحرضانهم على الثبات ، والنبال تتطاير كأنها الجراد في السحاب • فاحتالت أسماء في الدخول الى قبة معاوية ، فرأت فارسا جاء مسرعا ودخل من شق بين تلك الصفوف ، فدخلت في اثره ودخل غيرها ايضا فلم ينتبـه لها احد ، فسمعت معاوية يسأل الفارس عما به ، فقال «ان وطأة العدو شديـدة ولكننا سنغلبهم باذن الله» •

ونظرت أسماء الى وجه عمرو بن العاص فاذا هو ممتقع ، وقد بان الخوف فيه وفي وجوه معاوية ومن معهما من الامراء • ثم رأت ابن العاص خرج مسرعا فركب فرسه وسار يخترق الصفوف يحث الرجـال ويحرضهم ، فظلت واقفة في جملة الوقوف وقد سرت بما رأته من شعور معاوية بقوة رجال علي • وبعد هنيهة عاد عمرو واختلى بمعاوية فلم تسمع أسماء ما دار بينهما ، ثم عادا الى فرسيهما يشرفان على المعركة •

- ١٩ -

الهدنة والتحكيم

وأصبحوا يوم الجمعة والقتال على أشده ، وقد تقهقر جند معاوية

حتى وصل رجال علي الى الصفوف المعقولة حول القبة . فالتفت معاوية الى عمرو وقال : «ما الحيلة يا عمرو ؟»

قال : «ارفعوا المصاحف على الرماح ، وقولوا : (كتاب الله بيننا وبينكم) فان قبلوا ذلك جميعا ارتفع القتال عنا . واذا قبل بعضهم دون البعض الآخر تفرقوا وانقسموا على انفسهم فيكون لنا بانقسامهم فرج».

فلما سمعت أسماء ذلك خافت ان يخدع رجال علي ، فهرولت مسرعة تخترق الصفوف وقلبها يخفق فرحا لانها تمكنت من القيام بهذه المهمة لانها واثقة من فشل جند معاوية وان النصر لعلي اذا ظل على القتال . اما اذا صدق حيلة عمرو فانه يضيع الفرصة السانحة .

اما علي فكان قد قاتل ببسالة طوال نهاره وليله ، وقد تحقق فوز جنده ، وظل يطوف في صفوفهم يحثهم على الثبات ويدعو لهم بالنصر الى ان عاد في الصباح الى فسطاطه . فجاءه مخبر بأن اهل الشام رفعوا المصاحف على الرماح وهم يقولون : «هذا حكم كتاب الله بيننا وبينكم. من لثغور الشام بعد اهله . ومن لثغور العراق بعد اهله» . فلما سمع علي كلامهم قال : «لا نجيبهم الى ذلك فهي حيلة لا تنطلي علينا» .

فجاءه نفر من رجاله وقالوا : «بل نجيبهم الى كتاب الله» .

فوقف علي وقد خاف الفتنة وقال :

«عباد الله ، امضوا الى حقكم وصدقكم ، وقتال عدوكم ، فان معاوية وابن العاص وابن ابي معيط وحبيبا وابن ابي سرح والضحاك ليسوا بأصحاب دين ولا قرآن ، انا أعرف بهم منكم ، قد صحبتهم اطفالا ثم رجالا ، فكانوا شر اطفال وشر رجال . ويحكم ، والله ما رفعوها الا خديعة ووهنا ومكيدة» .

فقالوا : «لا يسعنا أن ندعى الى كتاب الله فنأبى ان نقبله» .

فقال : «فاني انما أقاتلهم ليدينوا لحكم الكتاب ، فانهم قد عصوا

الله فيما أمرهم ونسوا عهده ونبذوا كتابه» •

فقال له مسعر بن فدكي التميمي وزيد بن حصين الطائي في عصبة من القراء الذين صاروا بعد ذلك خوارج : «يا علي ، أجب الى كتاب الله عز وجل اذا دعيت اليه ، والا دفعناك برمتك الى القوم ، او نفعل بك ما فعلنا بابن عفان» •

قال : «فاحفظوا عني نهيي اياكم ، واحفظوا مقالتكم لي ، فان تطيعوني فقاتلوا ، وان تعصوني فاصنعوا ما بدا لكم» •

قال ذلك وقد اخذ الغضب منه مأخذا عظيما • وفيما هو في هذا انشق الجمع وخرج من بينهم جندي لم يكن سوى أسماء ، وقد وصلت وسمعت الناس يحاجون عليا ، فهرولت حتى وقفت بينهم وبين علي ، وثارت الحمية في رأسها وعلى وجهها احمرار التعب من شدة العدو ، فضلا عما قام في نفسها من الاسف لتلك الحال ، فأسفرت وحيت الامام بتحية الخلافة ، والتفتت الى الوقوف هناك وقالت لهم : «اعلموا اني قادمة من معسكر معاوية ، وقد سمعت حديثهم عن الحيلة بأذني ، وانما جئت مسرعة مخافة ان تنطلي الحيلة عليكم وتكفوا عن القتال • انها والله خديعة اخترعها ابن العاص ليلقي الشقاق بينكم • وأخشى ان تنفذ حيلته فيكم فأطيعوا امير المؤمنين وأنتم الغانمون» •

فضحكوا من كلامها وقالوا : «كيف ندعى الى كتاب الله ولا نجيب• هذا لا يكون ابدا» •

ثم وجهوا كلامهم الى علي وقالوا : «ابعث الى الاشتر فليأتك» • وكان الاشتر النخعي من أشجع قواد تلك الحملة وقد ابلى في تلك الحرب بلاء حسنا ، وكان لا يزال يحارب ، وهم انما طلبوا استقدامه ليكف عن الحرب • فبعث اليه فلم يأت لانه رأى الفوز بين يديه ، فاذا تحول عن موقفه فسدت اعماله •

فلما ابطأ قال اولئك الناس لعلي : «نظنك أمرته بالحرب فابعث اليه والا والله اعتزلناك» . فبعث اليه ثانية فجاء وهو يقول : «اظنكـــم تدعونني الى الكف عن القتال بعد رفع المصاحف» .

ثم أقبل وهو يقول :

«يا اهل العراق ، يا اهل الذل والوهن ، أحين غلبتم القوم وظنوا انكم لهم قاهرون رفعوا المصاحف يدعونكم الى ما فيها وهم والله قد تركوا ما أمر الله به فيها ، وسنة من أنزلت عليه ، فأمهلوني فواقا فاني أحسست بالفتح» . ولكنهم لم يمهلوه .

قال : «امهلوني عدو الفرس فاني قد طمعت في النصر» .

قالوا : «اذن ندخل معك في خطيئتك» .

قال : «فخبروني عنكم متى كنتم محقين ؟ أحين تقاتلون وخياركـم يقتلون ؟ فأنتم الان اذا امسكتم عن القتال مبطلون. ام انتم الان محقون؟ فقتلاكم الذين لا تنكرون فضلهم وهم منكم في النار» .

قالوا : «دعنا منك يا أشتر قد قاتلناهم لله وندع قتالهم لله» .

قال : «خدعتم وانخدعتم ، ودعيتم الى وضع الحرب فأجبتم ، يـا اصحاب الجباه السود ، كنا نظن صلاتكم زهادة في الدنيا وشوقا الى لقاء الله ، فلا ارى مرادكم الا قبحا ، يا أشباه النيب الجلالة ما انتـم برائين بعدها عزا ابدا ، فابعدوا كما بعد القوم الظالمون» .

فسبوه وسبهم وضربوا وجه دابته بسياطهم وضرب وجوه دوابهـم بسوطه . فصاح به وبهم علي : «كفوا» . وقال الناس : «قد قبلنا ان نجعل القرآن بيننا وبينهم حكما» .

وطال الاخذ والرد بينهم ، وأسماء واقفة وقلبها يكاد ينفطر جزعا من عناد اولئك المخالفين ، فلما سمعت قبولهم اجابة الدعوة ، تناثرت الدموع من عينيها والتفتت الى علي فاذا هو مطرق وقد اخذ الغضب منه مأخذا

عظيما كأنه يرى عاقبة ذلك بعينه ، فتعاظم غيظها وأرادت تأنيب المستخلفين ثم احجمت ولبثت ترقب ما يكون •

★ ★ ★

وتقدم رجل من خاصة علي ، فقال : «نرى الناس قد قبلوا ما دعوا اليه من حكم القرآن ، فهل تأذن في ان نسمع ما يدعونا معاوية اليه من هذا الامر ؟»

قال علي : «سر اليه واسأله» •

فذهب ثم عاد وهو يقول : «سألت معاوية عما حمله على رفع المصاحف ، فقال : الرجوع الى ما أمر به الله في كتابه ، فابعثوا رجلا ترضون به ، ونبعث نحن رجلا نرضى به ، نأخذ عليهما ان يعملا بما في كتاب الله ، لا يتعديانه ، ثم نتبع ما اتفقا عليه» •

فقال علي : «قبلنا فأي رجل اختاروا» •

قال : «اختاروا ان ينوب عنهم عمرو بن العاص» •

فالتفت علي الى من حوله وقال : «ومن تختارون انتم ؟»

قالوا : «نختار أبا موسى الاشعري» •

فأجعل علي وقال : «لا • لا •• انكم لم تصيبوا • وقد عصيتموني في اول الامر ، فلا تعصوني الان • لا ارى أبا موسى كفؤا لابن العاص، وهو مع ذلك ليس بثقة ، فقد فارقني وخذل الناس عني • ثم هرب مني حتى أمنته بعد اشهر • فكيف نركن اليه في هذا التحكيم • هذا ابن عباس أوليه ذلك» •

فصاحوا بصوت واحد : «والله لا نريد الا رجلا هو منك ومن معاوية سواء» • قال علي : «فاني اجعل الاشتر» •

قالوا : «وهل سعر الارض غير الاشتر» • قال : «قد أبيتم الا أبا

موسى » .

قالوا : «نعم» . قال : «افعلوا ما اردتم» .

وكانت أسماء تسمع الجدال وهي تتميز غيظا ، ولكنها لا تجرؤ على الكلام تهيبا من علي .

وبعد قليل جاء ابو موسى الاشعري وعمرو ، فدخلا على علي ليكتبا القضية بحضوره ، وهي صورة عقد التحكيم فبدآوا بكتابة : «بسم الله الرحمن الرحيم ، هذا ما تقاضى عليه امير المؤمنين ..» . فاعترض عمرو قائلا هو اميركم وليس اميرنا ، وطال الجدال في ذلك حتى وقع نفور شديد بين علي وعمرو وانتهى الامر الى ان يكتب العقد على هـــذه الصورة :

«بسم الله الرحمن الرحيم ، هذا ما تقاضى عليه علي بن ابي طالب ومعاوية بن ابي سفيان ، قاضي علي على اهل الكوفة ومن معهم ، وقاضي معاوية على اهل الشام ومن معهم . اننا ننزل عند حكم الله وكتابه . وألا يجمع بيننا غيره ، وان كتاب الله بيننا من فاتحته الى خاتمته ، نحيي ما أحيى ونميت من امات . فما وجد الحكمان في كتاب الله ، وهما ابو موسى عبد الله بن قيس ، وعمرو بن العاص ، عملا به . وما لم يجداه في كتاب الله فالسنة العادلة الجامعة غير مفرقة . وأخذ الحكمان من علي ومعاوية ومن الجندين من العهود والمواثيق انهما آمنان على نفسيهما وأهليهما ، والامة لهما أنصار على الذي يتقاضيان عليه . وعلى عبد الله ابن قيس وعمرو بن العاص عهد الله وميثاقه ان يحكما بين هذه الامـــة لا يردانها في حرب ولا فرقة حتى يعصيا . وأجل القضاء الى شهـــر رمضان ، وان أحبا ان يؤخرا ذلك أخراه ، وان مكان قضيتهما مكان عدل بين اهل الكوفة وأهل الشام» . ويلي ذلك أسماء الشهود .

وقد كتب هذا العقد في ١٣ صفر سنة ٢٧ هـ .

ولما تمت الكتابة ، تلي العقد على الناس ، وانفض المجلس ولجأ الجنود الى الهدنة ريثما يحل الاجل المضروب لمجلس التحكيم .

وتراجع الناس عن صفين وهم علي بالنزوع الى الكوفة ، فجاءته أسماء في ساعة كان فيها مختليا ، وقبلت يده فسألها عن حالها وما تم لها بعد سفرها ، فقصت عليه خبرها وما حملها على القدوم قبل مقابلة القسيس ، فأثنى على غيرتها ودعاها الى الذهاب معه الى الكوفة .

فقالت : «حبذا الامر ولكنني اقرب الان الى انطاكية مني الى الكوفة ، فاذن لي بالذهاب اليها ، فقد آن لي أن أعرف نسبي» . فأطرق علي برهة يتأمل فخافت ان يكون في شاغل آخر فودعته وخرجت على ان تعود يوم التحكيم لتسمع حكم الحكمين .

وكان المسلمون في انتظار ذلك اليوم لانه سيكون عظيما ، ولم تفتقد محمدا لانها علمت انه في مصر يتولى أمورها .

★ ★ ★

عادت أسماء الى الجبل حيث تركت جوادها وخادمها وخلعت ثيابها وركبت الى انطاكية لا تستريح ليلا ولا نهارا .

فأشرفت عليها من جبلها الشرقي ، وأطلت على البحر فلمحت شيئا كأنه سفينة حجبها البعد عنها ، فخفق قلبها سرورا وهبطت من الجبل حتى اذا دنت من المدينة سمعت دق الاجراس دقا بطيئا متقطعا فقالت في نفسها : «لعلهم يحتفلون بقدوم البطريرك ، ولكنها لم تكد تسير في الطريق الكبير حتى رأت الناس محتشدين يتقدمهم رهط من الاكليروس بالمباخر فعلمت انه احتفال بجنازة .

ولا تسل عن حالها لما علمت انها جنازة القسيس مرقس وقد مات بعد وصوله الى انطاكية بيومين ، فانها لطمت وجهها وندبت سوء حظها ،

وذهبت توا الى الخان وأقفلت باب غرفتها وأطلقت لنفسها عنان البكاء ، وجعلت تعدد ما اصابها من الاحن منذ ولادتها ، وكم قاست من المصائب وكم عانت من الاخطار ، حتى اذا دنا وقت سعادتها وآن لها ان تعرف أباها داهمها القدر بالفشل الذريع •

وتذكرت مروان وما قاست من البلاء بسببه ، وتذكرت عذابها في الصحراء بين مكة والبصرة ، وما قاسته على اثر ذلك • وغرقت في تيار هواجسها ، وتحققت سوء حظها ، وتمنت ان تموت فتتخلص من العذاب • ولما تمنت ذلك اجفلت وندمت لانها تصورت محمدا وحبه لها وما ترجوه من السعادة بقربه فقالت : «لا •• لا اموت بل أحيا لاجل حبيبي ، وأقصى مرادي ، وهو تعزيتي الوحيدة في هذا العالم ، فاذا خسرت الدنيا كلها وفاتني كل نعيمها وحصلت على محمد بن ابي بكر فذلك يكفيني» •

وبعثت خادمها يستطلع مكان التحكيم وزمانه فأنبأها انه سيكون في «أذرح» في أطراف الشام من أعمال السراة بنواحي البلقاء وعمان في زمن معلوم ، فلما دنا الاجل تنكرت وسارت تلتمس أذرح والخادم معها•

- ٢٠ -

حكم الحكمين

ولما جاء الاجل المعين لتلاوة حكم الحكمين ، بعث علي أبا موسى الاشعري في اربعمائة رجل ومعهم عبد الله بن عباس • وبعث معاوية عمرو بن العاص في اربعمائة من اهل الشام والتقوا بأزرح • وكان عمرو ابن العاص قد استعان بكل دهائه في اقناع ابي موسى بأن يوافقه

على خلع علي وتولية معاوية لانه المطالب بدم عثمان ، فلما لم يفلح ذكر له تولية احد ابناء الصحابة كعبد الله بن عمر وعبد الله بن الزبير ، وبعد جدال عنيف اتفقا على خلع علي ومعاوية ، وأن يختار المسلمون واحدا غيرهما بالشورى • وكان من دهاء عمرو انه ما زال يدافع أبا موسى في الكلام حتى طلب هذا خلع الاثنين فأصبح هو البادىء في الكلام عند اصدار الحكم •

فلما جاء اليوم المعين ، واجتمع الناس من الاقطار وصلت أسماء ايضا في ذلك اليوم فوقفت بين الناس بحيث لا يعرفها احد ، فرأت ابا موسى وابن العاص في مجلس علي ، وبقية الناس في جانب آخر كأن على رؤوسهم الطير ينتظرون ما يكون من الحكم •

فوقف اولا ابو موسى ، فأصغى الناس لمقاله فقال بصوت عال يسمعه الحاضرون : «ايها الناس انا قد نظرنا في امر هذه الامة فلم نر أصلح لأمرها ولا ألم لشعثها من امر قد أجمع رأيي ورأي عمرو عليه ، وهو ان نخلع عليا ومعاوية ، ويولي الناس من امرهم من احبوا • واني قد خلعت عليا ومعاوية فاستقبلوا امركم وولوا من رأيتموه اهلا» •

وكان لقوله وقع عظيم ولبث الناس ينتظرون قول عمرو فاذا هو قد وقف وقال : «ان هذا قد قال ما سمعتموه وخلع صاحبه (عليا) وأنا أخلع صاحبه كما خلعه ، وأثبت معاوية فانه ولي عثمان بن عفان والمطالب بدمه وأحق الناس بمقامه» •

فلما سمع اصحاب علي قوله علموا انها حيلة من عمرو وغفلة من ابي موسى ، ووبخوا أبا موسى وأنبوه فقال : «ما العمل فقد غدر بي» •

وأما أسماء فلما سمعت القولين علمت ان معاوية قد اشتد ساعده ، وان رجال علي لا بد ان ينقسموا بين من يقبل الحكم ومن لا يقبله ، فلم تستطع صبرا على البقاء هناك ، فخرجت من بين الجمع لا تأوي على

شيء وقد صغرت نفسها • وما زالت سائرة والخادم معها حتى اتت شجرة منفردة في الصحراء فاستظلت بها وشغلت الخادم بتدبير الجوادين وخلت الى نفسها وجعلت تفكر في حالها وما اصابها من الفشل المتوالي من كل صوب وحدب ، ولاسيما موت القسيس وضياع اسم ابيها وفشل رجال علي وخروج الخلافة من يده بحكم الحكمين ، فغلب عليها اليأس فلم تر لها فرجا الا بالبكاء والنحيب ، فنظرت الى ما حولها فاذا هي منفردة وليس من يسمع بكاءها فأطلقت لدموعها العنان حتى كاد يغمى عليها • وما زالت تشهق وتزداد شهيقا كلما ذكرت عليا او امها او محمدا • حتى تعبت وجف دمعها ، فألقت رأسها على حجر ونامت ولكنها لم تستغرق في النوم اذ تراءى لها طيف محمد فأفاقت مذعورة وهي تقول : «اهلا بحبيبي لا تعزية لي الا به • انه في مصر الان ،هل من يعلمه بما حل بأمر الخلافة ، وان ابن العاص قد كاد فيها كيدا عظيما • آه يا محمد هل من حيلة تخدم بها عليا رجل هذه الامة ، لا اظن الامر بعد الان الا صائرا الى معاوية • اما انا المسكينة اليتيمة المجهولة النسب والتعسة الحظ فربما كنت انا وحدي سبب هذا البلاء ، وربما كان سوء طالعي هو الذي جر كل هذه المصائب» • وسكتت هنيهة ثم انتبهت بغتة وهي تقول : «محمد ، محمد ، انت تعزيني في احزاني ومصائبي ، هلم بي اليك لأعيش بقربك فأنت الاب والاخ» •

وفيما هي تخاطب نفسها لمحت الخادم عائدا بالجوادين وهو يسرع نحوها فقالت : «ما وراءك ؟»

قال : «التقيت وأنا أسرج الجوادين بشرذمة من رجال الشام ركبوا مسرعين وفيهم عمرو بن العاص وكلهم فرحون بما نالوه ، وسمعت ابن العاص يقول : «لقد استقام لنا الامر ، ولم يبق الا ان أفتح مصر ، فاذا دانت لي عدت الى ولايتها ولا يبقى في يد علي الا العراق والحجاز

فنجرد عليهما ونفتحهما» •

فلما سمعت ذكر مصر وفتحها اضطربت وتذكرت محمدا فيها فقالت في نفسها : «أذهب الى مصر الان وأرى ما يؤول اليه امرها» • ثم التفتت الى الخادم وقالت : «وما ظنك في مسيرهم الى مصر ؟»

قال : «لا ادري متى يسيرون فلا بد لهم من الشخوص الى الشام وتدبير أمورهم ثم يحملون على مصر» •

فلبثت مدة تتردد • ولا تدري هل تسير الى مصر لترى محمدا ام تسير الى الكوفة لترى عليا وما آل اليه امر خلافته •

ولم تر بدا من المسير الى مصر ، فأسرعت الى جوادها فركبته وقد يئست مما اصابها من الفشل ، وسارت تعلل نفسها بلقاء محمد •

- ٢١ -

عمرو يعود الى القاهرة

مر بنا ما كان من اجتماع دعاة عثمان في مصر وعزل قيس بن سعد عنها بما دبره معاوية من الحيلة حتى أفسد ما بينه وبين علي • ثم ما كان من تولية محمد بن ابي بكر ، فلما تولاها محمد بعث رجلا من خاصته لحرب اهل خربتا القائمين بدعوة عثمان فقتلوه وتعاظم امرهم وفسدت مصر كلها على محمد • فبلغ ذلك عليا فقال : «ما لمصر الا احد الرجلين» • يعني قيسا او الاشتر ، وكان قد عزل قيسا فلم يرجع اليه ، فبعث الى الاشتر وكان قد عاد بعد صفين الى عمله في الجزيرة • فلما جاءه أخبره خبر مصر وقال : «ليس لها غيرك فاخرج اليها ، فاني لو لم أوصـــك اكتفيت برأيك» • فخرج الأشتر شاخصا الى مصر • وأتت عيون معاوية

اليه بذلك ، فعظم الامر عليه ، وكان قد طمع في مصر لكثرة خيراتهـــا ليستعين بها على اعماله وحروبه • وعلم ان الأشتر ان قدمها فسيكون أشد عليه من محمد بن ابي بكر •

وكان على حدود مصر يومئذ بلدة اسمها القلزم بالقرب من مكـــان السويس ، يغلب ان يمر بها القادم من الشام الى مصر ، وكانت القلزم هذه في حوزة معاوية •

فبعث معاوية الى صاحب خراجه في القلزم يخبره بمسير الأشتر الى مصر وقال له : «فان كفيتنيه لم آخذ منك خراجا ما بقيت وبقيت» •

فلما مر الأشتر بالقلزم استقبله صاحب خراج معاوية ، فعرض عليـه النزول ، فنزل عنده ، وأتاه بطعام فلما أكل اتاه بشربة من عسل قد جعل فيها سما فلما شربها مات ، فظلت مصر بامرة ابن ابي بكر • فازداد طمع معاوية فيها وهو يرجو منها خيرا ، فاستشار ابن العاص فقال : «علي بها، اني فاتحها الاول ، ومن أولى بها مني ؟» • وجرد جيشا كبيرا وســار قاصدا مصر فلما علم محمد بحملته ، بعث الى الامام يستنجده ، وعلمت أسماء بذلك فسارت اليها كما تقدم •

وكان محمد لم ير أسماء منذ افترقا في البصرة يوم خرج مع اخته أم المؤمنين الى مكة • على انه علم بما دار بينها وبين الامام علي ، على اثر وقعة الجمل في شأن خطبتها للحسن ، اذ اخبره الحسن نفسه بذلك وهو لا يدري انه مناظره عليها ، وقد سر محمد مما قاله الامام علي من ان غموض نسبها يمنع الحسن من زواجه بها ، كما سره تحققه من بقاء أسماء على عهده • وأخبره الحسن ايضا انها سارت الى بيت المقدس لمعرفة اسم ابيها ولكنه نظرا الى اشتغاله بأمارة مصر وما احاط بها من المشكلات وما قام فيها من الثورات المتوالية التي أضرم نارها دعاة عثمان في خربتا وغيرها ، لم يتمكن من مكاتبتها ، ولكنه كان يسأل عنهـــا ويتحسس

أخبارها . فكان تارة يعرف مقرها وطورا لا يعرفه . وآخر ما علمه انها كانت في مجلس الامام علي يوم خالفه اصحابه في قبول التحكيم ، وسمع ما اظهرته هناك من الحمية ، فتذكر حديثها وتصورها امامه تشير بيدهـا وتتكلم وتتهدد ، فارتاح لتلك الذكرى واشتاقت نفسه للقياها .

على انه عاد فتذكر ما رآه الامام علي من حيلولة غموض نسبها دون اقتران الحسن بها ، فقال في نفسه : «اذا عرفت أباها كان امرها اشكالا فان الحسن لا يتخلى عنها ، واذا ارادها الحسن وطلبها له ابوه فكيـف اطلبها انا» . فلما تخيل ذلك عظم عليه الامر ، وتمنى لو بقيت علـى جهلها نسبها فتكون اقرب اليه ، وصورت له الغيرة ان حرمانهما معا منها خير من ان يأخذها احد غيره .

وما زال يردد هذه التصورات في ذهنه حتى جاءه كتاب منها بموت القسيس وضياع السر ، وقد اشارت فيه الى رغبتها في المعيشة معـه بوصفها أختا او صديقة ، فتحقق صدق مودتها وبقاءها على العهد فسر سرورا عظيما ، ولبث ينتظر عودتها وهو يكرر تلاوة الكتاب وقـد استأنس به لانه هاج أشجانه بعد ان طال زمن الفراق ، وكان كلما تلا الكتاب تصور أسماء واقفة بين يديه تخاطبه ويخاطبها . ولكن استئناسه بوجودها لم يطل لاشتغاله بمهام الحرب . فبينما هو ذات يوم فـي الفسطاط عاصمة الديار المصرية في ذلك الحين اذ جاءته عيونه بخبر اهل الشام ، وانهم حاملون عليه بقيادة عمرو بن العاص .

وكان عمرو قد كاتب محمدا يطلب اليه التسليم ، فأرسل محمـد الكتاب الى علي يستنجده فكتب اليه علي ان يجمع شيعته ويندبهـم للقتال ، ووعده بانفاذ الجيوش لنجدته ، فأخذ محمد في التأهب بمن عنده من الرجال ، فجهز كنانة بن بشر في الفين ، وسار هو في اثره بألفين.

أما عمرو فانه دخل مصر من الشرقية وجعل يسرح الكتائب كتيبة بعد

كتيبة ، وكنانة يلقي كتائبه ويفرقها ، حتى كاد الفشل يحيط بجنود الشام لو لم تأتهم نجدة قوية بقيادة معاوية بن حديج فاشتد أزرهم •

أما جند مصر فلم تأتهم نجدة لتقاعد العراق عما دعاهم اليه علي ، ولكنهم حاربوا حربا شديدة دافعوا فيها دفاع الابطال ، ونزل كنانة عن فرسه ، وما زال يقاتل حتى قُتل •

★ ★ ★

سارت أسماء من الكوفة ، وكانت كلما تقدمت نحو مصر ازداد قلقها على محمد • وكانت قادمة وحدها على جوادها فاضطرها ذلك الى المسير بجوار المدن استئناسا بالناس ومخافة العطش ، فسارت على ضفاف الفرات ثم تحولت الى الشام حتى وصلت الى دمشق ، فسمعت هناك بمسير حملة عمرو ، فسألت عما حدث بعد ذلك ، فعلمت انه بعث يستنجد معاوية وان جيش مصر غالب • فسرت ولم تمكث في دمشق الا ريثما استراحت وركبت تطوي الصحراء الى مصر ، ولما دنت من العريش وقيل لها انها على حدود مصر ، تذكرت ما قاله رئيس دير البصرة عن امها ، وانها ولدتها في مصر ، حيث عرفت يزيد هناك • فهاجت احزانها ولكن تفكيرها في محمد شغلها عن كل ذلك •

ولما دخلت مصر مرت اولا بالفرما ، وهي مدينة كانت فيما يجاور بور سعيد الان • وما كادت تصل اليها حتى اخذت تسأل عن امر الحرب بين محمد وعمرو ، فأخبروها ان ابن العاص جاءته النجدة بعد ان كاد يفشل ، ولحظت من خلال حديث القوم انهم على دعوة عمرو وانهم ميالون الى معاوية ، فانقبضت نفسها وخرجت من الفرما لا تلوي على شيء ، وبحثت عن مكان القتال فقالوا انه في ضواحي الفسطاط ، فجدت في السير • وكانت في كل سفرها لا تنام في الليل الا قليلا حتى

وصلت الى بلبيس فرأت اهلها في هرج ، ورأت جماعة من النـــاس يدخلونها وفيهم من ربط يده او شد زنده او عصب رأسه ، فعلمت انهم عائدون من القتال . فاضطربت وسألت في ذلك فقالوا : «ان جنـود الشام تكاثروا بمن انضم اليهم من اهل مصر الذين هم على دعوة عثمان، وقد بايعوا معاوية وهو بعيد . وان كنانة بن بشر قتل وتشتت جنـد مصر . فسألت عن محمد فلم ينبئها بخبره مخبر ، فاختلج قلبها فـــي صدرها وقالت : «ومتى كان ذلك ؟» . قالوا : «كانت الوقعة اول من امس وقد دخل عمرو الفسطاط» .

وكانت الشمس قد مالت الى المغيب فلم تستطـــع صبرا فركبت وقصدت الى مكان الوقعة وعيناها تحدقان فيما امامها لا تبالي مـــا يهددها من الخطر .

وسدل الليل نقابه فلم تعد تستطيع النظر الى بعيد ، وخافت ان تضل الطريق ففكرت في الامر وهي سائرة الهوينى وقد تهيأت للدفاع بسلاحها اذا اعترضها عدو . فما لبثت ان رأت القمر قد بزغ فتلقته بالترحيب وأحست عند رؤيته بانفراج الازمة ، ولكنها رأت بعضه ناقصا وهو قبيل ربعه الاخير فخيل اليها لفرط انشغالها بأمر الحرب انه خارج من المعمعة وقد شطب وجهه بالسيف .

ولما طلع القمر استنارت وجدت في السير تلتمس الفسطاط . وكانت لما خرجت من بلبيس ترى بعض المارة قادمين اليهـــا أفرادا وأزواجا ، ولكنها لم تكد تبعد عنها حتى خلت الطريق من الناس ، فظنت نفسهـــا سائرة في طريق لا تؤدي الى الفسطاط ، فوقفت وتبينت الجهات جيدا فرأت انها اخطأت الجهة والتفتت فلم تر امامها الا صحراء قاحلة فرجعت يمينا حتى اصبحت في ارض زراعية وسارت نحو الجنوب ، والقمر الى يسارها يعلو رويدا رويدا حتى اصبح يريها الاشباح عن بعد ، ووادي

النيل ارض منبسطة لا جبال فيها ولا اودية •

ومضى معظم الليل وهي جادة في سيرها حتى تعبت وجاعت وأحست بالبرد يقرسها وهو شديد في مصر بعد منتصف الليل حتى في ابان الصيف • فترجلت ومشت لتدفأ ، وقادت جوادها والجو هادىء والارض خالية من الناس لا تسمع غير وقع حوافر جوادها وصهيله •

وبينما هي ماشية تفكر في شأنها اذ سمعت جوادها يصهل وقد أجفل، فالتفتت الى ما أجفله فرأت شبحا منطرحا ارضا وشمت رائحة منتنة • فدنت من الشبح فاذا هو جثة قتيل جائفة فخفق قلبها وعلمت انها على مقربة من مكان الوقعة ، فتجلدت وقد شعرت منذ رأت تلك الجثة بارتعاش نسبته الى البرد وما هو في الحقيقة الا نتيجة ما طرق ذهنها من التصورات المرعبة عن محمد •

ومشت والجواد وراءها والروائح تتعاظم ثم رأت جوادها اجفل ثانية اجفالا عظيما من جيفة جواد وراءها جيف كثيرة تطايرت عنها الكواسر وقد حلقت في الجو وصفقت في طيرانها تصفيقا زاد الفرس اجفالا ، فارتبكت في امرها ، وهي تود البحث بين الجيف مخافة ان يكون محمد بينها والجواد يمنعها باجفاله وصهيله ، فعمدت الى شجرة ربطته اليها وعادت وقلبها يخفق وركبتاها ترتعدان وعيناها تحدقان في تلك الساحة وفيها الجثث مبعثرة هنا وهناك ، وبين القتلى من استلقى على ظهره وبسط ذراعيه كأنه يستقبل شيئا يستغيث به وقد جعله البلى جلدا على عظم وأكلت بعضه النسور ، ومنهم من انبطح على بطنه وقد قبض باحدى يديه على رمح وبالاخرى على التراب • ورأت هناك رؤوسا مدحرجة وجثثا بلا رؤوس ، تراكم بعضها فوق بعض •

وواصلت سيرها وهي تجر نفسها جرا بين تلك الجيف ، وتحاذر ان تدوس على يد او رجل او رأس، وقلبها يخفق خفقانا شديدا تكاد تسمعه•

ولو تأتى لها ان تنظر الى وجهها في مرآة لرأته أشد امتقاعا من تلـك الجثث ، وتعبت من التفرس في الوجوه والثياب وأثرت تلك الرائحـة الكريهة في رأسها مع ما كانت فيه من التعب والجوع ، فأصابها دوار وخافت ان تسقط فوق القتلى فتداركت نفسها وتنحت الى الشجرة التي ربطت جوادها اليها وجلست هناك وأسندت رأسها الى جذعها تلتمس الراحة . ولكن افكارها ظلت تائهة ولم تبرح صورة محمد مخيلتها . ولم تكد تلقي رأسها حتى غلب عليها النعاس فأغمضت جفنيها فتمثل لها محمد مقتولا فارتعدت فرائصها ونهضت مذعورة . وبينما هي تنهـض رأت الفرس يمد رأسه الى الارض فالتفتت فرأته لفظ شيئا مضغه بين اسنانه فسمعت له صوتا كصوت القصبة اذا كسرت بين الاضراس ثم ما لبث ان رأت الفرس يلفظ تلك الهناة فلمحت فيها شيئا ابيض فتناولته فاذا هو قصبة فيها رق ، فتبينته فاذا هو كتابها الى محمد ما زال فـي قصبته كما ارسلته اليه ، فهاجت شجونها وتحققت ان محمدا كان في الوقعة والقصبة معه فسقطت من ثيابه في اثناء القتال . وساءلت نفسها: «اين هو ؟» . وكانت قد يئست من وجوده هناك ، وفي ذلك اليأس فرج لانها تحققت نجاته من تلك الوقعة فلما وجدت كتابها خافت ان يكون محمد قد قتل هناك فعادت الى الجثث تبحث فيها .

وكان القمر قد تكبد السماء وصفا الجو وظهر ما امامها جليا واضحا كأنها تنظر اليه في رابعة النهار . وكانت لا تحتاج في بحثها عن محمد الى امعان نظر ، فلو لمحت طرف ثوبه او بعض عمامته عن بعد لعرفته ، لان صورته نصب عينيها ، ولكن الاثواب والعمائم تتشابه ، فلا تسل عن خفقان قلبها كلما رأت شبحا يشبهه .

★ ★ ★

وما زالت على تلك الحال حتى لاح الفجر وتبينت الوجوه فدارت بين القتلى تجدد البحث ، فطلع الفجر وهي تجول وتتفرس فلم تر اثرا لمحمد فتحققت انه لم يقتل في تلك المعركة • فلما سكن روعها أحست بالتعب والنعاس والجوع فالتفتت الى ما حولها فرأت بيوتا تكاد تتوارى لبعدها فعلمت انها منازل اهل القرى ، فاتجهت اليها تلتمس طعاما وعلفا لجوادها فوصلت الى احدها وحيت اهله • فرأت امرأة معها صبيان عراة يحومون حولها وهي تحلب لهم لبنا من نعجة • فلما رأى الصبيان أسماء قادمة على فرسها صاحوا بأمهم ففزعت وفزعوا جميعا • فتركوا النعجة ودخلوا الكوخ فنادتهم أسماء وطيبت خاطرهم فعادوا فقالت لهم: «عندكم علف لهذا الجواد ؟» قالوا : «نعم» واعتذروا من خوفهم بأنهم قاسوا أهوالا كثيرة من المحاربين •

وأكرموا وفادة أسماء وجاءوها باللبن ، وللجواد بالعلف ، والتمست حصيرا تتكىء عليه ، فنهض صاحب الدار فأخذ الفرس وشده الى وتد وجاء بحصير كان قد خبأه تحت فراشه أعواما حرصا عليه ، فاتكأت أسماء على ذلك الحصير في ظل الكوخ ونامت نوما عميقا لم تفق منه الا قبيل الغروب •

ولم تفتح عينيها حتى رأت رسولها الذي انفذته بكتابها الى محمد واقفا عند رأسها ، فصاحت فيه : «اين كنت وأين هو محمد ؟»

فعض على شفته وأشار بعينيه ان تسكت مخافة ان يسمعها احد من اهل البيت ، فنهضت ونفحت اهل الكوخ بما تيسر لها وسلمت الفرس الى الرجل ومشت الى جانبه ، وسألته عما يعلمه عن محمد ومكانه وما الذي جاء به الى ذلك المكان •

فقال : «ابشري يا مولاتي ان محمدا قد نجا من هذه الوقعة» •

فقالت : «وأين هو ، وماذا تم له ، اخبرني ؟»

قال : «اني فارقت محمدا منذ جئته بكتابك ، وقد آنست فيه عطفا

علي لا ادري سببه ، وحيثما توجه سرت في ركابه اما راجلا او راكبا •
ولما كانت الوقعة منذ يومين في هذا السهل وقتل كنانة بن بشر قائد مقدمته ، تفرق رجاله حتى اصبح وحيدا فألححت عليه ان يخرج من المعمعة خيرا من ان يقتل» • فلما وصل الرسول الى هذا الحد امتقع لون أسماء وشخصت ببصرها لسماع تتمة الحديث •

فقال : «وأما هو فعزم على البقاء في ساحة القتال الى الموت ، ولكني ألححت عليه في الخروج فأطاعني ، فمشينا حتى انتهينا الى خربة جنب الطريق بالقرب من هذا الجبل (واشار الى المقطم) فأوينا اليها ، وقضينا يومين بلا طعام ولا ماء • فلما رأيت ظمأ سيدي استأذنته في الخروج لآتيه ببعض الماء والطعام ، فأوصاني بأن أبحث عن كتابك فقد كان معه في اثناء المعركة وفقد منه» •

فقالت : «اما الكتاب فقد وجدته بل وجده هذا الجواد • وأين محمد الان ؟ هلم بنا اليه ومعنا الماء» •

فقال : «انه حيث قلت لك على مسافة قصيرة من هنا» •

قالت : «احمل له الطعام والماء وهلم بنا» •

قال : «أما من خوف علينا ؟» • قالت : «ان الشمس لا تلبث ان تغيب ويخيم الظلام فلا يرانا احد ، وأرى ان نبقي هذا الجواد هنا لئلا يدل علينا» • فأخذ الرجل الجواد وعاد الى الكوخ • وبعد قليل رجع بقربة مملوءة ماء وبأرغفة وشيء من الجبن •

وسارت أسماء ورسولها وقد خيم الظلام ، وكان يمشي امامها يدلها على الطريق وهي تكاد تتعثر بأذيالها للهفتها وسرعتها • وقضت مسافة الطريق لا تتكلم لشدة اضطرابها لما تتوقعه من الانفعال عند لقيا محمد•

وقضيا ساعة سائرين لا يكادان يميزان الطريق لو لم يكن جبل المقطم ظاهرا امامهما في الافق فجعلاه وجهتهما ظنا بأن محمد مختبىء بالقرب منه • وكانا يمران تارة بين خيام وآونة بأعشاش وأكواخ صغيرة،

حتى وصلا الى جانب المقطم ، فتقدم الرجل وسارت أسماء في اثره ومشى هو يلتمس الطريق بين أنقاض الخرائب وهي تتبعه وقلبها يدق توقعا للبغتة التي ستصيبها عند اللقاء بعد طول الغيبة .

وبعد هنيهة اختفى الدليل في ظلمة مدلهمة هناك ، فنادته بصوت منخفض فقال : «لقد وصلنا» . فدخلت في اثره الى بيت خرب لم يبق منه الا الجدران وبعض السقف ، ولم تكد تدخل حتى سمعت الرجل يقول : «اين انت يا مولاي؟» . فلم يجبه احد . فقالت أسماء : «لعله كان هنا» . قال : «نعم ، تركته في هذه الخربة» .

قالت : «فلنبحث عنه في غيرها فقد تشابهت الخرائب عليك» . وأخذا يفتشان كل الاماكن المجاورة فلم يقفا له على اثر ، حتى تعبا وملا التفتيش فقالت أسماء : «ما قولك في غيابه ؟» . قال : «لا ادري ، وأخشى ان يكون عمرو قد عرف مكانه فبعث من قبض عليه وهو أعزل» .

فلما سمعت ذلك رجف بدنها وقالت : «وكيف العمل الان ؟»

قال : «اني طوع أمرك» . قالت : «عد بنا الى حيث كنا ، نلبث هناك الى الصباح ثم نسير نستأنف البحث عنه» .

وعادا حتى اتيا الكوخ وعرفاه من صوت الجواد فانه حالما اشتم رائحة القادمين صهل ورفس الارض بحافره ، وباتت أسماء عند ضاحية الكوخ ، وبكر الرجل في الصباح للبحث عن محمد ومكثت هي في انتظاره .

- ٢٢ -

مقتل محمد بن أبي بكر

طال انتظار أسماء عودة رسولها ، فقلقت وندمت لانها لم تخرج معه

للبحث عن محمد ، وأضحت الشمس ولم يرجع فازداد قلقها ولم يعد يطيب لها مقام فمشت بين تلك الاكواخ الى الجهة التي تتوقع ان يكون رسولها قادما منها حتى بعدت مسافة • وبينما هي تتطلع الى آخر الطريق اذ رأت شبحا مسرعا نحوها عرفت من قيافته انه رسولها فاختلج قلبهـا وحدقت لترى ما يبدو منه ، فاذا هو يسرع حتى وصل اليها من شدة التعب وقد احمرت عيناه وكلل العرق جبينه •

فصاحت فيه : «ما وراءك ؟• قل • ما خبرك ؟• هل وجدت محمدا؟» قالت ذلك وقلبها يزداد خفقانا •

فقال وهو يلهث لهثا شديدا : «آه يا مولاتي • نعم وجدته • ولكنه• ولكنه في خطر من القتل ••»

فصاحت : «وكيف ذلك ؟ ومن يقتله؟»

قال : «انهم علموا بمكانه في الخربة قبل وصولنا اليها امس •• آه ضاق صدري من التعب امهليني أستنشق الهواء • دلهم عليه بعض المارة، فحملوه وهو أعزل الى الفسطاط ••»

فقالت : «وبعد ذلك • ماذا جرى ؟»

قال : «لما خرجت في هذا الصباح قصدت الى الفسطاط رأسا لاني اعلم انه لا يبرح مكانه اذا لم يقبضوا عليه ودخلت الجامع وتظاهـرت بالصلاة ، فرأيت ابن العاص ، وعبد الرحمن بن ابي بكر اخا سيـدي محمد ، وسمعت عبد الرحمن يقول لعمرو : (أتقتل اخي صبرا ، ابعث الى ابن حديج فانهه عنه) • فعلمت ان معاوية بن حديج هو الذي قبض عليه ويريد قتله • فطار صوابي ووددت ان اعرف اين هو ابن حديـج لأذهب اليه ، فسمعت عمروا يقول لاحد رجاله : (اذهبوا الى ابن حديج وقولوا له ان يكف عن قتل محمد ويأتيني به) • فخرجت في اثر ذلك الرسول حتى وصلت الى مكان بين الخربة والفسطاط ، فرأيت فيه جمعا

متكاثفا بينهم ابن حديج ومعه رجاله ، وقد احاطوا بمولاي محمد • وقد رق جسمه من العطش والجوع • وتقدم رسول عمرو الى ابن حديج وأبلغه امر عمرو فقال : (قتلتم كنانة بن بشر ، وأخلي انا محمدا ••؟ هيهات هيهات ••) » •

ولا تسل عن أسماء عند سماعها هذا النبأ ، وكيف كان وجهها يتلون• فتطاولت بعنقها وحدقت ببصرها لترى ما تم بعد ذلك وهي تقول : «جزاهم الله شرا على هذا القول • لا • لا • لا أظنه يقتله رغم امر عمرو ولكنه اساء الادب» •

فقال الرجل : «ولو اقتصرت اساءته على ذلك لكان خيرا ، ولكنه منع عن سيدي الماء فقد سمعته بأذني يطلب منهم ان يسقوه ، فقال له ابن حديج بقحة واستخفاف : (لا سقاني الله ان سقيتك قطرة ابدا ، انكم منعتم عثمان شرب الماء ، والله لأقتلنك حتى يسقيك الله من الحميم الغساق) ••»

فلما سمعت أسماء ذلك قالت : «خسيء النذل» • وأصاخت بسمعها، فأتم الرجل كلامه وقال : «فأجابه سيدي محمد : (يا ابن اليهودية النساجة ، ليس ذلك اليك ، انما ذلك الى الله يسقي أولياءه ويظمىء اعداءه انت وأمثالك• أما والله لو كان سيفي بيدي ما بلغتم مني هذا)••»

فلم تعد أسماء تستطيع صبرا على سماع تتمة الحديث وقالت : «وماذا جرى ؟»

قال : «سمعت ابن حديج يقول له : (أتدري ما اصنع بك ؟• أدخلك جوف حمار ثم أحرقه عليك بالنار) ••»

فصاحت أسماء والدمع يتساقط من عينيها وهي تتشدد وتتجلد : «خسيء ابن اليهودية انه لا يجسر على ذلك» •

فقال الرجل : «فلما سمعت قول ابن حديج اسرعت اليك بالخبر ،

لاني رأيت الشر باديا على وجوه القوم» •

فالتفتت أسماء وراءها فرأت الكوخ بعيدا ولا سبيل لها الى الرجوع اليه لتمتطي جوادها ، ولم تعد تطيق الصبر عن المبادرة الى محمد فسألت : «هل يبعد المكان من هنا ؟» • قال : «انه قريب» • فقالت : «هلم بنا اليه» • ومشت وهي لا تدري كيف تنقل قدميها لعجلتها ولهفتها، والرجل لا يستطيع اللحاق بها لانه كان لا يزال تعبا وليس في قلبه ما في قلبها من نار تتعجل خطواتها • ومضت ساعة وهما سائران دون ان تدرك المكان، فندمت لمجيئها ماشية وقد كانت تظن المسافة اقصر من ذلك•

ثم أشرفا على ساحة فقال الرجل : «كانوا في هذه الساحة ، ويلوح لي انهم ساروا الى الفسطاط ، فمشت حتى اتت المكان الذي كانوا فيه فرأت آثار دم وكأن شيئا قد جروه جرا •• فارتعدت فرائصها وجمد الدم في عروقها وصاحت : «ويلاه انهم قتلوه • نعم قتلوه • آه يا محمد يا حبيبي» • فقال لها الرجل : «وكيف عرفت ذلك ؟»

قالت : «أما ترى الدم وآثار جر الجثة» • ثم لطمت وانحدر الدمع على خديها ، ومشت تتبع آثار الجر وعيناها لا تريان الطريق لما يغشاهما من الدمع ، فلم تمش قليلا حتى اشتمت رائحة شواء فمسحت عينيها وتطلعت فرأت دخانا يتصاعد من خربة • فأيقنت انهم قتلوه وأحرقوه في جوف الحمار كما قالوا •

فهرولت الى الخربة لا تلوي على شيء، فرأت هناك جيفة حمار حولها النار موقدة وجوفها مشقوق فتفرست في ذلك الشق فرأت من خلال اللهيب رأس محمد مغمض العينين كأنه في سبات عميق ، فصاحت : «محمد ، آه يا حبيبي • لقد صح قولهم وفعلوا ما ارادوا ، قتلهم الله» • وهمت بأن تلقي نفسها في النار فأمسكها الرجل من ثوبها • فلطمت وحلت شعرها وأخذت في الندب والعويل وهي تمسح عينيها كل لحظة

وتنظر الى جثة محمد من خلال اللهيب فتراه لا يزال نائما ، فتناديه فلا يجيب ، فتهم بأن تلقي نفسها فوقه والرجل يمسكها •

فضاقت بها الحيل فجعلت تدور حوله وتندبه وتندب نفسها وتقول: «يا لشقائي •• آه يا حبيبي يا محمد ، انك لم تلق حتفك الا من سوء طالعي فلو لم احبك لم تمت •• ويلاه •• ويلاه • ماذا أعد من النحوس المحدقة بي •• لا ريب اني ولدت شؤما على نفسي وعلى كل من هـم حولي • نعم عاكسني الدهر ولكنه لم يصب مني مقتلا لان آمالي كانت عالقة بحبيبي محمد وقد صبرت في مصائبي املا في لقائه ، ورضيت من الدنيا ان اكون بقربه • ولكن آه • آه •• لولا هذه الامال لم تقتل يا محمد ، لقد قتلت ليتم شقائي •• فأنا سبب القتل • ولكن كيف تموت هكذا ؟ كيف يختلط جسدك بالتراب ؟ بل كيف تموت هذه الميتة وأبقى انا حية •• كلا ثم كلا» •

قالت ذلك وألقت نفسها في اللهيب كأنها تعانق محمدا ووجهها فوق وجهه • فأسرع الرجل الى انتشالها فاذا هي تختلج اختلاج الموت •

فبكى الخادم بكاء مرا وصبر حتى خمدت النار ، فجمع رفـــات الحبيبين ووضعه في قبر واحد وقال : «انا لله وانا اليه راجعون» •

سلسلة روايات تاريخ الإسلام

تاليف جرجي زيدان

١ ـ فتاة غسان
٢ ـ أرمانوسة المصرية
٣ ـ عذراء قريش
٤ ـ ١٧ رمضان
٥ ـ غادة كربلاء
٦ ـ الحجاج بن يوسف
٧ ـ فتح الأندلس
٨ ـ شارل وعبد الرحمن
٩ ـ أبو مسلم الخرساني
١٠ ـ العباسة أخت الرشيد
١١ ـ الأمين والمأمون
١٢ ـ عروس فرغانة
١٣ ـ أحمد بن طولون
١٤ ـ عبد الرحمن الناصر
١٥ ـ فتاة القيروان
١٦ ـ صلاح الدين الأيوبي
١٧ ـ شجرة الدر
١٨ ـ الانقلاب العثماني
١٩ ـ أسير المتمهدي
٢٠ ـ المملوك الشارد
٢١ ـ إستبداد المماليك
٢٢ ـ جهاد المحبين